دكتور
محمد الأنور حامد عيسى

نظرات
فى العقيدة الاسلامية

الطبعة الثالثة
١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

إهداء

- إلى من علمني الحب والوفاء والصدق.
- إلى من سارا فوق الشوك ليعبدا الطريق ويزرعا الأمل
- إلى النبع الطاهر النقي.
- إلى أمي.
- وروح أبي.

أهدي هذا الحصاد

د. محمد الأنور حامد عيسى



مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله الواحد الآحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله، واحد فى ربوبيته فهو الخالق الرازق المعطى المانع المحى المميت المعز المذل بيده الخير وهو على كل شىء قدير ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾. وواحد فى آلوهيته فهو وحده المستحق للخشوع والخضوع والطاعة والانقياد والتسليم المطلق.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وأشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد،

فهذه هى الطبعة الثالثة من كتاب «نظرات فى العقيدة الإسلامية» حاولت من خلالها بموضوعية وبأسلوب علمى هادىء التعريف بالإنسان، وأسس الدين الحق، وضرورة الدين، والتعرف على العالم وهل هو قديم أو محدث ومناقشة بعض دعاوى الماديين مثل:- القول بالمصادفة والطبيعة والجراثيم الساقطة من كوكب آخر والتولد الذاتى، ثم ذكر بعض الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى مثل- دليل الحدوث - ودليل النظام والتدبير - ودليل الكامل أو اللامتناهى.

وقد آثرت فى هذه الطبعة اضافة أدلة أخرى: مثل دليل واجب الوجود ودليل العناية والاختراع.

وتنتقل النظرات إلى معالجة قضية الصفات الآلهية بايجاز يعتمد على العقل والنقل - وقضية رؤية الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة، وبيان موقف الاشاعرة والمعتزلة منها. وتحديد الموقف من الآيات والاحاديث المتشابهة.

ثم القاء الضوء على قضية القضاء والقدر من حيث التعريف وحكم الإيمان بهما وهل يتنافى الايمان بالقضاء والقدر مع الأخذ بالأسباب؟ والإنسان هل هو مسير أو مخير؟

ونختم الباب الأول بتوضيح موجز لموقف الدين الاسلامى من اليهودية والنصرانية.

وتنتقل النظرات إلى موضوع النبوة والرسالة.

وفيه نضيف بحثا عنوانه «الوحى»، لم يكن فى الطبعتين السابقتين، نرى اهميته وارتباطه الوثيق بقضية النبوة.

وفيه نعرف بالوحى لغة واصطلاحا وامكانه من الناحية العقلية ووقوعه بدليل الشرع ثم نذكر أنواعه.

ويضم الباب الثانى بالاضافة لموضوع الوحى التعريف بالنبى والرسول، وبيان الفرق بينهما، وحكم ارسال الرسل، والأدلة على صحة رسالة سيدنا محمد ﷺ، والتعريف بالمعجزة وبأوجه الاعجاز فى القرآن الكريم ثم نتوقف بالمناقشة مع المنكرين لرسالة رسولنا محمد ﷺ.

ونختم الباب بالحديث عن عصمة الانبياء عليهم السلام.

وفى الباب الثالث والآخير وعنوانه «السمعيات» نعود إلى موضوع الانسان، حقيقته ووسائل المعرفة المعتبرة عنده.

ونناقش باضافات جديدة قضية الموت والآجل والروح والأدلة على وجودها وما بعد الموت من عذاب أو نعيم فى القبر والساعة وبعض علاماتها الصغرى والكبرى والبعث الآخروى بين الإمكان العقلى والتحقق الفعلى بادلة الشرع، وشبه المنكرين للبعث الجسمانى، ومحاولة الاجابة على هذا السؤال ما الحكمة من البعث؟ أو لماذا البعث الأخروى؟ وما هو الموقف من الشفاعة فى الآخرة؟

سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. ولاحول ولاقوة إلابك، تباركت فى علاك ولا معبود سواك.

مدينة نصر فى ١٩ ربيع الثانى ١٤٢١هـ

الموافق ٢١ يوليو ٢٠٠٠م

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى، سبحانه وتعالى متصف بكل كمال ومنزه عن أى نقص.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق والهادى إلى الصراط المستقيم.

وبعد:

فحينما شرفت بتدريس مادة العقيدة الإسلامية فى جامعة الأزهر، ألفيت نفسى أمام تراث ضخم مهيب للأجلاء الذين اشتغلوا بالدفاع عن العقيدة ضد التيارات المتعددة.

وهذا التراث إن دل على شئ فإنما يدل على أمرين:

الأول: أن الإسلام مستهدف من كل القوى منذ بعث محمد ﷺ **إلى يومنا هذا.**

الثانى: أن السلف الصالح ومن جاء بعدهم من الأطهار إلى يومنا هذا، عرفوا ذلك، ولهذا لم يبخلوا على عقيدتهم، فقدموا بالجهد العقلى النقى المستنير بهدى الوحى الكثير، الذى أصبح لنا وللأجيال بعدنا، زاداً طيباً ونبعاً نرتشف منه دون أن ينضب.

وواجهتنى مشكلة وهى: **هل أقدم التراث كما هو، وأكتفى بشرحه لأبنائى؟ أو آخذ منه القدر الذى يعيه جيلنا وأتوخى أن يعرض هذا القدر بأسلوب هادئ؟.**

وفكرت طويلا ورأيتنى أميل إلى الاتجاه الثانى لأسباب من أهمها:

أولاً: أن أساتذتى الأجلاء لم يبخلوا بجهدهم المشكور والمضئ والمضنى فى تقديم الكثير من الشروح والتعليقات بل والتعليقات على التعليقات.

ثانياً: أن العلم التجريبى أصبح سمة مميزة لعصرنا، وصارت كلمته مقبولة فى الكثير من الأوساط.

ثالثاً: أن شبابنا يعيش فى حيرة وقلق، فلا هو قادر - فى عصر علمى تواكبه السرعة فى كل شئ - أن يفرغ ذهنه لتقبل التراث كما عرضه مثلا صاحب المواقف أو المقاصد أو المغنى، ولا هو قابل أن يقدم له هذا الفكر بأسلوب مبسط يخلو من العلم التجريبى.

ولما كان الشباب هو حامل الراية، والمدافع الأمين عن عقيدته الإسلامية فى المستقبل، وهو المستهدف من كل التيارات المعادية للإسلام.

صار لزاما علينا أن نكتب له ونخاطبه - بالطريقة التى هى حبيبة إلى نفسه وبالأسلوب الذى يتفهمه دون تفريط فى التراث أو إفراط فى عرضه، مع الالتزام الكامل بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، واللجوء إلى البحوث العلمية التجريبية كلما أمكن ذلك.

وصار لزاما علينا أيضاً أن نتوخى الموضوعية، بمعنى أن نناقش كل جزئية من جميع جوانبها دون أن يدفعنا هذا إلى الخروج عنها إلى جزئيات أخرى لاتتصل بها، وتكون المناقشة بأسلوب هادئ، لا هو بالعلمى الجاف ولا بالأدبى المسرف بل بالأسلوب العلمى المؤدب.

وبعد: فهذه (نظرات فى العقيدة الإسلامية) حاولنا فيها قدر طاقتنا أن نكون أو فياء لديننا الإسلامى، ولمجتمعنا المتحضر، ولشبابنا المتعطش لمعرفة الحقيقة.

ونحن إذ نعيد طبع النظرات للمرة الثانية ندعو الله سبحانه تعالى أن يسدد على طريق الخير والهدى والنجاح خطا الجميع.

المؤلف

حدائق المعادى فى غرة المحرم ١٤٠١هـ.

مدخل عام

الإنسان والعقل والدين

ارتقت الحياة المادية إلى أن وصلت لذروتها فى قرننا العشرين حيث وضع الإنسان قدمه على القمر، وهو فى طريقه ليضع نفس القدم على المريخ والمشترى والزهرة إلخ.

وقبل ذلك استطاع أن يحطم الذرة، ويصنع من تحطيمها القنابل المدمرة، ولم يكن هذا الترقى إلا نتيجة حتمية لبحثه الدءوب عن الأسباب والمسببات، والعلاقة بينهما.

ولقد كان من الواجب لكى لايدمر التقدم نفسه أن ينقب العقل فى صدق عن حقيقة الإنسان ومتطلبات هذه الحقيقة.

كان من الأجدى للإنسانية، والإنسان على ظهر هذه الأرض أن يتعرف الإنسان على إنسانيته، وعلى القيم التى تجعله سيداً فى كل مايقول ويعمل، ونحن نسأل: هل الإنسان مادة فقط، أو روح فقط، أو من كليهما، وبهما صار الإنسان إنساناً.

لعلى لا أذهب بعيداً إذا قلت: إن الاتجاهات المادية مثل: الماركسية، والوجودية، والبرجماتية تتعامل مع الإنسان على أنه مادة، ولا تؤمن إلا بالمادة، ولهذا حولته الماركسية إلى (ترس) فى آلة كبيرة اسمها المجتمع، أما الوجودية فقد أطلقت له العنان باسم الحرية، وتأكيد الذات ليتخبط فى القلق وحيداً بلا وازع من ضمير، أو خلق، أو قوة عليا، وتركته ليعتصره الصراع، أما البرجماتية فتؤكد له أن كل ماجر نفعاً مادياً عاجلا فهو الحق، وماعداه فهو الباطل.

ونتيجة حتمية لهذه الاتجاهات صار القلق والتخبط والسقوط من أهم سمات هذا العصر.

فعلى الرغم من امتلاء المعدة بأشهى الأطعمة، وتوفر المسكن والملبس بل كل الكماليات، إلا أن سمة بارزة تميز عصرنا الحاضر، وأعنى بها اختفاء القيم الأصيلة، والروابط الأسرية والاجتماعية، وانتشار الأمراض النفسية، والإحساس بالضياع.

وهذه الصفة المقيتة والمرذولة لم تظهر إلا نتيجة تعاملنا مع الإنسان كمادة فقط.

أما إذا اعتبرنا الإنسان روحاً فقط فنحن نبتعد به عن الأرض، ونضعه فى مصاف الأمور الغيبية، وهذا اعتبار ترفضه المشاهدة حيث نرى أجساماً تتحرك وتأكل وتشرب وتتناسل.

إذا ماهي حقيقة الإنسان؟.

تشهد الفطرة السليمة والفلسفات المتزنة، وتؤيد الأديان السماوية تلك الشهادة، أن الإنسان مادة منظورة، وروح غيبية، وللمادة متطلباتها وللروح متطلباتها، ولهذا يقول القرآن الكريم:﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[١]. ويقول الرسول ﷺ: «إن لبدنك عليك حقاً، وإن لدينك عليك حقاً»[٢].

والسؤال الآن: إذا كان الإنسان مادة وروحاً، فإن الجزء المادي يشده إلى الأرض بينما تسمو به الروح إلى السماء، وينتج عن هذا أنعدام التوازن فى الإنسان، فهل فى إمكان العقل البشرى أن يضع الدين أو المنهج الذي يحقق التوازن بين الجانبين.

قبل أن نجيب على هذا يلزمنا التعرف على الإطار العام للمنهج الحق، أو الدين الحق.

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٧.

(٢) رواه البخارى.

أسس الدين الحق

الأساس الأول: أن يكون واضعه على علم كامل بحقيقة الإنسان، ومافيه من رغبات وانفعالات ونوازع، وأن يحدد الحكمة من خلق الإنسان على الأرض، ودوره ومكانته فى هذا الكون الفسيح.

الأساس الثانى: أن يكون واضعه على علم كامل بشتى مناحى الحياة الإنسانية مادية، وروحية، وفكرية ونفسية، واجتماعية، واقتصادية وسياسية وخلقية؛ وذلك لأن حياة الإنسان على الأرض كل لا يتجزء، ولا تستقيم هذه الحياة إلا إذا تحقق التفاعل الكامل بين كل هذه الجوانب بطريقة سليمة، أما إذا اقتصر الأمر على جانب واحد من هذه الجوانب فإن النتيجة تكون مسخاً للإنسان والمجتمع.

الأساس الثالث: أن يكون المنهج أو الدين ثابتاً ومرناً يحيط بالسلوك الإنسانى، ويضع له القوانين العامة التى تتلاءم مع حياته اليومية، وتحقق ذاتية الفرد، واستقرار المجتمع عبر كل الأزمنة، ولايكون ذلك إلا إذا تمشت أحكام الدين مع الفطرة الإنسانية، وراعت هذه الأحكام المصالح المتجددة.

الأساس الرابع: أن يتوفر فى المنهج أو الدين الحوافز الخلقية التى تحيى الضمير، وتجعل الإنسان مسئولا بكامل حريته، وتدفعه للسلوك السوى، ولعمل الخير دون طمع فى مثوبة من إنسان مثله. كما يلزم أن يتوفر فى الدين الزواجر التى تبعد الإنسان عن مخالفته دون رقابة من أحد.

الأساس الخامس: أن يكون الدين أو المنهج عالمياً بمعنى شموليته لبنى البشر دون تفريق بين جنس وجنس، وأن يكون عاماً بمعنى صلاحيته لكل الأزمنة والأمكنة، وأن يلازم الإنسان فى أطوار حياته المختلفة، وأن يوجه الجانب الروحى والجانب المادى.

الأساس السادس: أن لاينبنى على أسس الوهم، أو التعصب، أو الشك، أو الخيال، وأن لا يتصادم فى أصوله الثابتة مع العلم والعقل وأن يعتمد فى مبادئه على الدليل والبرهان.

الأساس السابع: أن يكون واضحاً فى أصوله وفروعه، وفى أهدافه وغاياته وفى الوسائل التى تحقق الأمن والحب والعدل لبنى البشر وأن يوافق هذا الوضوح كل عقليات البشر.

الأساس الثامن: أن يريح الضمير فيما يجهله الإنسان، وأن يقدم الإجابات على تساؤلات العقول فى كل زمان ومكان فلا يختص بالإجابة على جيل دون جيل أو مكان دون مكان.

الدين الحق وعقل الإنسان

بينا فيما سبق أسس الدين الحق، وقد طرحنا سؤالا نقول فيه:

هل يمكن للعقل الإنسانى أن يضع ديناً شمولياً عاماً صالحاً لكل زمان ومكان محققاً للتوازن بين الروح والجسد؟.

ويلزمنا فى الإجابة أن نعرف أن العقل فى حركته يتعامل مع جانبين: جانب فيزيقى أو طبيعى، وجانب آخر ميتافيزيقى أو غيبى، وهو مع الجانب الأول يستمد المعلومات من المادة عن طريق الحواس الخمس وهى:

أولاً: السمع ، حيث تقوم الأذن بما زودت به من دقة فى التركيب بنقل الصوتيات إلى العقل، ولا يشك أحد أن هذه المعلومات المنقولة فيها ماهو صحيح وماهو خطأ، وما هو خليط من الصحة والخطأ.

ويتأثر السمع فى نقله المعلومات بصحة آلته أو فسادها، كما يتأثر بالبعد عن المسموع، أو القرب منه، ويخضع العقل المتلقى للمعلومات المسموعة لمؤثرات كثيرة، وعلى هذا فحينما نقول: إن السمع من النعم الهامة للإنسان نقول فى نفس الوقت: إنه أحياناً يكون ضاراً بالعقل حيث يزوده بمعلومات خاطئة.

ثانياً: البصر، الذى يقوم بنقل صور الأشياء المختلفة بأحجامها وأبعادها، وألوانها، لكنه يتفاوت من فرد لآخر ومن موقف لآخر، ولايحيط إحاطة كاملة بالمرئيات، فنحن نرى بالعين أن الأرض مبسوطة مع أنها غير ذلك، ونرى القمر كرة صغيرة مع أن حقيقته غير ذلك. ولانستطيع بالعين المجردة مواصلة النظر إلى الشمس فإذا أضفنا إلى ذلك أن البصر عرضة الكثير من الآفات كغيره من الحواس كانت النتيجة أن المعلومات المنقولة للعقل عن طريق العين غير مأمونة من الخطأ.

ثالثاً: حاسة الشم، وتقوم بنقل الروائح المختلفة، ولا تستطيع هذه الحاسة نقل المعلومات الشمية إلا إذا كانت قريبة، أما إذا حال بينها

وبين المشموم مرض كالزكام مثلا، أو بعد مفرط فإنها تعجز عن نقل أى شئ.

وعلى هذا فإن مايأخذه العقل من حاسة الشم ضئيل وغير مأمون العواقب.

رابعاً: حاسة اللمس، وتشمل كل أجزاء البدن، وتنقل هذه الحاسة كل ما احتك بجلد الإنسان من أملس أو خشن أو حار أو بارد إلا أن هذه الحاسة كغيرها تتأثر بالآفات المختلفة، وبالتالى فإنها تمد العقل بمعلومات لا تسلم من الخطأ.

خامساً: حاسة الذوق، ويقوم بها فى جسم الإنسان اللسان حيث يقوم بنقل مايصل إليه من المطعومات والمشروبات الحلوة أو المرة إلخ.. إلى العقل.

واللسان لا يحكم إلا على مايصل إليه وهو فى تذوقه للأشياء يخضع للمعهود، وغير المعهود كما يخضع لعادات الإنسان وسط قومه بحيث لو أعطيته مطعوماً مخلوطاً بالملح والسكر فى إنجلترا مثلا رضيه واستحسنه، بينما لو أعطيته نفس المخلوط فى جمهورية مصر العربية لفظه واستاء منه، فإذا أضفنا ألى ذلك أمراض اللسان المختلفة ينتج عن ذلك أن المعلومات التى تنقل للعقل عن طريق اللسان هى معلومات فى كثير من الأحيان مغلوطة.

والإنسان يعيش فى عالم مملوء بالموضوعات، ولكل موضوع دلالاته الخاصة وتنقل الحواس هذه الدلالات إلى العقل، وهى فى نقلها تخضع لمؤثرات كثيرة تؤثر على صدق النقل مما يترتب عليه تطعيم العقل بمعلومات يشوبها التشويش.

ولهذا يقوم العقل بتنسيق هذه المعلومات وتبويبها والبحث عن الأسباب والمسببات والعلاقات بينهما معتمداً فى ذلك على قدراته المختلفة كالقدرة

اللغوية، والقدرة العملية، والقدرة الرياضية والقدرة الميكانيكية، والقدرة التخيلية وغير ذلك، ويعتمد أيضاً على ما تقرر عنده من أوليات مثل: الأب لابد أن يكبر الابن فى السن، ومثل: الواحد نصف الاثنين إلخ.

وربما أخذ العقل هذه المعلومات مجتمعة، أو متفرقة ونزل بها إلى مجال الاستقراء العلمى حيث يخضعها للملاحظات والتجارب وافتراض الفروض وتحقيقها.

والعقل فى كل عملياته هذه لايصل إلا إلى نتائج ربما يرجع عنها مع التقدم العلمى المستمر. يقول البروفيسور سوليفان فى نقده للنظريات العلمية: «هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى نظرية علمية صحيح أنها فروض عملية ناجحة، ومن الممكن تماماً أن يكون سائر النظريات العلمية باطلا، وذلك أن النظريات التى تعتبرها اليوم حقيقة ليست إلا قياسا على وسائلنا المحدودة للملاحظة ولا تزال قضية الحقيقة فى عالم العلم قضية عملية نفعية».

وهكذا فإن العقل فى حركته يعتمد فى الدرجة الأولى على المادة، وهو كثيراً مايخدع من الحواس، وبالتالى فإن معارفة منها جزئية لاتصل إلى حقائق الأشياء، وإنما إلى وصفها فقط، وماكان كذلك كان عاجزاً عن وضع المنهج المتكامل للإنسان.

ونستطيع بعد هذا أن نقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: بليد الفهم يأخذ كل شئ تقليداً ولاهم له على الأرض إلا الأكل والشرب والتناسل.

أما القسم الثانى: فهو يتمتع بالذكاء إلا أن جل همه توجيه هذا الذكاء إلى الارتفاع بالمستوى المادى فهو يبحث كيف يزيد من ثروته ومن عقاراته وكيف ينقض على الضعيف لتكون له المنعة وليكسب الاحترام بالقوة.

وهذان القسمان تسيطر عليهما في الغالب الأنانية الشخصية، و: يهمهما بل ولا يقدران علي التقنين الشمولى للمجتمع.

أما القسم الأخير فهم العلماء والفلاسفة، والعلماء تتعدد تخصصاتهم، بل إن التخصص الواحد ينقسم إلى أجزاء عدة، ولنضرب مثلا توضيحيا لذلك" فعلم الطب نقول عنه تخصص الأطباء إلا أن هذا التخصص فى داخله ينقسم إلى: طب العيون، وطب الأسنان، وطب المخ، وطب الأنف والحنجرة، وطب الصدر وطب القلب، وطب المعدة إلى غير ذلك، وعلى هذا نرى أن طبيب العيون لايستطيع أن يعمل فى مجال طب القلب، وطبيب الأسنان لايستطيع أن يعمل فى مجال طب المخ والأعصاب، وهكذا فى كل تخصص من التخصصات تتعدد المناحى والاتجاهات.

فإذا ذهبنا إلى الفلاسفة وجدنا نفس التعدد والاتجاهات حتى أننا نقع وسط خضم هائل من الآراء المتلاطمة والردود عليها والردود على الردود، ولايجد الإنسان شمولا فى فلسفة من الفلسفات.

وإذا كنا نثق فى العلماء والفلاسفة، ونعتبرهم الصفوة الممتازة فى أى مجتمع من المجتمعات لما يتمتعون به من رجاحة العقل، ومن الرؤية الثاقبة، فإننا نسأل: هل في إمكان هؤلاء أن يضعوا للإنسانية الدين الشامل العام الصالح لكل زمان ومكان؟ لعلنا لانبتعد كثيراً إذا كانت إجابتنا بالنفى، وإلا فأخبرونى عن عالم من العلماء، أو فيلسوف من الفلاسفة من الماضى السحيق حتى حاضرنا استطاع أن يضع التنظيم المتكامل المحقق للعدل والحب والإخاء والمساواة والأمن لبنى البشر، بل أخبرونى عن مقنن لجيل واحد صلحت قوانينه لكل أبناء الجيل، وتمشت مع كل الطبائع المتنافرة لهذا الجيل المذكور.

وإذا كان العقل قاصراً في مجاله الدنيوى المحسوس، فهو أشد قصوراً فى الجانب الغيبى فهو يعجز عن معرفة كنه ذاته، وعن معرفة حقيقة

الروح التى هى أساس حركته، وعن معرفة ماوراء الموت، ومصير الإنسان والبعث والحساب والجنة والنار إلى آخر الأمور الغيبية.

فهل بعد هذا يمكن أن نقول: إن الدين من وضع العقل البشرى؟ أم أنه من وضع القوة العاقلة المدبرة الخالقة لهذا الكون، والمنظمة لكل حركة من حركاته من وضع الرحمن الرحيم الله عز وجل القائل فى القرآن الكريم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الأحقاف الآيتان: ٤ ـ ٥.

هل الدين ضروري للإنسان؟

علمنا فيما سبق أن الإنسان يتكون من المادة والروح، وقلنا: إن إغفال جانب من الجانبين يعنى انعدام التوازن اللازم لبقاء الإنسان سيداً على هذه الأرض، فتعاملنا مع الإنسان كمادة فقط يفقده أعز مايتمتع به من حرية ومسئولية وامال وقيم عليا وضمير خلقى، وتعاملنا معه كروح فقط نعزله بهذا التعامل عن الكون ونحرمه ملذات الحياة، وندفعه إلى الرهبنة والشظف والخشونة، وبذلك توجه البشرية إلى الفناء.

والله سبحانه وتعالي يعلم أن العقل البشرى عاجز عن معرفة كل شئ؛ ولهذا بعث الرسل عليهم السلام بالأديان السماوية ليحققوا التوازن بين المادة والروح فى الإنسان.

بعد هذا نطرح هذا السؤال: هل الدين ضروري للإنسان؟

والإجابة نعم، الدين ضرورى للعقل البشرى، وضرورى للنفس الإنسانية، وضرورى للمجتمع.

أولاً: الدين ضرورى للإجابة على تساؤلات العقل، فإن أى شخص إذا خلا لنفسه وابتعد عن مشاغل الحياة، وتجرد عن الموروثات من العادات والتقاليد، وحاول أن ينظر، فإنه سيجد كونا يبهره، وإذا حاول أن يفسر بعض الظواهر فإنه كثيراً مايعجز رغم تمتعه بالذكاء وتعمقه فى البحث.

والعقل وهو ماكرم به الإنسان لايقف عند المادة فحسب، بل هو كثيراً مايتساءل: ماهذا الكون؟ ولم خلق؟ وماهى مكوناته؟ ومن أين أتت؟ ومن نظمها ووضع فيها القوانين؟ وهل للكون فائدة، وماهي؟ وهل له نهاية؟.

ثم من أنا؟ ومن أين أتيت؟ ولماذا أتيت؟ هل هناك غاية لوجودى؟ وإلى أين أذهب؟ ولماذا تكون نهايتى مروعة؟ وماذا بعد الموت هل ينتهى كل شئ؟

وإذا كان بالموت تقوم القيامة فما معنى العدل وأين هو؟ هل يسوى بين الظالم والمظلوم بين ذلك الذى عاش حياته دفاعاً عن الشرف والكرامة، وقدم روحه فداء لوطنه، وبين ذلك الذى تمرغ فى الوحل والرذيلة، وآثر الانكباب على الشهوات؟ هل يعنى الموت نهاية القاهر والمقهور بلا جزاء، أو أن هناك عدالة لابد أن تطبق ليأخذ كل ذى حق حقه؟

والإنسان إذ يعجز عن الإجابة يتجه إلى ماوراء الكون باحثاً عن حقيقة الحقائق متسائلا: هل هناك إله حقاً؟ وإذا كان الإله موجوداً فما هى الأدلة على وجوده؟ وهل هو مثلنا؟ وأين هو؟ وماهى صفات هذا الإله؟ وماصلة الإنسان به؟.

أسئلة كثيرة يلوكها العقل البشرى بحثاً عن إجابات لها. والدين هو الذى يعطى الإجابات الشافية التى ترضى العقل ولا تصطدم مع العلم، والتى تريح الضمير وتذكو بالقلب. فهو الذى يبين أن الكون بكل مافيه مخلوق من العدم، ويسير من أصغر جزء فيه إلى أكبر مجرة وفق قوانين محكمة لا تتحرك ظواهره جزافاً بل كل مافيه خاضع لإرادة خالقة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(١).

والدين هو الذي يبين أن كل مافى الكون نعمة من الله للإنسان، ومسخر بكل تنوعاته لسعادة الإنسان ورفاهيته نفسياً وجسدياً وروحياً، وماعليه إلا أن يتحرك ليستفيد مما فيه، وماعليه إلا أن يتأمل ملكوت السموات والأرض وفى كل مايحيط به من نعم ليخرج من تأملاته بأن خالقا مدبراً حكيما وراء كل ذرة فى هذا الكون. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾(٢).

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٢) سورة الأعلى: الآيه٢-٣.

ويقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾(١). ويقول سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾(٢). والدين هو الذى يبين للأنسان حقيقة نفسه حتى إذا عرفها عرف الوجود كله: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾(٣). وإذا عرف الوجود عرف أنه مستخلف على هذه الأرض، وأنه مكرم فيها، وأنه سيدها، وأن كل ما حوله مسخر لخدمته، وما عليه إلا أن يفكر ليعرف فهو بالمعرفة يحقق ذاته، ولا يكون عبداً إلا لخالقه.

والدين هو الذى يبين له إن العقل ورسالات السماء، ووجود الإنسان على الأرض، هذه الأمور هى أساس المسئولية ولب الأستخلاف على الأرض، يقول سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(٤).

والدين هو الذى يبين أن الحياة رحلة قصيرة، وأن الموت ليس نهاية مروعة، إنما هو بداية لرحلة الخلود التى تبدأ بخروج الناس من قبورهم ليمثلوا أمام الذات العليه ليجازى كل إنسان عما قدمت يداه فلا الظالم

---

(١) سورة ألنبا: الايات ٦-١٤.

(٢) سورة الطور: الآية ٣٥-٣٦.

(٣) سورة الأنفطار الآيات: ٦-٨.

(٤) سورة الإنسان الآيات: ١-٣.

متروك هملا، ولا المظلوم متروك هملا. يقول سبحانه :﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[1]. ويقول:﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ⑬ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ⑭ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[2].

والدين هو الذى يقدم الأدلة الصادقة على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى اتصافه بكل كمال يليق بذاته المقدسة، وتنزهه عن كل نقص، وأنه تعالى الأول قبل أى شئ، والآخر بعد كل شئ وأنه تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[3]. وأنه خارج الزمان والمكان لأنه خالقهما.

الدين إذاً ضرورى لإرضاء العقل ولولاه لتاه الأنسان وسط الكون.

ثانياً: والدين ضرورى للصحة النفسية والقوة الروحية، والإنسان فى حياته طالت أم قصرت عرضة للكثير من المنغصات والكوارث والمظالم.

فهو بين موت العزيز وضياع المال والآمال، وبين المرض والشيخوخة، وهو مع ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وهو مع التناقضات الكثيرة فى الحياة يدفع دفعاً إلى التوتر النفسى والقلق، وربما إلى اليأس من كل الوجود.

والدين هو الذى يمنحه القوة عند الضعف، والأمل عند اليأس، والرجاء فى لحظات الخوف، والصبر عند الشدائد، وهو الذى يقوى من عزمه ويخفف من ألمه، ويبين له أن كل شئ يسير وفق نظام وحكمة ربانية

---

(١) سورة الزلزلة: الآيات ٧ ٨.

(٢) سورة الإسراء الآيات: ١٢ – ١٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

وأن كل شيء مكتوب، وما على الإنسان إلا الأخذ بالأسباب لأنه لا يعلم ما هو المكتوب. يقول سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾(١). ويقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾(٢). ويقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(٣). ويقول: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾(٤).

والإنسان فى ساعة العسر حينما يعتصم بالدين يجد الصحة النفسية والقوة الروحية، ويحس بالأمن وتشع البهجة فى كيانه. ويغمر التفاؤل روحه ويهون أمامه كل شئ ويتبدل يأسه بالأمل وظلامه بالنور، ومايحس به من ظلم ينمحى مع إيمانه بعدل الله ورحمته وقوته: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾(٥).

ولو تصفحنا الوجود لوجدنا من يعيش بعقيدة صادقة فى الله ويثق فى قدرته تعالى أقوى على الاحتمال، وأقوى مقاومة للأمراض النفسية والعصبية من أولئك الذين يعيشون بلا عقيدة. يقول الدكتور كارل يانج فى كتابه «الإنسان العصرى»: «إن كل المرضى الذين استشارونى خلال الثلاثين سنة الماضية من كل أنحاء العالم كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم وتزعزع عقائدهم، ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم».

ويقول وليم جيمس الفيلسوف الأمريكى الشهير: «إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان».

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥١.

(٢) سورة يونس: الاية ١٠٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٥ - ١٥٦.

(٤) سورة الحديد: الآية ٢٢.

(٥) سورة الطلاق: الآية ٢.

ويقول ديل كارنيجى فى كتابه «دع القلق وابدأ الحياة»: «إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى والاستمساك بالدين كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبى».

ويقول الدكتور بريال: «إن المرء المتدين حقا لا يعانى قط مرضا نفسيا».

وكل الأمراض النفسية أساسها الحزن على مافات أو الخوف مما هو آت، فإذا تيقن الإنسان أن كل شئ بقضاء الله وقدره، وأن ماشاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن وإذا تيقن أن أحداً من البشر لايملك له ضراً ولا نفعاً كان تيقنه وقاية له من كل اهتزازات نفسية، أو تقلبات، وبذا يعيش قوى النفس مطمئنها لايخشى إلا الله.

ثالثاً: والدين ضرورى لإيجاد البواعث ووضع الضوابط الأخلاقية لأى مجتمع مهما ارتقت ثقافته، وقد عرف الإنسان بأنه حيوان اجتماعى ناطق فهو يعيش فى أسرة، ويعيش فى عائلة، ويعيش فى مجتمع وهو فى كل دائرة من هذه الدوائر فى أشد الحاجة إلى بواعث تدفعه لعمل الخير تدفعه للحب والعطاء وعمل الواجب دون خوف من مثله، ودون أن ينتظر جزاء من أحد.

وهو فى نفس الوقت فى حاجة إلى ضوابط أخلاقية تحكم سلوكه، أو بالأحرى في حاجة إلى ضمير خلقى يعرفه الحق والواجب؛ لأن الجزء الحيوانى فيه لايرضيه إلا التقاتل من أجل إشباع البدن والغريزة، والضمير الخلقى هو الذى ينظم سلوكه تجاه بنى جنسه بل تجاه الوجود كله.

ولاتكون البواعث والضوابط الحقيقية إلا من الدين؛ ويخطئ من يتصور أن القوانين الوضعية تكون سلوكا سوياً أو وازعاً داخلياً، فهى فى الحقيقة ترهب من الظاهر، ولهذا فإن الفرد يتحايل ويتفنن فى الخروج عن دائرتها.

أما بالنسبة للإنسان مع الدين فإن الباعث والضابط يأتى من داخل الإنسان وما أتى من داخل الإنسان يصعب الهروب منه، والدين هو صاحب الفضل لأنه يوقف الإنسان أمام نفسه وأمام الذات العلية الله سبحانه وتعالى، ولولا الدين لعاد المجتمع البشرى إلى الغابة وإلى صراعات النفس الأمارة بالسوء، ولما اطمأن أحد على نفسه أو ماله أو شرفه أو كرامته؛ لأن البقاء بدون الدين سيكون دائماً للأقوى وليس للإنسان.

والدين على هذا ضرورى للفرد ليطمئن فى كنفه ويسعد بتوجيهاته وضرورى للمجتمع لتستقر أموره، ويعيش بالحب والأمان والعدل فى عطاء سخى متبادل بين كل أفراده.

الباب الأول
الإلهيات

مدخل عام:

الله عز وجل والعالم:

١) العالم بين الحدوث والقدم.

٢) المصادفة اتجاه عشوائى.

٣) الطبيعة لاتعقل.

٤) الجرثومة الساقطة من أين وكيف؟.

٥) التولد الذاتى باطل.

٦) بعض الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى:

(أ) دليل الحدوث.

(ب) دليل النظام والتدبير والعناية.

(جـ) دليل الكامل أو اللامتناهى.

(د) دليل واجب الوجود.

(هـ) دليلا العناية والاختراع.

٧) صفات الله سبحانه وتعالى.

٨) رؤية الله سبحانه وتعالى.

٩) الآيات المتشابهة.

١٠) القضاء والقدر.

١١) الإسلام والديانات السماوية الأخرى.

(أ) العالم بين الحدوث والقدم

لقد ثبت حتى الآن أن أرقى الموجودات على الأرض، هو ذلك المخلوق العجيب الذى يتمتع بالعقل والخيال الواسع وبقوة الإرادة، والذى استطاع أن يقهر حجب الفضاء الخارجى، ويضع قدمه على القمر، وهو فى طريقه للمريخ، والمشترى وغيرهما من الكواكب.

والعقل الإنسانى فى زهوه يتحرك ولا يثق إلا فى القوانين التى وصل إليها بالملاحظات العلمية الدقيقة، والتجارب المعملية التى سخر من أجلها كل طاقاته الفكرية والمادية.

ولقد فكر العقل الإنسانى عبر الأزمنة الماضية فى الكون، وهداه تفكيره إلى أن العالم مكون من جواهر وأعراض - أى من أصول وخصائص - وعلم أن الأعراض متغيرة، وكل متغير حادث والجواهر ملازمة للأعراض لأنه لا يوجد جوهر إلا وله خصائص، وما لازم الأعراض الحادثة فهو حادث أيضاً. وبناء على هذا قالوا: إن العالم بجواهره وأعراضه حادث وليس أزلياً.

إلا أن بعض العقول لم تركن لهذه النتيجة وتشككت فيها وخرجت بفرض آخر يقول: إن العالم قديم لأن المادة لاتفنى ولا تستحدث من العدم.

وإذا سألنا: كيف علمتم ذلك؟.

قالوا: أجرينا التجارب ووصلنا لهذه النتيجة.

وإذا سألنا: هل التجارب دائماً صادقة؟

قالوا: نعم.

إذن أثبتت التجارب أن الذرة لاتنقسم فهل هى فعلا كذلك؟ يقولون:

لا؛ لأن العلم فى تقدمه استحدث آلات دقيقة أثبتت أن الذرة تنقسم إلى جزيئات صغيرة.

ونحن نقول: العلم إذا باعترافكم فى تقدم مستمر، وهو فى تقدمه يستحدث أدوات جديدة للتجارب والمعرفة فلم لاتكون أدوات التجارب التى تحت أيديكم الآن هى التى تغرر بكم؟ وهل يعنى عجز الإنسان عن معرفة الحقيقة اليقينية أن الحقيقة غير موجودة؟ وهل يعنى عجز الإنسان أو عدم قدرته على إفناء المادة واستحداثها من العدم أنها لا تفنى ولا تستحدث؟ وهل العلم وصل إلى اليقين فى كل شئ؟ أم أنه مازال يحبو نحو الحقيقة لينطلق منها إلى حقيقة الحقائق؟.

أولاً: أثبت العلم أن النجوم تمثل مصادر قوية للحرارة بينما تمثل بعض الكواكب مصدر البرودة، ومعلوم أن الحرارة تنتقل من المستوى الأعلى حرارة إلى المستوى الأقل حرارة.

فلو كان الكون أزلياً - أى ليست له بداية - لتساوت الحرارة فى كل أجزائه. ولقد مرت ملايين السنين على هذا الكون ولم يحدث هذه التساوى، ولو كان قد حدث لما كنا موجودين الآن.

ثانياً: يوجد فى الكون مواد مشعة، وهى تفقد أجزاء منها فى كل فترة وتتحول إلى مواد غير مشعة.

فلو كان الكون أزلياً لكانت المواد المشعة قد تحولت بكاملها وانمحى كل شئ، لكنه لم يحدث ذلك.

ثالثاً: لقد كان معلوماً لدى العلماء فيما مضى أن الذرة لا تنقسم إلا أن العلم الحديث أثبت أن الذرة تنقسم، وهى مركبة من مجموعة من الجسيمات مثل الألكترونات والبروتونات والنيترونات والميزونات إلخ.

والتركيب لا يكون إلا بالحركة والسكون والأجتماع، والافتراق، وما كان ملازماً لهذه الخصائص كان حادثاً؛ لأن كل جسم فى الذرة محتاج للأخر، وفى نفس الوقت محتاج لخصائص تجعله يتلاءم مع الآخر، وعلى سبيل المثال: فالإلكترون ذو شحنة كهربائيةسالبة، والبروتون ذو شحنة

كهربائية موجبة فمن منح كل جسيم خاصية تجعله صالحاً للاندماج بالآخر مكوناً للذرة؟

أهي المادة التى لا تفنى كما تقولون أم أن خالقاً وراءها أو جدها من العدم وأعطى كل جزىء فيها خصائص ليؤدى المجموع غرضاً ما؟

رابعاً: إذا تأملنا المادة وجدناها خاضعة لقوانين ومقيدة بقوانين، وأنها تخرج عن قوانينها إلى حكم قوانين أخرى، وعلى سبيل المثال: الهيدروجين له قوانينه وخصائصه، فهو قبل اختلاطه بغيره خفيف الوزن: وخفته تدفعه للصعود إلى طبقات الجو العليا بسهولة ثم هو قابل للاشتعال.

فإذا أضيف إليه الأكسوجين أصبح الخليط ماء ثقيلا غير قابل للاشتعال سهل الهبوط إلى الأرض.

وعلى هذا فإننا نجد أن القوانين التى تحكم ذرات المادة يمكن بالتدخل الإنسانى داخل المعمل تغييرها، وكل متغير له بداية ونهاية، وما له بداية ونهاية فهو حادث لأن الأزلى لا يتغير.

«ومعلوم أنه لا يمكن وجود مادة بغير خصائص، أو قوانين؛ لأن من المستحيل أن تكون مادة موجودة ولا وزن لها ولا حجم ولا نظام فلا شك أن للمادة بداية بدأت مع بداية الخصائص... وقبل تلك البداية لم يكن هناك مادة أو قوانين»[1].

ونحن لا نناقش هذه القضية إلا بناء على ما وصل إليه العلماء المحدثون.

يقول فرانك ألن أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعات كندا:«ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من

---

(١) عبد الكريم الزندانى – توحيد الخالق ص ٣١.

الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة.. أما الشمس المستعرة، والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون، أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة »[١].

وهذا جون كليفلاند رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولت يخرج بنتيجة بعد ملاحظات وتجارب معملية جديدة يقول فيها:«تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية إذ أن لها بداية... وعلى ذلك فإن هذا العالم المادى لابد أن يكون مخلوقاً، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة»[٢].

ويقول إدوارد لوثر رئيس قسم الأحياء بجامعة فرانسيسكو:«إن العلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية.. ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، وينضب فيها معين الطاقة، ويومها لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية، ولن يكون هناك أثرللحياة نفسها فى هذا الكون، ولما كانت الحياة لا تزال قائمة، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لا ستهلكت طاقته من زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود... ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة»[٣].

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٦.

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٥.

(٣) الله يتجلى فى عصر العلم ص٢٧.

ويؤيد هذا الرأى إير فنج وليام أستاذ العلوم الطبيعية فى جامعة ميتشجان حيث يقول: «فعلم الفلك مثلا يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة، وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد أن هذا الكون أزلى ليس له بداية أو أبدى ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغير»[١].

ويصل دونالد روبرت كار أستاذ الكيمياء الجولوجية بكلية شلتون بعد بحوث مستفيضة إلى نتيجة تؤكد أن الكون لو كان أزلياً لانتهى كل شئ منذ أمد طويل «يستخدم في الوقت الحاضر عدد من الطرق المختلفة لتقدير عمر الأرض بدرجات متفاوته من الدقة ولكن نتائج هذه الطرق متقاربة إلى حد كبير، وهى تشير إلى أن الكون قد نشأ منذ خمسة بلايين سنة، وعلى ذلك فإن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، ولو كان كذلك لما بقيت فيه أى عناصر أشعاعية، ويتفق هذا الراى مع القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية»[٢].

ويمكننا بعد هذا أن نقول: إن العالم مركب من أجزاء كثيرة وكل جزء من الأجزاء محتاج للآخر، والعالم بكل مافيه متنوع ومتغير بصفة مستمرة وكل متغير من صورة إلى صورة لايمكن أن يكون أزلياً؛ لأنه لو كان أزلياً لما طرأ عليه التغير، وبناء على كلام العلماء السابق نقول: إن هذا المتغير لم يكن له فى أول الأمر صورة لأن الصورة تشمل الشكل والحجم والوزن واللون الخ، ومالم يكن له صورة يكون معدوماً، وماكان معدوماً ثم وجد فهو مخلوق، وكل مخلوق حادث فالعالم إذاً حادث.

وبعد أن علمنا أن العالم حادث نأتى إلى سؤالين ولنجعل الإنسان أساساً لهما لأنه وحده على الأرض الذى يتمتع بالعقل والإرادة

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص٥٢.

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٨٥.

ويخزن المعلومات ويعمل جاهداً على الإجابة على من أين وإلى أين ولماذا؟.

والسؤالان: من الأقوى؟ الإنسان أم المادة الصماء؟.

الإنسان أم النطفة المتحولة إلى علقة فمضغة ثم إلى عظام ولحم؟

يقولون: الإنسان هو الأقوى...

وهنا نأتى إلى سؤال: إذا كان الإنسان هو الأقوى والأقدر والأعقل وهذا الإنسان بما أوتى من مال وبما عنده من أجهزة علمية استطاع أن يعرف الكثير، فهل يستطيع هذا الأقوى أن يخلق إنساناً مثله؟.

لنردد السؤال بطريقة ثانية: هل يستطيع أن يخلق ذبابة صغيرة؟ لنقل غير ذلك؛ هل يستطيع أن يخلق خلية واحدة حية؟.

لقد طرحت هذه الأسئلة فى العام الماضى(١) على أبنائى من الطلاب الذين شرفت بالتدريس لهم، ووقتها أجابنى بعض طلاب كلية الهندسة بما طيرته وكالات الأنباء عن العالمين اللذين استطاعا بعد دراسة مستفيضة أن

---

(١) كان ذلك فى عام ١٩٧٩. وفى عام ١٩٩٩ روج نفس الإعلام لنفس الأفكار السابقة تحت عنوان الاستنساخ وحتى هذه اللحظة من سنة ٢٠٠٠ يرددون أنه صار فى إمكان العلم إيجاد صورة مكررة لأى إنسان بعد ما تمكن العلماء من استنساخ نعجة صغيرة من النعجة الكبيرة دولى تشبهها تماماً.

وتتلخص فكرة الاستنساخ فى أخذ خلية حية كاملة الكرموزومات من الحيوان المراد استنساخ صورة منه وأخذ بويضة من أنثى مع تفريغها من كل المورثات ووضع الخلية فى البويضة المفرغة تحت ظروف هى غاية فى التعقيد تجعلها تتكاثر ثم نقل هذه الخلية التى تكاثرت إلى رحم أنثى وإبقائها تحت الإشراف العلمى فترة الحمل العادية إلى أن تحين لحظة الولادة.

والسؤال الآن من خلق الخلية الحية بكل خصائصها؟ ومن خلق البويضة؟ ومن خلق الأنثى برحمها لتكون وعاءً؟ ومن دفع الخلية للتكاثر والتشكل؟ ومن أبقى على الحياة فيها ومن خلق العلماء وأعطاهم سلطان العلم. يقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ الطور ٣٥ ـ ٣٦.

يوفرا الظروف لالتقاء حيوان منوى ببويضة داخل أنبوبة ثم أرجعا النطفة المزدوجة بعد فترة إلى رحم الأم.

وقالوا وقتها: لقد خلق الإنسان الإنسان.

وحقيقة فإن العذر كله لهم لأن مصيبة العالم هى سيطرة الإلحاد على الكثير من أجهزة الإعلام، والإلحاد دائماً لايهمه إلا تزييف الحقائق، والتشويش على العقول.

ولكل إنسان عاقل أطرح هذا السؤال الذى طرحته على أبنائى فى العام الماضى: هل يستطيع الإنسان إن يرجع الحياة إلى عزيز مات؟ وهل يستطيع الإنسان إن يخلق حيواناً منوياً واحداً أو بويضة واحدة؟.

وفى انتظار الإجابة العلمية نواصل المسير ونقول بدءاً:إن العالم ليس حيواناً منوياً واحداً، وليس بويضة واحدة، وإنما هو مهول فى اتساعه، وفى تشكيلاته وتنوعاته... دقيق في قوانينه متقن فى تنظيمه، ولقد أثبت العلم أنه حادث فمن أحدثه؟.

يقول بعض الماديين. إنه خلق بالصدفة، ويقول بعض ثان: إن الخالق هو الطبيعة، ويرجع بعض ثالث وجود الحياة على الأرض إلى جرثومة سقطت من كوكب آخر، ويرجع بعضهم أساس الحياة إلى التولد الذاتى من المادة الصماء.

فما مدى الصحة فى هذه الأقوال؟

لنناقش بإيجاز وتبسيط.

(٣) المصادفة اتجاه عشوائى

المصادفة، أو العشوائية اتجاه يلجأ إليه الباحث فى تقسيمه لبعض الظواهر.

فهو علمياً حينما يبدأ فى بحث ظاهرة ما، فإن خطواته الأولى تبدأ بملاحظة هذه الظاهرة بكل حواسه مستخدماً مايصلح من الالات العلمية للسير معه، ولجعل ملاحظاته دقيقة، ثم إذا قدر على إخضاع هذه الظاهرة للتجربة فإنه يدخل بها إلى المعامل. وبعدذلك ينتقل من مرحلتي الملاحظة والتجربة إلى التكهن بالأسباب، أو افتراض الفروض، ولكى يتأكد من صحة فروضه فإنه يلجأ مرة ثانية إلى الملاحظات والتجارب، فإن صحت فروضه خرج بالنتيجة، وإن لم تصح حاول وضع فروض أخرى.

وهكذا يسير البحث العلمى، إلا أنه حينما يتعذر عليه تفسير الظاهرة فإنه يلجأ إلى نظرية الاحتمالات، وفى آخرها توجد المصادفة.

واللجوء إلى تفسير الظواهر بأنها حدثت مصادفة إنما يثبت فى الواقع عجز الإنسان وقصور ماوصل إليه من علوم عن معرفة الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الظاهرة.

ولقد فكر بعض العلماء الماديين فى الكون، وأرادوا التكهن بأسباب نشأة الحياة فيه، وعلى الرغم من اقتناعهم بأن كل شئ فى الكون من أصغر جزئ فى الذرة إلى أكبر مجرة يخضع خضوعاً كاملا لقوانين صارمة ويسير بنظام ليحقق الهدف من وجوده.

وعلى الرغم من أنهم يعلمون يقيناً أن علمهم لم يصل حتى الآن إلا إلى معرفة بعض القشور للمادة وخصائصها، ومازال الكثير فى حاجة للمعرفة مجرد المعرفة لا الخلق.

وأخيراً فإنهم فى نفس الوقت لم يقدروا على ملاحظة كل مافى الكون أو إخضاعه للتجربة.

على الرغم من كل هذا العجز إلا أنهم حينما حاروا فى تفسير الكون، ومعرفة نشأة الحياة فيه، لجأوا إلى افتراض وجوده بالمصادفة.

ولو أنهم اختبروا هذا الفرض بصدق وروية لسقط من أول محاولة للاختبار إلا أن جمودهم العقلى، وعدم قدرتهم على تصور وجود الخالق الأزلى دفعهم إلى القول بصحة نظرية المصادفة.

ونحن هنا لن نسهب فى المناقشة، ولكننا ندعوا كل إنسان، وببساطة أن يفكر فى تكوينه هو، وأن يتأمل فيما حوله من المخلوقات، وأن يناقش الظواهر التى تحيط به بشئ من التعقل، وليضع أمامه هذا السؤال:

هل يمكن للمصادفة أن تنتج هذا العالم، وأن تسير كل شئ وفق قوانين محكمة متقنة.

لقد كنا ونحن أطفال نلعب لعبة الملك والكتابة فنمسك بالقرش ونلقى به إلى أعلى، ويقول أحدنا: ملك، ويقول الآخر. كتابة، ومصادفة يأتى الملك، أو تأتى الكتابة؛ لأن العملة ذات وجهين، ولابد من أحدهما؛ لأن الاحتمالات تجرى بين واحد إلى واحد.

وحينما امتد بنا العمر قال لنا الماديون: إن العالم نشأ مصادفة حيث تجمعت الجزئيات لتكون الذرة مصادفة، وتجمعت الذرات على نسب وأوضاع مخصوصة لتكون العناصر الأصلية مصادفة، ثم تلاقت العناصر الأصلية، وتجمعت بنسب صالحة، وفى مدد كافية، وفى أجواء ملائمة فكان الإنسان، وكل الحيوانات، والنباتات، وكل هذا حدث مصادفة.

وبدأنا نفكر فى هذا الكلام وعرضناه على لعبة الملك والكتابة فوجدنا اللعبة البسيطة تستبعد نشأة العالم مصادفة لما فيه من تكوينات عجيبة ومعقدة، ووجدنا اللعبة تقوم على التزاحم بين الملك والكتابة فقط أما التزاحم فى الكون فهو بين بلايين لاتحصى من الأشياء ومن بين هذه الأشياء الروح والعقل والنفس.

(١) قصة الإيمان ص ٢٩٣.

يقول قانون المصادفة: «إن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتزاحمة، فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة، ازداد حظ المصادفة من النجاح، وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة»[1].

فنحن فى لعبة الملك والكتابة كان التزاحم بين وجهى القرش، ولهذا فإن المصادفة لاتكون مستحيلة. أما لو تزاحمت الأشياء فإن المصادفة تقل بل ربما وصلت إلى الاستحالة مع كثرة الأشياء المتزاحمة.

ولنتابع هذا الحوار بين نديم الجسر – مؤلف قصة الإيمان بين العلم والفلسفة – وتلميذه حيران لنتأكد من صدق مانقول:

أتى الجسر بعشر إبر وبلوح صغير، وثبت اللوح فى الحائط، ثم قال لتلميذه:

«اغرز فى اللوح إبرة وضع فى ثقبها إبرة ثانية، وقل لى ياحيران إذا رأى إنسان عاقل هاتين الإبرتين، وسأل كيف أدخلت الثانية فى ثقب الأولى؟ فأخبره إنسان معروف بالصدق أن الذى أدخلها رجل ما قذف بها من بعد عشرة أمتار... ثم أخبره إنسان آخر معروف بالصدق أيضاً أن الذى ألقاها صبى صغير ولد من بطن أمه أعمى فوقعت فى الشق بطريق المصادفة فأى الخبرين يصدق؟.

حيران: إنه ولا ريب يميل لتصديق الخبر الأول، ولكنه أمام صدق المخبرين يرى أن المصادفة ممكنة فلا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر.

الشيخ: ولكن إذا رأى هذا الرجل إبرة ثالثة مغروزة فى شق الثانية فهل يبقى عدم الترجيح على حاله؟

---

(١) قصة الإيمان ص ٣٩٢.

حيران: كلا بل يتقوى ترجيح القصد على المصادفة، ولكنه على كل حال يبقى ترجيحاً ضعيفاً.

الشيخ: ولكن إذا رأى الرجل أن هنالك عشر إبر كل واحدة منها مغروزة فى قلب الأخرى، فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على ضعفه.

حيران: كلا بل يتقوى عنده ترجيح القصد حتى تكاد فكرة المصادفه أن تتلاشى...

الشيخ: إذا ترقينا فى تعقيد الأحجية، وقلنا: إن الإبر العشر مرقمة بخطوط لكل واحد منها رقم من الواحد إلى العشرة، وقيل لنا في الخبر: إن الصبى الأعمى أعطى كبساً فيه هذه الإبر العشر مخلوطة مشوشة، وأنه كان يضع يده فى الكيس ويستخرج الإبر تباعاً على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ويلقيها فتقع الأولى فى شق المغروزة فى اللوح وتقع الثانية فى الأولى وهكذا حتى أتم إدخال الإبر العشر بعضها فى بعض على ترتيب أرقامها بالمصادفة فهل يصدق من يقول بذلك؟.

حيران: لاريب أنه لايصدق؛ لأن المصادفة بهذا التتابع والتعاقب بعيدة جداً جداً.

الشيخ: بل إنها فى مجال الأعداد الكبرى تصبح مستحيلة بداهة[1].

لنضرب مثلا آخر: لو أحضرنا ورقتين وكتبنا على الأولى الحرف (أ)، وعلى الثانية الحرف (ب)، وطلبنا من الطفل الأعمى أن يكون منهما كلمة أب فإن احتمال المصادفة ممكن جداً.

فإذا كتبنا على ورقة ثالثة الحرف (ت) وعلى الرابعة الحرف (ث) وأعطينا الطفل الورقات الأربع، وطلبنا نفس الطلب فإن المصادفة تقل قليلا أما لو كتبنا حروف الهجاء كلها كل حرف على ورقة وطلبنا نفس الطلب فإن المصادفة تقترب من الاستحالة.

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٧٣، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم»

أما لو صعدنا الموقف، وطلبنا من الطفل أن يكون من الحروف التى معه – لا إله إلا الله محمد رسول الله – فإن المصادفة تكاد تكون مستحيلة لأن التزاحم أصبح بين ثمانية وعشرين حرفاً، والمطلوب جملة مفيدة.

فإذا ترقينا بالموقف أكثر وأعطينا رجلا عاقلا مبصراً صندوقاً به مئات الالاف من حروف الطباعة، وطلبنا منه بعد إغلاقه أن يستمر فى تحريكه لأى مدة شاء وليأت لنا فى النهاية بقصيدة لامرئ القيس، أو لعنترة فهل يمكن بالمصادفة أن يحدث ذلك؟.

إننا نقول لمن يجيب بنعم: أن يبدأ بإجراء التجربة إلى نهاية عمره وليقل لنا ما هى النتيجة؟.

وإذا كانت المصادفة مع الأشياء المتزاحمة المحدودة مستحيلة فكيف يتصور عاقل حدوث هذا الكون بالمصادفة؟ يقول «أكريسى موريسون» الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك: «إن الأكسوجين والهيدروجين، وثانى أكسيد الكربون، والكربون هى العناصر الرئيسية البيولوجية، وهى عين الأساس الذى تقوم عليه الحياة، غير أنه لاتوجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضى بأن تكون كلها فى وقت واحد، وفى كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة، وليس لدى العلماء إيضاح لهذه الحقائق. وأما القول: بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية»(١).

ويقول جون أدولف بوهلر أستاذ الكيمياء بكلية أندرسون: «عندما يطبق الإنسان قوانين المصادفة لمعرفة مدي احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى الطبيعة مثل: تكون جزئ واحد من جزئيات البروتين من العناصر التى تدخل فى تركيبه، فإننا نجد أن عمر الأرض الذى يقدر بنا

محاضرة فرنك ألن ص ١١٩.

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٠٠.

يقرب من ثلاثة ملايين من السنين أو أكثر لايعتبر زمناً كافياً لحدوث هذه الظاهرة، وتكوين هذا الجزئ[١].

ونختم الحديث عن المصادفة بقول سوارتزن عضو جمعية علم التربة بأمريكا يقول فيه بعد حديث طويل عن الكون والنظام فيه: «من الطبيعى أن يتساءل الإنسان بعد ذلك: لماذا وجدت هذه القوانين؟ ولماذا قامت بين الأشياء المختلفة ومن بينها التربة والنبات تلك العلاقات العديدة التى تتسم بذلك التوفيق الرائع بين القوانين مما يؤدى إلى تحقيق النفع والفائدة.... كيف نفسر كل ذلك النظام والإبداع الذى يسود هذاالكون؟ هنالك حلان: فإما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض الصدفة وهو ما لا يتفق مع المنطق والخبرة وما لا يتفق فى الوقت نفسه مع قوانين الديناميكا الحرارية التى يأخذ بها الحديثون من رجال العلم، وإما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبر وهو الرأى الذي يقبله العقل والمنطق. وهكذا نرى أن العلاقة بين النبات والتربة تشير إلى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره»[٢].

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٠٠.

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٩٩.

(٣) الطبيعة لاتعقل

من الغريب أن أى انتصار يحققه عالم مادى فى مجال المادة يجعله فخورا مزهواً بنفسه وهو يقول: لقد قهرت الطبيعة.

بينما هو فى نفس الوقت يعتقد أن الطبيعة هى خالقة كل مافى الوجود أو هى التى تمنح الحياة لكل حى فى الكون.

فكيف يكون إلهاً ذلك الذى يقهره الإنسان ومن ثم يعبده.

إن القول بالطبيعة عود بالعقل البشرى إلى الوثنية الأولى، فلقد فكر الإنسان الأول فيما حوله، وحاول تفسير مايحيط به من أشياء، وحينما سيطر الغموض عليه شعر بضعفه، وكان له أن يلتمس العون من قوى أخرى، فأله الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار والأبقار.

وجاءت الرسالات السماوية لتنير الطريق أمام البشر، ولتجعلهم سادة على كل مافى الكون.

إلا أن بعض العقول لاترضى بالسيادة بل تطمح وتعشق العبودية، ولهذا راحت فى عصرنا الحاضر تجمع الأوثان السابقة تحت اسم الطبيعة وتدعى أنها هى الخالقة.

ولنا أن نسأل: ماهى الطبيعة؟ أهى الماء والنار والتراب والهواء؟ أهى الأرض والشمس والقمر والكواكب الأخرى؟ أهى القوانين التى يخضع لها الكون من الذرة إلى المجرة؟ أهى الصفات والخصائص التى تلازم المادة من حركة وسكون، واجتماع، وافتراق، وقابلية للنمو والتغذى والتوالد والتلون؟ أهى الزمان والمكان ومايحدث فيهما؟.

وللحقيقة فأيا كان الجواب فنحن نسأل سؤالا آخر: ماهو الإنسان؟

والإجابة نعرفها جميعاً، أنه حيوان ناطق مريد، ولقد اقتضى النطق أن يكون مفكراً حياً سميعاً بصيراً ذا إحساس خاص، فهو وحده الذى

يفرق بين العدل والظلم والفضيلة والرذيلة، واقتضت الإرادة أن يكون ذا ضمير ونوازع ورغبات وآمال.

وبالعقل والإرادة استطاع الإنسان أن يخضع الطبيعة، وأن يسخرها لخدمته.... ونعنى بالطبيعة هنا كل المفاهيم التى يقول بها الماديون.

وإذا كان الإنسان له هذه القدرات والصفات فهل استطاع أن يخلق أى شئ وهو جزء من الطبيعة وأرقى مافيها؟.

وهل استطاع أن يفسر كل مايحيط به، وأن يصل إلى كل القوانين التى تحكم الكون؟.

لقد أثبت القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الكون مخلوق، وعلى هذا نكرر السؤال: من خلقه؟.

والإنسان وهو السيد العاقل المدبر المختزن للمعلومات، والمسخر لكل الآلات لم يخلقه؛ لأنه مخلوق. فهل يعقل أن تخلق المادة الصماء نفسها؟ وهل يعقل أن تصنع المادة كل هذه التنظيمات فى الكون؟ وهل يعقل أن تخلق المادة الصماء مع كل مايحيط بها من قوانين الإنسان العاقل.

إن فاقد الشئ لايعطيه، والطبيعة جاهلة لاتعى شيئاً، وعلى هذا نقول: إنه من المستحيل أن يكون العقل فى الإنسان ممن لا عقل له، والإرادة فى الإنسان ممن لا إرادة له، والسمع فى الإنسان ممن لاسمع له، والبصر فى الإنسان ممن لا بصر له، والمشاعر، والأحاسيس، والأحكام، والأخلاق ممن لا مشاعر، ولا أحاسيس، ولا أحكام، ولا أخلاق له.

إن القول بالطبيعة قول بإلغاء العقل فى الإنسان، وبإلغاء قانون السببية، وقانون التناقض، فالأرض تخلق الأرض، والشمس تخلق الشمس، والنبات يخلق النبات، والإنسان يخلق الإنسان وهكذا، أو قل إن شئت: إن صفات الإنسان تخلق الإنسان، وصفات الأرض تخلق

الأرض، ويعنى هذا أن المعدوم يخلق وجوده والموجود يوجد نفسه وهذا ظاهر البطلان.

يقول سيسيل هافان العالم البيولوجى بجامعات أمريكا:

(الحق أنه من قطرة الماء التى رأينا تحت المجهر إلى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر لايسع الإنسان إلا أن يمجد ذلك النظام الرائع، وتلك الدقة البالغة، والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه، ولو لاثقة الإنسان فى أن هناك قوانين يمكن كشفها، وتحديدها لما أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها.... لو أنه كلما أجريت تجربة أعطيت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها على المصادفة، أو عدم وجود قوانين مسيطرة... فأى تقدم كان يمكن أن يحققه الإنسان، لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى، فليس مما يقبله العقل أن يكون هنالك نظام، أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى، ومنظم مبدع، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادى قائلا: إن الله هو الخالق وليس الإنسان إلا مستكشفاً)(١).

ويرد سانتلانا على من يقولون بأن الطبيعة هى الخالقة قائلا:

(أما القول بالطبيعة، وأن لاشئ غيرها، فهو لايرضى العقل المتبصر...

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب، والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول؟.... وكيف اجتمعت تلك الأجزاء، وكيف تآلفت على اختلاف أشكالها، وتباين موادها؟ وكيف بقيت على تآلفها؟ وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة؟... هذا... وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولاشئ سواها فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه؟ وهى مع مافيها من العجز والقصور، وكثرة الخطأ من أظهر الشواهد على وجود مايخالف مجرد

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٤٢.

المادة فى هذا العالم... هل يحتمل أن ماتضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة، والمآخذ العميقة، وماخفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء...

إن المادة غير قادرة لأن تكون علة نفسها، فمن باب أحرى أنها لاتكون علة لما هو أعلى مكاناً، وأهم شأناً فى درجة الوجود، وإلا كان الأخس أصلا لما هو أرفع، وهذا مايستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة)[١] .ونختم الكلام عن الطبيعة بقول كلودم هاتاوى مصمم العقل الألكترونى للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلى فيلد:

(إن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها .... إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين، ولابد له من سبب أولى لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية، ولابد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته إنه هو الله اللطيف الخبير)[٢].

---

(١) مخطوط المذاهب الإسلامية.

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩١.

(٤) الجرثومة الساقطة من أين وكيف؟

لقد نظر بعض الماديين إلى الكون وهالهم مافيه من تعدد وتنوع وتناسق ومايحكم كل جزء فيه من قوانين هى فوق متناول عقولهم وتجاربهم، وكان من المنطق العلمى السليم أن يسلموا بوجود السبب الأول أو العلة الأولى لوجود هذا الكون ولكنهم لم يعقلوا بل أغمضوا عيونهم وعقولهم عن الحقيقة، وراحوا يتخبطون بحثاً عن سبب لوجود الحياة على الأرض.

(وبدا لبعض العلماء المعاصرين وأشهرهم هلمولتز أن الجراثيم الحية هبطت إلى الأرض من بعض الكواكب)[1] .

ونشأ عن استقرارها على الأرض كل مكونات الحياة.

ويبدو ضعف هذا الكلام من أول وهلة فهو:

أولاً: لم يقل لنا شيئاً عن نشأة الكون وهل هو قديم أم حادث؟.

ثانياً: إنه مبنى فى أساسه على المصادفة وقد تبين لنا أن المصادفة مستحيلة تماماً فى نشأة هذا الكون.

ثالثاً: إنه يجعل العلة الأولى لنشأة الحياة أضعف من المعلول، ومعلوم أن العلة لابد أن تكون أقوى من المعلول أو على الأقل فى قوته.

رابعاً: إنه لم يبين لنا كيف نشأت الكواكب الأخرى؟ وكيف نشأت الجراثيم عليها؟ وقد تبين لنا أن القول بالطبيعة هروب من الواقع العقلى وارتماء فى أحضان الخيال المشوش.

خامساً: إنه لم يذكر لنا كيف حافظت الجراثيم على نفسها؟ وكيف هبطت إلى الأرض، وما الذى قامت به لتتفادى الحرارة أو البرودة القاتلة التى مرت بها فى أجواء الجو العليا ثم كيف نشأت التنوعات الحية المتقنة التى تتحرك على الأرض وفق نظام دقيق وقوانين صارمة؟.

---

(١) يوسف كرم – الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ٥٠.

لقد استخدم العلماء أحدث ماوصلوا إليه من تكنولوجيا وأنفقوا الأموال الطائلة ودرسوا كل الاحتمالات والمخاطر ولم يكن ذلك إلا ليضعوا قدم الإنسان على أقرب كوكب للأرض وهو القمر.

فهل فكرت الجراثيم الهابطة إلى الأرض فى ذلك أو أنها سلكت طرقاً لم يصل إليها العلم الحديث.

يقول أ.كريسى موريسون: (لقد كان من العسير على تلك الجرثومة أن تبقى حية فى درجة حرارة الصفر المطلق فى الفضاء، وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك فإن الإشعاع الكثيف للموجة القصيرة كان يقتلها ... وفضلا عن ذلك يعود بنا هذا الفرض خطوة أخرى فيما نحن بصدده لأننا يمكننا أن نسأل: كيف بدأت الحياة على أى كوكب من الكواكب؟)[١] .

ويقول الدكتور يوسف كرم: (ولكن هذا الرأى يدع المسألة حيث هى إذ أننا نفحص عن أصل الحياة... وكان يتعين عليهم أن يفسروا أصل الحياة فى تلك الكواكب)[٢] .

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٩٨.

(٢) الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ٥٠.

(٥) التولد الذاتى باطل

وامتداداً للفكر المادى وإيماناً بأن المادة هى وحدها أساس كل مافى الوجود.

حاول بعض الطبيعيين البحث عن أساس لوجود الحياة على الأرض ورأوا - وعلى رأسهم أرنست هيكل العالم البيولوجى الألمانى - أن أساس الحياة هو المادة فقد تولد عن المادة بعض الحيوانات، يقول هيكل: (إن الكون مؤلف من المادة والمادة مؤلفة من الذرات ومن هذه المادة ظهر كل مافى الكون من أحياء وغير أحياء)[١].

وإذا سألناه عن إيضاح لهذا الرأى قال:

(إن أصل الحياة نشأ من توازن نسبى بين مقادير خاصة من العناصر المادية، ولكن هذا التوازن دقيق جداً إلى حد أنه قد يكون نقص جزء واحد أو زيادة جزء واحد من أحد العناصر سبباً فى نشوء الحياة أو تعطل نشوئها)[٢].

ولو سرنا معه فى نفس التفكير وافترضنا أنه حق وسألناه عن مدى علمه بمعرفة العناصر المادية بحكم وضعه كعالم بيولوجى وعن إمكانية أن يفعل شيئاً بهذا العلم لأجابنا أنه يعلم الكثير ولذا قال: (أعطونى هواء ومواد كيماوية وماء وأنا أصنع إنساناً)[٣].

والحقيقة أن قول أرنست هيكل وبوخنر وغيرهما عن نشأة الحياة من المادة بالتولد الذاتى هو امتداد للفكر المادى فى نشأة الكون يقول دكتور يوسف كرم: (فمنذ أمد بعيد كان الاعتقاد شائعاً بأن بعض الحيوانات الدنيا تتولد من الماء الآسن والطين والجثث المتعفنة أو أن الأحياء جميعاً تولدت فى

---

(١) قصة الإيمان ص ١٨٨.

(٢) قصة الإيمان ص ١٨٩.

(٣) العلم يدعو للإيمان ص ١٥٢.

مياه الأنهار والبحار ثم تطورت إلى مانشاهده الان، وهذا مايسمى بالتولد الذاتى أى التولد الحادث عن الجماد مباشرة لا عن حى سابق)[١].

وفى ريفنا من يقول بذلك دون قصد حينما يرددون القول بأن: (دود المش منه فيه).

وإذا كنا نلتمس العذر لجداتنا القائلات بذلك فإننا نسأل هيكل: أيكما أعقل المادة أم أنت؟ من الذى يجرى التجارب، ويستخدم أدق الآلات العلمية؟ من يسخر الآخر المادة أم أنت؟ وإذا كنت تعرف أن العناصر الأصلية متعددة ومتنوعة، وعلى فرض كلامك إن الحياة تولدت من توازن نسبى بين مقادير خاصة من العناصر، وكأن هذا التوازن بالغ الدقة، فهل حدثت هذه الدقة بالمصادفة أم بتدبير خاص من العناصر نفسها؟.

والصدفة مع كثرة تعدد العناصر مستحيلة، وجزئيات المادة ليست عاقلة حتي تدبر وتضع المقاييس الدقيقة.

وإذا كان أرنست هيكل قد تمادى فى غروره المادى وادعى أن فى قدرته صنع الإنسان لو أعطى الماء والهواء والمواد الكيماوية فهو يعترف ضمنياً أن المادة الصماء أقوى منه، وهذا لم يقل به أحد، ويعترف أيضاً أنه غير قادر على خلق هذه العناصر وإلا لما طلب منحها له، والماء والهواء، والمواد الكيماوية كانت تحيط به طيلة حياته ولم يفعل شيئاً، وأتى بعده مئات الآلاف فى شتى ميادين العلم المختلفة وتحت أيديهم إمكانيات أكثر بكثير منه ولم يخرجوا لنا بإنسان هيكل المزعوم أو غيره.

ولقد استمر أوبارين رئيس المعهد الكيمائى فى الاتحاد السوفيتى عشرين عاماً كاملة ومعه كل الأجهزة ليبرهن على إمكانية نشوء الحياة كيمائياً وأعلن فى النهاية عجزه وقال: إن العلم لا شأن له إلا بالمادة.

---

(١) الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ٤٨.

وقال بوخنر وهو من أكثر الماديين غلواً ومن القائلين بالتولد الذاتي: (إن البت في أمر التولد الذاتي للكرية الأولى التي نشأ عنها الأصل الأول أمر غير متيسر؛ لأن الأحوال المناسبة لتولد الكريات الأولى تولداً ذاتياً غير معروفة والكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة)[1].

والذي يهدم القول بالتولد الذاتي ماجاء به باستير من اكتشافات فقد أثبت أن الدود المتولد أو البكتريا، أو أي حشرة أخرى لم تنشأ ذاتياً من المادة إنما عن أصول لها صغيرة لم ترها العين وكانت هذه الأصول مخلوقة في الشئ الذي ظهرت فيه أو هي مخلوقة في الفضاء وتتحرك مع الهواء. ولقد أكد كلامه هذا عملياً حيث أحضر أنبوبتين ووضع في كل منهما كمية واحدة من محلول السكر وعقمهما جيداً ووضعهما في ظروف واحدة إلا أنه ترك إحدى الأنبوبتين بلا غطاء وبعد فترة عاد إليهما فوجد أن السائل بالأنبوبة المكشوفة قد تعفن وظهرت عليه البكتريا بينما بقيت الأنبوبة الأخرى على حالها.

وأجرى التجربة مراراً وخرج بقانون يهدم نظرية التولد الذاتي ويبين أن البكتريا نشأت عن الحيوانات الدقيقة المنتشرة في الهواء، وهذا القانون العلمي يسير عليه العالم المتحضر في إعداد الأغذية المحفوظة، وفي بسترة الألبان.

وفي استطاعة كل واحد منا أن يجري التجربة بنفسه على أي طعام يريد.

أفبعد هذا يمكن أن نقول: إن المصادفة أو الطبيعة أو سقوط الجراثيم من كواكب أخرى أو التولد الذاتي، تنبني هذه الافتراضات على أساس علمي أم أن الأحق هو العودة لحقيقة الحقائق؟ لخالق الكون: الله عز وجل.

---

(١) قصة الإيمان ص ١٨٩.

(٦) بعض الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى

(١) دليل الحدوث:

ينقسم الموجود إلى قسمين: حادث وقديم.

فالحادث: مالوجوده أول، أو مالوجوده ابتداء، أو هو المسبوق بالعدم.

أما القديم: فهو ماليس لوجوده أول، أو ما ليس لوجوده ابتداء، أو مالم يسبق بعدم.

والعالم: هو كل ماسوى الله تعالى، وقد عرفنا أنه يتركب من أصول وصفات، والأصول تتركب من عناصر، وتتركب العناصر من جزئيات صغيرة.

أما الصفات: فهى عبارة عن الشكل والحجم والوزن واللون والحركة والسكون والاجتماع والافتراق... إلخ.

والتركيب: يدل بداهة على الاحتياج إذ أن كل جزء يحتاج إلى الآخر كما أنه يحتاج إلى الحركة والسكون والاجتماع والافتراق وبقية الصفات .

وما كان أمره كذلك فهو لازم للتغير المستمر، والتغير من أمارات الحدوث لأن معنى أن الشئ تحرك بعد سكون أن الحركة قد انعدمت ليحل السكون، ومعنى أن الشئ قد أجتمع بعد تفرق أن التفرق قد أنعدم ليحل الاجتماع، وما كان أمره كذلك فهو حادث لآن الأزلى لا يتغير .

وقد أراد سيدنا إبراهيم عليه السلام أن ينبه قومه إلى أن المتغير حادث، والحادث لا يكون إلهاً. يقول القرآن الكريم: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا

أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

والإنسان لم يكن شيئاً ثم كان آدم من تراب ومن آدم كانت حواء ومنهما معاً كانت النطفة التى تحولت إلى علقة فمضغة مخلقة وغير مخلقة يقول تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2] .

وقد لازم التحول المستمر من بده وجود النطفة إلى خروج الإنسان على الأرض وجود خصائص، وانعدام خصائص أخرى، ويلازم التغير المستمر الإنسان منذ وجوده على سطح الأرض إلى أن يحتضنه باطنها، والتغير يؤكد الحدوث.

وهنا نأتى إلى سؤالين: اذا كان الانسان حادثا، وإذا كان العالم حادثاً فهل خلق الإنسان نفسه؟ وهل خلق العالم العالم؟ أعتقد أن من يقول: بذلك يقع فى تناقض رهيب لأنه لم يكن ثم أصبح إنساناً يسخر كل شئ حوله، وسبب تناقضه أنه جعل نفسه علة ومعلولا فى نفس الوقت. ومن يقول:إن العالم خلق العالم فهو أشد ضحاله فى التفكير من سابقة . يقول أبو المعين النسفى عن العالم: «ولا يتوهم أنه أحدث نفسه بنفسه؛لأنه إن أحدث نفسه بعد ما صار موجوداً فهو محال من وجهين: أحدهما:وجوده قبل إحداث نفسه لا بإحداث محدث وتخصيص مخصص إياه بالحدوث وهو باطل. والآخر:إيجاده نفسه بعد ماصار موجوداً وإيجاد الموجود مستحيل.

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٧٦- ٧٩.

(٢) سورة الحج الآية: ٥.

ولايتوهم أيضاً أنه أحدث نفسه فى حالة العدم لما أن وجود الفعل من المعدوم محال.

يحققه أن الأدمى مع أنه ليس بعرض بل جوهر، وليس بجماد بل هو نام، وليس بنبات بل هو حيوان، وليس بعجم بل هو ناطق، وهذه الحالة هى النهاية فى القوة والتدبير للحيوانات الأرضية. : ثم هو فى حال كمال عقله وعلمه بالأمور، وتمام قوته وبصارته بوجوه الحيل والتدابير يعجز عن تغيير صفة له ذميمة إلى مايستحليه ويهواه فلأن لايتأتى، ولايتصور إيجاد أصل العالم مما هو معدوم أولى»[١].

ويقول الدكتور يوسف كرم: «والحادث أى الموجود بعد لا وجود لايوجد ذاته، وإلا كان سابقاً على ذاته، وهذا بين البطلان فى كل مالا يوجد بنفسه، والموجود والمتناهى المحدود محصور فى ماهية معينة، وفى مكان وزمان معينين، وينقصه ماخلا ذلك من ماهيات وأمكنة وأزمنة، فلايكون مبدأ أولاً مفسراً بنفسه»[٢].

وإذا كان العالم حادثاً، وهو كل ماسوى الله تعالى فلنتعرف معاً على بعض هذا العالم.

وللإنسان أن ينظر بالعين المجردة إلى مايحيط به من أشياء على الأرض، فإن أراد الاستزادة فليرفع نظره إلى الفضاء وليفكر وهو ينظر فى قوله تعالى:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾[٣]. وقوله تعالى:﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا

---

(١) تبصرة الأدلة ص ٧٥ تحقيق د/ محمد الأنور.

(٢) الطبيعة ومابعده الطبيعة ص ١٤٢.

(٣) سورة الفرقان الآية: ٦١.

فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾(١).
وقوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾(٢).

ونطالبه وهو ينظر وهو يتأمل وهو يفكر، أن يضع ماوصل إليه العلم الحديث أمام عينيه.

١) فلقد أثبت العلم أن الضوء يقطع فى الثانية ١٨٦ ألف ميل وفى الدقيقة الواحدة ١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل، وفى السنة ٦ آلاف مليار ميل تقريباً، وهذه المسافة هى التى اصطلح العلم على تسميتها بالسنة الضوئية.

٢) ليعلم أن نور القمر يصل إلينا فى أقل من ثانيتين ضوئيتين؛ لأن بعده عنا ٢٤٠ ألف ميل تقريباً، أما نور الشمس فيصل إلينا فى حوالى ثمانى دقائق ضوئية، لأن بعدها عن الأرض نحو ٩٣ مليون ميل تقريباً.

٣) وبناء على هذه الأرقام التى يقول بها العلماء فهم قد عرفوا أيضاً أن أقرب نجم للأرض يبعد عنها أربع سنوات ضوئية أى أن المسافة بينه وبين الأرض حوالى ٢٣ مليون مليون ميل تقريباً.

٤) أثبت العلم أن وراء مجرتنا هذه سدماً، منها سديم المرأة المسلسلة الذى يبعد عن مجرتنا حوالى مليون سنة ضوئية. ولك أن تتصور كم تبلغ سعة السماء ولتسأل نفسك من خلقها؟

٥) أما عن عدد النجوم فقد قدر العلماء عددها فى مجرتنا وحدها بحوالى ثلاثين مليار نجم. فإذا تركت مجرتنا وجدت العلم يثبت وجود حوالى ٥٠٠ ألف سديم ولكل سديم وصفه الخاص ونجومه الخاصة به.

٦) وإذا كان حجم الأرض حوالى مليون مليون كيلو متر مربع فإن حجم الشمس أكبر من أرضنا بمليون و٣٠٠ألف مرة، ومع هذا فإن حجم

---

(١) سورة النازعات الآيات: ٢٨: ٣٠.
(٢) سورة الواقعة الآيات: ٧٥ – ٧٦.

الشمس إذا قورن بحجم سديم المرأة المسلسلة أصبحت ألنسبة هى ذرة صغيرة إلى صحراء مترامية الأطراف.

فالعلماء يضربون مثلا لبيان النسبة بين حجم الشمس، وحجم سديم المرأة المسلسلة فيقولون:«هذه الهباءة من الغبار التى تراها فى شعاع الشمس النازل من الكوة فى أرض غرفتك كم حجمها ووزنها؟ تلك الهباءة بالقياس إلى حجم الأرض، هكذا حجم شمسناووزنها بالقياس إلى سديم المرأة المسلسلة» (١).

العالم إذن ليس أنا وأنت والأرض التى نعيش فوق سطحها فحسب، وإنما العلم يكشف لنا عن أبعاده وأحجامه فى صورة يعجز العقل عن تصورها.

ولقد سبق أن عرفت بناء على القانون الثانى للحرارة الديناميكية، أن هذا العالم ليس أزلياً؛ بل أن له بداية ونهاية، وما كان كذلك فهو حادث.

وقد تساءلنا معاً:من أحدثه؟ لأننا أمام قانون العلة والمعلول. وهو قانون بدهى نجد العالم معلولا فما هى علته؟

لقد قال بعض الماديين: إنه نشأ مصادفة، وقال البعض الآخر:الطبيعة هى التى أوجدته، وناقشنا معاً القول بالمصادفة، والطبيعة، وثبت بطلان هذين القولين.

وإذا كان العلم قد أثبت حدوث العالم، وإذا كان القول بالمصادفة، أو الطبيعة قولا باطلا.

وإذا كنانرى البناء فنجزم أن بانياً وراءه لارتباط العلة بالمعلول، والعالم معلول والمعلول بلا علة لايوجد، لكن العالم موجود بدليل أنى أحدثك وأنت تستمع لى وتناقشنى ونوجد معاً الآن داخل حجرة الدراسة بجامعة الأزهر.

---

(١) قصة الإيمان ص ٣١٠.

فمن أوجدنا إذاً؟ من أحدث ذاتي وذاتك؟ من أحدث كل ما حولنا من مرئيات؟ إنه الله ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾(١). إنه الله ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾(٢). إنه الخالق البارئ المصور القائل:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾(٣).

ونخلص من هذا إلى أن العالم حادث لأنه مركب ومتغير ومتناه، وقد أثبت العلم فى ضوء القانون الثانى للحرارة الديناميكية ذلك، وكل حادث فله محدث، بناء على قانون العلية، وهو لم يحدث نفسه لأنه مسبوق بالعدم؛ ولأن القول بذلك يوقع فى التناقض، حيث يكون الشئ معدوماً ويوجد نفسه، ولم يحدثه أى جزء فيه؛ لأن القول بإحداث الجزء للكل قول باطل ولأن الجزء حادث أيضاً. والقول يجعل الحادث هو علة الوجود تنفيه العقول لأنه فى نفسه محتاج إلى علة لوجوده.

أما القول بالمصادفة أو الطبيعة فأساسه الهرب من الحقيقة، فلم يبق إلا كون المحدث المخترع والموجد لكل الأشياء من العدم هو الله سبحانه وتعالى القائل:﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾(٤). والقائل :﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٢.

(٢) سورة الملك الآية : ٢:٣

(٣) سورة الحج الآية : ٧٣.

(٤) سورة فاطر الآية : ٣.

(٥) سورة الطور الآية : ٣٥ - ٣٦.

(ب) دليل النظام والتدبير والعناية :

لو افترضنا أنك تسير فى ميدان من الميادين العامة، ورايت اضطراباً فى حركة المرور، فلأول وهلة سوف تحكم بأن شرطة المرور لم تقم بعملها على الوجه الأكمل .

أما لو رأيت نظاماً يحكم المارة من المشاة، ونظاماً آخر يحكم سير الحافلات المختلفة بحيث لا يجرؤ أحد على خرق هذا النظام، فماذا يكون حكمك؟ وهل تتصور أن ماتراه يحدث بتلقائية كاملة أم أن وراء الحدث أشياء أخرى من إشارات ضوئية دقيقة، وشرطة مرور ينفذون التعاليم على الوجة الأكمل؟ وقانون رداع لكل مخالف، وضمير حى يستجيب لكل التوجيهات؟

لنترك هذا

لو تركت غرفتك وقد انقلب كل شئ فيها رأسا على عقب واتجهت إلى الجامعة، ثم عدت بعد انتهاء اليوم الدراسى، وفتحت الغرفة فوجدت كل شئ قد رتب ونسق ووضع فى مكانه المناسب، وراعك النظام فى الغرفة فسألت عن الذى قام بفتحها وتنظيمها فقيل لك: لم يدخلها أحد منذ تركتها، فإلى إين يتجه عقلك؟ هل تحكم على من أبلغك بهذا أنه صادق؟

لنترك هذا المثال أيضاً.

لو نظرت فى ساعتك فوجدت مؤشراتها تتحرك فى دقة كاملة مستمرة، ثم قمت بفتحها فرأيت(تروساً) كثيرة تقوم بعملها لتعطيك الوقت بدقة.

فهل يمكن أن تفترض أن وراء ابتكارالساعة وغيرها من ابداعات العصر الحديث جاهلاً لا يعرف شيئا؟

يقول كلود.م هاثاواى:«لقد أشتغلت منذ سنوات عديدة بتصميم مخ ألكترونى يستطيع أن يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة.. ولقد حققنا

هدفنا باستخدام مئات من الأنابيب المفرغة، والأدوات الكهربائية والميكانيكية والدوائر المعقدة، ووضعها داخل صندوق بلغ حجمه ثلاثة أضعاف حجم أكبر بيانو.... وبعد اشتغالى باختراع هذا الجهاز، وبعد أن واجهت كثيراً من المشكلات ووصلت إلى حلها، صار من المستحيلات بالنسبة إلى أن يتصور عقلى أن مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة غير استخدام العقل والذكاء والتصميم.

وليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم، وبرغم استقلال بعضها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة، وكل منها أكثر تعقيداً فى كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الألكترونى الذى صنعته.

فإذا كان هذا الجهاز محتاجاً إلى تصميم، ،أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى الكيمائى البيولوجى الذى هو جسمى، والذى ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون الرهيب فى اتساعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه؟»[1].

ويقل جون أدواف بوهلر أستاذ الكيمياء بكلية أندرسون:«أن الإنسان يشاهد التنظيم والإبداع حينما ولى وجهة فى نواحى هذا الكون، ويبدو أن هذا الكون يسير نحو هدف معين، كما يدل على ذلك النظام الذى نشاهده فى الذرات فهناك نظام معين تتبعه الذرات جميعاً من الأيدروجين إلى اليورانيوم، وكلما ازداد علمنا بالقوانين التى تتحكم فى توزيع البروتونات والألكترونات لإنتاج العناصر المختلفة، أزداد إيماننا بما يسود عالم المادة من توافق ونظام .. فحيثما اتجهنا نجد الإبداع والنظام والتوافق، حتى لم يبق هنالك من شك عندى فى أن إلها قادراً قد أبدع هذا الكون وبناءه وحدد وجهته وغايته» [2].

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٨٩.

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٠١.

ولقد عرفت في دليل الحدوث بعض مكونات العالم، وعلمت أن العلم قد حدد حتى الآن السدم في الكون ب ٥٠٠ ألف سديم، ولكل سديم أنجمه التي يتعدى عددها ما يمكن أن لا يتصوره عقل الإنسان .

وهذه النجوم والكواكب أثبت العلم أنها تدور وتجري في مواقع ومدارات لا تتبدل ولاتتغير، ولا يصدم أحدها الآخر، فمن جعلها تتحرك بهذا النظام والدقة؟ يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾(١).

ويقول سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(٢).

ولماذا نصعد إلى الكواكب ونترك أرضنا التي نعيش فوق سطحها ونأكل من خيراتها؟.

لنحاول معاً التعرف عليها ومعنا العلم، ولنبحث عن المعتنى بها، والمدبرلها، وخالق القوانين التي تحكمها، وتنظم علاقتها بجيرانها من الكواكب الأخرى:

١) يقول العلم: إن حجم الكرة الأرضية لو صغر أو كبرعما هو عليه وأن سرعتها لو قلت أو زادت عما هي عليه، لأدى هذا التغيير إلى اقترابها من الشمس أو ابتعادها عنها، ولترتب على ذلك انعدام كل أثر للحياة على الأرض نتيجة للبرودة الشديدة أو الحرارة الشديدة.

٢) تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة كل أربع وعشرين ساعة بطريقة ثابتة منظمة، فلوقل هذا الدوران لتأثرت الحياة على الأرض، وذلك لأن الليل والنهار يصبحان أطول بكثير مما هما عليه، ويؤدي هذا إلى أن تحرق شمس الصيف الحارة كل النباتات في النهار، ويتجمد كل شئ على الأرض في الليل.

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٧٥ - ٧٦.

(٢) سورة يس: الآيات ٣٨ - ٤٠.

٣) لو أن الشمس أعطت للأرض نصف إشعاعها الحالى لتجمد كل شئ. ولو زادت هذا الإشعاع لاحترق كل شئ..

٤) تميل الكرة الأرضية بزاوية قدرها ٢٣ درجة، فلو أنها لم تكن كذلك لكان القطبان فى حالة ظلام دائم، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالا وجنوباً مكدساً كميات هائلة من الجليد، يؤدى ثقلها الهائل إلى الضغط على القطبين وفرطحة خط الاستواء، ويؤدى إلى انخفاض المحيطات مما يغرق مساحات شاسعة من اليابسة، ويقلل من هطول الأمطار فى كل أنحاء العالم، ويترتب على هذا اقتراب الحياة على الأرض من التدمير.

٥) وللأرض جاذبيتها المحددة، فلو قلت هذه الجاذبية لطار كل ما عليها وخاصة الإنسان، ولو زادت هذه الجاذبية لا لتصق كل شئ متحرك بها.

٦) ويحيط بالارض علاف غازى يشتمل على الغازات اللازمة للحياة، وتمنع كثافة هذا الغلاف ملايين الشهب القاتلة لكل ما على الأرض، كما يحيط بها غلاف جوى يحفظ درجة حرارتها لتكون مناسبة للحياة.

٧) وعن القمر وصلته بالأرض، فهو مصدر سرور ومحبة، ومرشد لمعرفة أوائل الشهور الهجرية. ومنير للسائر فى الليل، هذا القمر العزيز لو كانت المسافة التى تبعده عن الأرض أقل مما هى عليه لازداد المد وترتب على ذلك إغراق المحيطات والبحار لليابسة، ولو اقترب أكثر لجذبته الأرض وضاع كل شئ أما لو كانت المسافة أكثر مما هى عليه لا نعدم المد والجزر، وربما جذبته بعض الكواكب الآخرى مما يؤدى إلى تدمير الكون.

ويمكن أن نقول:«إن العناية والتدبير والإحكام والنظام كلها جعلت الأرض صالحة لوجود الحياة عليها « فقرب الأرض من الشمس معتدل، والحرارة التى تصل إليها معتدلة، وجاذبيتها معتدلة، ودورتها اليومية

معتدلة، وكافية لإحداث نهار وليل معتدلين صالحين للسعى والراحة ودورتها السنوية معقولة وكافية لإحداث فصول معتدله صالحة لإرواء الزروع وإنضاجها، وهى تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة»[١].

٨) وعن الأرض والهواء فإننا نجد تزاحماً بين عناصر متعددة، ومع هذا التزاحم علم المدبر أن الهواء أساس الحياة الحيوانية والنباتية فدفع النتروجين ليتحد بنسبة ٧٨٪مع الأكسوجين الذى يمثل نسبة ٢١٪ وهذه النسبة لو قورنت بكتلة الأرض فإنها لا تزيد على جزء من مليون جزء من كتلة الأرض، فلماذا لم ترتفع النسبة على ذلك؟ يقول العلماء: «إنها لو ارتفعت لما كان هناك احتمال لوجود الإنسان على الأرض»[٢].

وتمر الأزمنة المختلفة ويحتفظ الهواء بعنصرية الأساسيين بنفس النسبة فلو اختلت هذه النسبة وكان الأكسوچين أكثر من ٢١- مثلا فإن كل شئ قابل للاشتعال يحترق على الفور مما يجعل الأرض فى حالة دمار كامل، أما لو قلت نسبة الأكسوچين عن ذلك فإن الحياة تقترب من النهاية.

ومن العجيب أن نرى التبادل مستمراً بين الحيوانات والنباتات، فالحيوان يأخذ الأكسوجين ويلفظ ثانى أكسيد الكربون بينما تقوم النباتات بعمل العكس وكأنهما معاً فى معاهدة أمن للحفاظ على الحياة على الأرض.

فمن أوجد هذا النظام، أو معاهدة التبادل والأمن والحفاظ على الحياة على الأرض ؟من الذى يراعى الدقة فى هذا التمثيل المتبادل؟ يقول اكرسى موريسون:« وكل كائن حيوانى حى يمتص الأكسوجين ويلفظ ثانى أكسيد الكربون. ثم إن الأكسوجين ضرورى للحياة لتأثيره فى عناصر أخرى فى الدم... وبدونه تنوقف عمليات الحياة، ومن جهة أخرى تعتمد حياة كل نبات على ثانى أكسيد الكربون»[٣].

---

(١) قصة الايمان ص ٣١٨ نديم الجسر.

(٢) العلم يدعو للإيمان ص ٦٤ اكريسى موريسون.

(٣) العلم يدعو للإيمان ص ٧١.

ولماذا نبحث عن التنظيم والإحكام والاتقان والروعة فى الكون ونبتعد عن الإنسان سيد الكون؟.

إنه فى قمة التدبير والعناية والنظام، وماعليك ياصديقى إلا أن تتأمل فى ذاتك لتقف على الروعة فى كل جزء من أجزائك، ولتقف على منافع كل جزء من هذه الأجزاء، وأريدك أن تناقش المتخصصين فى أجزاء الجسم المختلفة لتناقش طبيب العيون فى كيفية تركيب العين حتى يتمكن الإنسان من الرؤية وتسلم العين من الأذى، وتناقش طبيب الأنف والأذن والحنجرة كيف تشم وتسمع وتتكلم وطبيب الأسنان والفم لتقف على النظام وأهميته وطبيب الأمراض الجلدية للتعرف على ملايين الخلايا التى تعمل وتتحرك وتتغير ليل نهار دون أن تدرى وأنت صاحبها.. وطبيب كذاوكذا... فالإنسان نفسه دائرة معارف ضخمة فيه أصول الوجود وفروعه، وفيه عظمة الوجود وقوته وتدبيره.

ثم هذا المصنع الكبير (المعدة) الذى تحمله فى داخلك، ويقوم بأعظم مما تقوم به كل مصانع العالم مع كل التكنولوجيا التى وصل إليها عصرنا الحديث.

إنك تنام وتقوم وتمشى وتجرى وتضحك وتبكى وتنظر وتفكر وتتأمل وتدبر وتصدق وتكذب وتعتدى وتركب البحار وتطير فى الهواء، وهو مستمر فى عمله لا يتوانى لحظة واحدة، فكل عامل فيه دقيق نشيط لايحتاج لرقيب، أما عن القيادة لو افترضنا أنها القلب كما يقولون، فإنها لا تراقب لانها تطبق الديمقراطية فى أسمى معانيها وتثق فى عمالها، ولهذا تتحمل العبء الأكبر فى العمل دون كلل أو مباهاة أو حتى زيادة الأجر.

إننا نلقى بآلاف الأنواع من الأطعمة والمشروبات المختلفة اللون والطعم، والرائحة فى داخل المصنع الكبير فماذا يحدث:«من بين هذا الخليط تختار المعدة الأشياء التى هى ذات الفائدة، وذلك بتحطيم كل صنف من

الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات، وتعيد تكوين الباقى إلى بروتينات جديدة تصبح غذاء لمختلف الخلايا، وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية، وتعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية، وبإمكان إنتاج الهرمونات، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة فى مقادير منتظمة ومستعده لمواجهة كل ضرورة وهى تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى للقاء كل حالة طارئة .وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا التى تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشرى كله على وجه الأرض، ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً وألا يورد سوى تلك المواد التى تحتاج إليها تلك الخلية... ها هنا إذا معمل كيماوى ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أى معمل ابتكره ذكاء الإنسان، وهاهنا نظام للتوريد أعظم من أى نظام للنقل والتوزيع عرفة العالم، ويتم كل شئ فيه بمنتهى النظام... أليس ذلك كله من صنع الخـــالق؟»[١]. يقول الله سبحانه وتعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[٢]. ويقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[٣].

والحديث عن الانسان وعن النظام والاتفاق والتدبير، وعن الروعة والجمال والجلال فيه لا ينتهى، وقد علمنا أنه لم يخلق نفسه .

فمن وضع فيه كل هذا النظام؟من الذى اعتنى بأمره فجعله سيداً؟من الذى جعل الموجودات مثل: الليل والنهار، والشمس والقمر، والفصول الأربعة، والبحار والأنهار والمحيطات، والنباتات بكل تنوعاتها والحيوانات الأخرى موافقة لوجود الإنسان علــى الأرض؟ من الذى

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٥٥.

(٢) سورة الأنفطار الآيات : ٦:٨.

(٣) سورة التين الآية: ٤.

اعتنى بكل أعضاء جسمه، وجعلها كلها مطيعة؟ هل هو الإنسان نفسه؟ هل هى الطبيعة؟ هل هى الصدفة؟ هل المادة الصماء هى أساس النظام والتدبير والعناية؟أم أن المدبر والمحكم والمتقن والمعتنى بالكون هو الله الرحمن الرحيم خالق الحياة، وواهب النعم والمتصرف بإرادة كاملة لكل ما فى الكون؟ يقول ابن رشد: لذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات[1].

(جـ) دليل الكامل (و اللامتناهي:

يرى رينية ديكارت أبو الفلسفة الحديثة أن المعلول لا يمكن أن يفوق علته، وأن الكامل لا يمكن أن ينشأ عن الناقص.

وهو يرى ى نفسه فكرة عن موجود كامل لامتناهى، فلا يمكن أن يكون العدم هو أساس هذه الفكرة؛ لأن العدم لا ينتج شيئاً، ولا يمكن أن يكون هو أساس هذه الفكرة لأنه ناقص إذ أنه يشك ويرتاب ويجهل، والناقص لا ينتج عنه الكامل، ولا يمكن أن يكون أساس هذه الفكرة الموجودات الأخرى؛ لأنه لا يوجد مبرر لأن تكون أكمل منه، ولا يمكن أن يكون أساس هذه الفكرة هيئة مؤلفة من مزيج عدة كمالات خلقتها المخيلات الإنسانية إذ لو كانت كذلك لما كان لها هذه الوحدة، وتلك البساطة وذلك النفور من كل تأليف لاسيما وأن فى التأليف افتقاراً إلى الأبعاد، والافتقار نقص.

إذن فليس هناك علة أوجدتها فى نفسه إلا الإ له نفسه الموجود الكامل.

---

(١) فصل المقال ص ٦٦.

(د) دليل واجب الوجود:

مصطلح واجب الوجود يشير إلى وجودين: وجود أصلى ثابت لا يتغير، سبب لكل موجود سواه وهو واجب الوجود بذاته، الموجود الذى وجوب وجوده من ذاته ولذاته - أى لم يكتسبه من أى شىء آخر، هو الضرورى الوجود الذى يترتب على عدم وجوده استحالة وجود أى شىء هو الأزلى الأبدى.

يقول ابن سينا: «أما الذى هو واجب الوجود بذاته فهو الذى لذاته لا لشىء آخر، أى شىء كان، ويلزم محال من فرض عدمه»[(١)].

ووجود فرعى مسبب عن السبب الأول، وهو واجب الوجود بغيره، وقد اعتمد فى وجوده على علة أوجبت وجوده حينما تعلقت به إيجادا حيث رجحت وجوده على عدمه، ولولا علة الترجيح لبقى فى دائرة الإمكان. هو الذى «إذا اعتبر ذاته لم يجب وجوده... وإذا وجب صار واجب الوجود بغيره، فيلزم من هذا أنه كان فيما لم يزل ممكن الوجود بذاته، واجب الوجود بغيره»[(٢)].

هو الذى لا يلزم من وجوده أو عدمه أى محال. يوضحه ابن سينا بالمثال: «إن الأربعة واجبة الوجود لا بذاتها ولكن عند فرض اثنين واثنين»[(٣)].

وواجب الوجود بذاته عند الفارابى وابن سينا وغيرهما هو الله سبحانه مبدأ جميع الوجودات بأعيانها وأنواعها وصفاتها[(٤)].

---

(١) النجاة ٢٦١.

(٢) عيون المسائل ضمن كتاب المجموع ص ٦٦.

(٣) النجاة ٢٦١.

(٤) المعجم الفلسفى جـ٢ ص ٥٤٢.

وقد استدل الفارابى وابن سينا على وجود واجب الوجود بذاته لا من خلال الحدوث أو العناية أو الاختراع وإنما «من نفس الوجود، أى من حيث هو بغض النظر عن المشاهد الواقع، ويدعى كل منهما أن تصور الذهن للوجود وحده يؤدى به حتمًا إلى الاعتراف بواجب الوجود بذاته»(١).

ونذكر على سبيل الإيجاز دليلى الفارابى وابن سينا.

يقول الفارابى: «لك أن تلحظ عالم الخلق فترى فيه أمارات الصنعة، ولك أن تعرض عنه وتلحظ عالم الوجود المحض، وتعلم أنه لابد من موجود بذاته... ».

فإن اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد، وإن اعتبرت عالم الوجود فأنت نازل، تعرف بالنزول إن ليس هذا ذاك»(٢).

ويقول ابن سينا: «لا شك أن هنا وجوداً، وكل وجود فإما واجب وإما ممكن، فإن كان واجبا فقد صح وجود الواجب وهو المطلوب فإن كان ممكنًا فإنا نوضح أن الممكن ينتهى وجوده إلى واجب الوجود»(٣).

لم يشك ابن سينا فى وجود موجود، هذا الوجود إذا نظرنا إليه فى العقل بصرف النظر عن تحققه فى الخارج أو فى أفراد معينة. إن كان وجوده عين ذاته أى غير مستند إلى علة سابقة فهو واجب الوجود بذاته.

وإن كان وجوده من غير ذاته، كان ممكن الوجود، وسبب وجوده علة سابقة؛ لأنه بدون العلة لا يخرج للوجود وهذه العلة إن كانت واجبة الوجود، ثبت المطلوب.

وإلا نقلنا الأمر إلى علة أخرى وهكذا....

---

(١) د/ محمد البهى ـ الجانب الإلهى ٥١٥.

(٢) فصوص الحكم ص ١٣٩.

(٣) النجاة ص ٢٧١.

ولابد من أن ينتهى الأمر إلى واجب الوجود بذاته، لأن عدم الانتهاء يؤدى إلى محالين وهما الدور والتسلسل.

وابن سينا إذ يثبت استحالة الدور والتسلسل فإنه يؤكد ضرورة الانتهاء إلى واجب الوجود بذاته الله سبحانه وتعالى.

وواجب الوجود بذاته برئ من كل نقص، وجوده أفضل وأقدم وأكمل الوجود، خير محض، وكمال محض وحق محض، لا مثل ولا ند ولا ضد له، لا ينقسم لا بالكم ولا الكيف، مرتبته فى الوجود هى وجوب الوجود لذاته وهى مرتبة لا يشاركه فيها غيره(١).

(هـ) دليلا العناية والاختراع:

وهما قريبان من دليلى الحدوث والنظام والتدبير، إلا أنهما أكثر وضوحًا، وأقرب للقلب والعقل، لأنهما مستمدان من القرآن الكريم؛ فهما دليلا الشرع على وجود الله سبحانه وتعالى ولهذا اتسما بالوضوح والبساطة والموضوعية واليقين وقلة المقدمات الفلسفية.

وانذكرهما بلفظ مستنبطهما فيلسوف قرطبة محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ .

يذكر رحمة الله عليه بعض أدلة المتكلمين والفلاسفة على وجود الله سبحانه وتعالى ويبين أنها كلها بعيدة عن الطرق الشرعية التى دعا الشرع منها جميع الناس على اختلاف فطرهم. إلى الإقرار بوجود البارى سبحانه.

ويسأل ما هى الطريقة الشرعية التى نبه الكتاب العزيز عليها واعتمدتها الصحابة رضوان الله عليهم؟

---

(١) راجع آراء أهل المدينة الفاضلة لابن سينا.

ويجب:

الطريق التى نبه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكل من بابها، إذا استقرئ الكتاب العزيز، وجدت تنحسر فى جنسين:

أحدهما: طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله ولنسم هذه دليل العناية.

والطريقة الثانية: ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة فى الجماد والإدراكات الحسية والعقل، ولنسم هذه دليل الاختراع.

فأما الطريقة الأولى فتبنى على أصلين: أحدهما أن جميع الموجودات التى ههنا موافقة لوجود الإنسان؛ والأصل الثانى أن هذه الموافقة هى ضرورة، من قبل فاعل قاصد لذلك مريد؛ إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق. فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له والمكان الذى هو فيه أيضًا وهو الأرض. وكذلك تظهر أيضًا موافقة كثير من الحيوان له والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء وكذلك أيضًا تظهر العناية فى أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان، أعنى كونها موافقة لحياته ووجوده. وبالجملة فمعرفة ذلك، أعنى منافع الموجودات، داخلة فى هذا الجنس. ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع جميع الموجودات.

وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله، و وجود النبات ووجود السموات، وهذه الطريقة تنبنى على أصلين موجودين بالقوة فى جميع فطر الناس.

أحدهما: أن هذه الموجودات مخترعة، وهذا معروف بنفسه فى الحيوان والنبات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[1] فإنا نرى أجسامًا جمادية ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعًا أن ههنا موجد للحياة ومنعم بها، وهو الله تبارك وتعالى. وأما السموات فنعلم، من قبل حركاتها التى لا تفتر، أنها مأمورة بالعناية بما ههنا، ومسخرة لنا، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة.

وأما الأصل الثانى فهو أن كل مخترع فله مخترَع.

فيصح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلاً مخترعًا له، وفى هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات، ولذلك كان واجبًا على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقى فى جميع الموجودات؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشىء لم يعرف حقيقة الاختراع. وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ...﴾[2] وكذلك أيضًا من تتبع معنى الحكمة فى موجود موجود، أعنى معرفة السبب الذى من أجله خلق. والغاية المقصودة به، كان وقوفه على دليل العناية أتم.

فهذان الدليلان هما دليلا الشرع. وأما أن الآيات المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه فى الكتاب العزيز هى منحصرة فى هذين الجنسين من الأدلة فذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى. وذلك أن الآيات التى فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى إذا تصفحت وجبت على ثلاثة أنواع:

إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية، وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع، وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعًا.

---

(١) سورة الحج الآية: ٧٣.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٨٥.

فأما الآيات التى تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾(١). ومثل قوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾(٢). ومثل قوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾(٣) الآيات. ومثل هذا كثير فى القرآن.

وأما الآيات التى تتضمن دلالة الاختراع فقط فمثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾(٤). ومثل قوله: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾(٥) الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾(٦) ومن هذا قوله تعالى، حكاية عن قول إبراهيم: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾(٧) إلى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى.

وأما الآيات التى تجمع الدلالتين فهى كثيرة أيضًا؛ بل هى الأكثر، مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن قوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ تنبيه على دلالة الاختراع، وقوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾(٨). تنبيه على دلالة العناية. ومثل قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ

---

(١) سورة النبأ الآيات: ٦ ـ ١٦.

(٢) سورة الفرقان الآية: ٦١.

(٣) راجع سورة عبس الآيات: ٢٤ ـ ٣٢.

(٤) سورة الطارق الآيتان: ٥ ـ ٦.

(٥) سورة الغاشية الآية: ١٧.

(٦) سورة الحج الآية: ٧٣.

(٧) سورة الأنعام الآية: ٧٨.

(٨) سورة البقرة الآيتان: ٢١ ـ ٢٢.

الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(٢) وأكثر الآيات الواردة فى هذا المعنى يوجد فيها النوعان من الدلالة.

فهذه الطريق هى الصراط المستقيم التى دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبههم على ذلك بما جعل فى فطرهم من إدارك هذا المعنى.

ويختم ابن رشد الحديث فى هذا الموضوع بقوله: فقد بان من هذه الأدلة أن الدلالة على وجود الصانع منحصرة فى هذين الجنسين دلالة العناية ودلالة الاختراع وتبين أن هاتين الطريقتين هما بأعيانهما طريقة الخواص، وأعنى بالخواص العلماء وطريقة الجمهور وإنما الاختلاف بين المعرفتين فى التفصيل أعنى أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحواس. وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان(٣).

---

(١) سورة يس الآية: ٣٣.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٩١.

(٣) مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد ص١٥٠ وما بعدها ـ الأنجلو المصرية ١٩٦٤م.

(٣) صفات الله سبحانه وتعالى

كلمة عامة:

بادئ ذى بدء نقول: إن البارى عز وجل يتصف بكل كمال يليق بذاته المقدسة وكمالاته تعالى لا تتناهى ويتنزه عن كل نقص وهو سبحانه ليس بجسم وليس بعرض ولايحده زمان أو مكان لأنه خالق الجسم والعرض والزمان والمكان.

وإذا تصفح العقل البشرى الكون علم أنه محدث وإذا تصفح العقل البشرى الكون رأى ما فيه من دقة وإبداع وإتفاق وتناسق ورأى السماء ومافيها من اتساع ونجوم وكواكب لا تحصى وعلم الأبعاد الرهيبة بين الكواكب بعضها وبعض والقوانين الدقيقة التى يخضع لها كل ما يتحرك فى الفضاء الخارجى.

ولو نظر الإنسان إلى نفسه وما فيها من تكوينات غريبة معقدة ونظر إلى الأرض وما فيها من تنوعات حيوانية ونباتية ومعادن فى باطنها وعلى ظهرها. ونظر إلى المحيطات والبحار والأنهار ووقف على جمالها وإبداعها وما تقدمه من فوائد لا تحصى للإنسان.

لو تدبر الإنسان ونظر بعقله وتأمل لعرف أن وراء هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه إلها متصفاً بكل العظمة والإجلال والتقديس له الإرادة المطلقة ما أراده كان ومالم يرده لم يكن وهو على كل شئ قدير لا يعجزه شئ ولايخرج عن جبروته أحد، هو المعز المذل وهو المحيى المميت هو القادر فوق كل ما يفهم الإنسان من مقاييس القدرة ومعانيها وهو الحى بأكمل معانى الحياة، وهو المستغنى عن كل هذه المخلوقات لأنه خالقها وهو العليم بالسر والعلانية وعلمه كاشف لكل شئ وأنه تعالى فوق كل القوانين لأنه واضع كل القوانين، وأنه تعالى بعد فناء الكون لا يفنى لأنه الأول قبل أى شئ والآخر بعد كل شئ والظاهر بكل نعمه على خلقه والباطن الذى لاتدركه الأبصار

وهواللطيف بعباده، الخبير بكل تصرفاتهم، **الحليم الذى لا يعجل العقاب**، المجيب لكل من دعاه فى صدق وإخلاص، الصمد المرجع الآمن لكل ذى حاجة، التواب عن عباده إذا رجعوا إلى دينه.

اقسام الصفات الواجبة لذاته تعالى :

تنقسم الصفات الواجبة لذاته عزوجل الى ثلاثة أقسام:

أولاً: صفة الوجود، وهى صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى يضاف إلى الذات.

ونعنى بالثبوتية إخراج الصفات السلبية كما نعنى بدون معنى يضاف إلى الذات إخراج صفات المعانى كالعلم مثلا فإنه يدل على الذات الموصوفة بصفة العلم، وكالقدرة فإنها تدل على الذات الموصوفة بصفة القدرة وهكذا.

وقد أقمنا الأدلة فيما سبق على وجوده سبحانه وتعالى فلا حاجة للاعادة.

ثانياً:صفات السلب، وهى التى تسلب أى تنفى أى نقص لا يليق بذاته المقدسة وهى الوحدانية والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس.

ثالثاً: صفات المعانى، وهى عبارة عن المعنى القائم بذاته تعالى مثل:الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام.

ويستحيل وصفه تعالى بأضداد هذه الصفات المذكورة فيستحيل وصفة بالعدم والتعدد والحدوث والفناء والمماثلة للحوادث والإحتياج للغير كما يستحيل وصفه تعالى بالموت والجهل والعجز والقهر والصمم والعمى والبكم .

تنزة سبحانه عما لا يليق بذاته المقدسة.

ونتحدث بإيجاز عن كل صفة من الصفات الواجبة لذاته العلية متخذين العقل والنقل أساسًا لحديثنا:

(١) وحدانية الله تعالى

جاءت الرسالات السماوية كلها وآخرها الدين الإسلامى الخاتم؛ لترفع شعار الإيمان المطلق بوجود الله ووحدانيته.

والعقل العلمى إذا خلص نفسه من الجمود والتقليد والهوى والتعصب والعمى، وجد نفسه مع الحقيقة المطلقة ومع الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته.

إلا أن بعض العقول لا يرضيها إلا أن تظل مغلقة وتتجه بهواها إلى الشرك.

ولهذا رأينا عبر كل الأزمنة وحتى عصرنا بعض الناس يعبد الحجارة والشمس والقمر والبقر والنار، ومنهم من يتخذ البشر آلهة ويدعون أن الله قد حل فى فلان أو اتحد بفلان . ومنهم من يعطى للمخلوقات صفة الأبدية والقدرة الإلهية والعلم الإلهى ، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان ويعتقد فى قدرتهم على النفع والضر أو منح الغفران أو الطرد من الرحمة الإلهية. ومنهم من يترك حكم الله فى كل شئ اعتقاداً أن العقل الإنسانى أقدر على وضع المنهج والسير عليه ومنهم ومن يتبع هواه فى كل شى ومنهم من جعل النور إلهاً والظلام إلهاً ومن جعل الخير إلهاً والشر إلهاً .

هؤلاء جميعاً عطلوا عقولهم ورضوا بالمذلة والعبودية لما لا ينفع ولايضر. يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾(١).

(١) سورة القصص الآية : ٦٢-٦٤.

ويقول سبحانه وتعالى :﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(١).

النقل والوحدانية:

أما المؤمنون فهم يرفعون شعار لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد.

لا إله إلا الله الخالق لكل شئ والمدبر لكل شئ.

لا إله إلا الله واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله.

لا إله إلا الله وحده المستحق للخشوع والخضوع والطاعة والمحبة والتسليم والعبودية المطلقة.

وهم إذ يرفعون هذا الشعار المقدس يعلمون يقيناً أن الكون مخلوق- أى موجود بعد أن لم يكن - وخالقه هو الله وحده المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص والقائل لكل البشر عبر كل الأزمنه:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(٢).

والقائل:﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾(٣). ، والقائل:﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٧،٦٦.

(٢) سورة الحج : الآية ٧٣.

(٣) سورة الطور: الآية ٣٦،٣٥.

(٤) سورة الانفطار: الآية ٦-٨.

وستظل كلمات الله سبحانه وتعالى تذكر بوحدانية الله وبتفرده فى الخلق والتدبير ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

وستظل كلمات الله تهمس فى آذان البشر المتجدد: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾(٢). وللذين يدعون ألوهية غير الله تتوجه كلمات الله لهم بالتحدى العلمى، فكل قضية لها أدلتها ودلائل الوحدانية كثيرة فأين دلائلكم على شرككم؟ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٣).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾(٤).

ما قدمنا من آيات تؤكد وحدانية الله سبحانه وتعالى ولاتحتاج إلى تعليق، فالكون كله ينطق بأنه مخلوق وأن خالقه واحد هو سبحانه المحكم والمتقن والمهيمن والمتصرف فى كل شئ بعظمته ووحدانيته المطلقة.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤.

(٢) سورة لقمان: آية ١١.

(٣) سورة الأحقاف:آية ٤.

(٤) سورة الرعد :آية ١٦.

ولكل متشكك أو ضال عن الحقيقة أطرح هذه الأسئلة، وأريده إذا كان متعقلا أن يفكر فيها بعلمية كاملة. من خلق الكون؟ من وضع فيه كل هذه القوانين المعقدة؟من يسيره وفق نظام لا يتخلف؟ من خلق الإنسان بكل ما فيه من روعة وإتقان؟ من أعطاء الروح والعقل والقلب الذى يعمل ليل نهار؟

أهى الطبيعية؟ أهى الصدفة التى حكم العلم باستحالتها وسط هذا الخضم الهائل من القوانين والنظم المعقدة؟ وفى انتظار الإجابة نواصل االمسير ورائدنا الآيه الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

والله سبحانه وحده هو الخالق واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله.

بمعنى أنه عزوجل منزه عن التركيب ؛ لأن التركيب من صفات الحوادث؛ ولأن التركيب يدل على الاحتياج للأجزاء والاحتياج يدل على الحدوث هو سبحانه واحد بمعنى نفى التعدد مع ذاته فليس للكون إله غيره وهو لم يلد ولم يولد وليس له مكافئ ولا مماثل ولا يتحد مع أحد ولا يحل فى احد.

وهو واحد فى صفاته بمعنى عدم وجود صفتين من جنس واحد فليس له قدرتان ولا إرادتان ولا علمان وإنما قدرة واحدة كاملة وإرادة واحدة كاملة وعلم واحد كامل كاشف. والعقل البشرى كلما وصل إلى صفات كمال فهو سبحانه أكمل من هذه الصفات لا يشاركة أحد فى صفة من صفاته ولاتماثل صفات المخلوقات، فسمعنا محدود وبآلة وبصرنا محدود وبآله، أما سمعه وبصره فكاملان ومنزهان عن الآله وحياتنا محددة، أما حياته فدائمة ... إلخ.

وهو واحد فى أفعالة فليس لأحد مهما بلغ من الرقى فعل يشبه فعل الله سبحانه تعالى، فالإنسان فى فعله يقلد ما فى الكون ويحاول التعرف على مافيه من ظواهر، أما فعل الله تعالى فهو الاختراع أى الخلق على غير مثال سبق هو الذى يعطى الحياة لكل ما يستحق الحياة.

---

(١) سورة الشورى : آية ١١.

يقول سبحانه تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾(١).

العقل والوحدانية:

والعقل والبشرى وهو أميز مايتميز به الإنسان عن غيره من المخلوقات يحكم بنفى التعدد فى ذات الله وصفاته وأفعاله.

فلقد استخدم المنهج العلمى وخرج باستقراءاته إلى الكون مخلوق وكل مخلوق له خالق وبعد هذا انتقل بالاستقراء إلى الوحدانية فوضع الفرض الاتى: « **وجود إلهين فى الكون أو أكثر من إله**» وراح يختبر صحة هذا الفرض فقال:

لو افترضنا إن إلها من الآلهة المتعددة يريد أن يبقى الشخص الفلانى حياً ويريد الإله الآخر أن يميته.

فإن تحققت إرادتهما معاً صار الشخص حياً ميتاً فى وقت واحد وهذا تناقض عقلى.

---

(١) سورة فاطر الآيات: ١١-١٤.

وإن لم تتحقق إرادتهما معاً كانا عاجزين وكان معنى هذا أن ألوهيتهما معاً باطلة.

وإن تحققت إرادة واحد فقط ولم يقدر الآخر على فعل شئ فهذا الآخر ليس بإله.

وافترض العقل فرضاً آخر وهو وجود تعاون بين الآلهة، فإله يخلق النور وإله يخلق الظلام وإله يخلق الأرض، وإله يخلق السماء وهكذا :

وراح العقل يبحث فى صحة هذا الفرض فقال: لو افترضنا أن إله الأرض أراد أن يزيل السماء فهل يقدر على ذلك؟. فإن قلنا: إنه يقدر، فهل يملك إله السماء أن يمنعه، وفى هذه الحالة نقول :إن قدر على منعه فقد عجزه والعاجز لا يكون إلهاً. وإن لم يقدر فهو عاجز والعاجز لا يكون إلهاً.

والعقل يسير مع هذا الفرض فيقول: إن إله الأرض يريد أن تكون السيطرة الكاملة على كل ما فى الكون فهل يقدر على تحقيق ما يريد أو لا؟ لو قدر فقد عجز الآلهة الأخرى ويكون واحداً وإن لم يقدر كان عاجزاً.

ونقول أيضاً: إن كل إله يريد أن تكون له السيطرة على الكون ودعونا نتصور آلهة تتصارع، كيف يكون حال الكون مع صراعها؟

يقول سبحانه وتعالى :﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١). ويقول سبحانه:﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٢).

تعدد الآلهة إذاً مستحيل شرعاً وعقلا لما يترتب عليه من فساد للكون وعدم النظام فيه وانعدام العناية به.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون:الآية ٩١.

ومن نظر فى الكون وفي قوانينه، ودقة نظامه، علم يقيناً أنه يقع تحت إرادة واحدة وتحت تصرف حاكم واحد وأن خالقة واحد ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ۝ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ﴾(١).

المؤمن ووحدانية الله:

وإذا كان الخالق هو الله سبحانه وتعالى وهو الرازق والمنعم والمحيى والمميت فهو وحده المستحق للشكر والثناء والخشوع والخضوع والانقياد والطاعة والحب والاستسلام المطلق والعبودية التامة.

وهذه المعانى كلها تجتمع فى معنى الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع.

وفى معنى الإيمان: أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره حلوه ومره

وفى معنى الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ومن كان موحداً عابداً لله خاضعاً لعظمته مستسلماً لأمره صار أقوى من كل قوة وانتصر على كل معوقات الحياة لأنه يثق فى عظمة خالقه. ومن كانت ثقته فى عظمة الله سبحانه استمد العون منه ووجد لنفسه مخرجاً وملجأ. يقول سبحانه :﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (٢).

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان ٢ ـ ٣.

(٢) سورة الطلاق الآيتان ٢ ـ ٣.

ويقول ﷺ لابن عباس: يا غلام، إنى أعلمك كلمات: أحفظ الله يحفظك؛، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف [١].

ومن العبودية لله ومن إخلاص التوحيد له سبحانه وتعالى أن تتوجه القلوب إليه سبحانه وتعالى بالدعاء يقولﷺ:«الدعاء مخ العبادة»[٢]. وفى حديث آخر:«الدعاء هو العبادة»[٣].

ويقول تعالى فى حديث قدسى:«يا ابن آدم، إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة»[٤].

(ب) صفة القدم

ومعناها: عدم أولية الوجود أى أن وجوده سبحانه وتعالى غير مسبوق بالعدم لأنه لو كان مسبوقا بالعدم لكان حادثاً وإذا كان حادثاً يحتاج إلى محدث والمحدث إذا كان قديماً انتهى الأمر وإلا احتاج إلى محدث آخر ولابد أن ينتهى الأمر إلى محدث قديم غير مسبوق بشئ وإلا تسلسل الأمر والتسلسل باطل ودليل بطلانه خروج المحدثات إلى الوجود لأنها لا تخرج بنفسها وإلا كانت علة لنفسها ومعلولة لنفسها والشئ

---

(١) أخرجة الامام الترمذى فى سننه كتاب صفة القيامة باب رقم ٥٩ جـ٤ص٦٦٧ح٢٥١٦، وقال ابوعيسى هذا حديث حسن صحيح . ط دار الحديث تحقيق ابراهيم عطوه.

(٢ - ٣) الترمذى فى سننه كتاب كتاب الدعاء ماجاء فى فضل الدعاء ٥/٤٥٦ .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الدعاء باب فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده٥/٥٤٨ح ٣٥٤٠- وقال ابو عيسى حديث غريب .

لا يكون علة ومعلولا وإذا بطل التسلسل بطل ما يؤدى إليه وهو الحدوث وثبت القدم أى أنه سبحانه وتعالى أزلى لا بداية له. يقول تعالى:﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[١]. ويقول الرسول ﷺ «اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ، وانت الظاهر فليس فوقك شئ ، وانت الباطن فليس دونك شئ أقض عنا الدين واغننا من الفقر»[٢].

(جـ) صفة البقاء

ومعناها: عدم آخرية الوجود فالله سبحانه أزلى، أى موجود بلا بداية وأبدى، أى باق بلا نهاية لأنه واجب الوجود فوجوده نفس ذاته ومن كان وجوده نفس ذاته لايعدم لأن غيره لايستقل بالإيجاد ولا بالإعدام وإذا كان الأمر كذلك فهو وحده المستقل بذلك؛ ولأن البقاء صفة كمال وكل كمال يوصف به سبحانه وتعالى لأنه إذا لم يوصف بالبقاء لاتصف بالفناء والفناء نقص يتنزه عنه سبحانه وتعالى: يقول عزوجل :﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٣] ويقول:﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[٤]. ويقول الرسول ﷺ «لا إله إلا الله وحده أعز جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شئ بعده»[٥].

---

(١) سورة الحديد:الآية ٣.

(٢) أخرجة مسلم عن ابى هريرة كتاب الذكر والدعا وباب ما يقول عند النوم ٢٠٨٤/٤ ط عيسى الحلبى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

(٣) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٤) سورة الرحمن: الآية ٢٦-٢٧.

(٥) أخرجه البخارى عن ابى هريرة كتاب المغازى باب غزوة الأحزاب ١٤٢/٥ ط الشعب.

(د) صفة المخالفة للحوادث

ومعناها : عدم المماثلة أو المشابهة للحوادث فى الذات وفى الصفات وفى الأفعال .

فذاته تعالى ليست بجسم ولاعرض ولا تخضع للزمان أو المكان لأنه خالق هذه الأشياء ولأنه كان ولا زمان ولا مكان .

كما أن صفاته ليست كصفات البشر فعلمه كاشف لكل الأشياء ولم يسبق بجهل لا يزيد ولا ينقص وليس قابلا للسهو أو الغفلة أو النسيان أو التغير بخلاف علم البشر، وحياته أزلية أبدية أى لم تسبق بعدم ولا تنتهى إلى العدم، وهكذا بقية صفاته تعالى، وكذا فعله لايشبه فعل غيره فهو المحيى والمميت وهو المنشئ للأشياء من العدم.

والله سبحانه إذا لم يكن مخالفاً للحوادث لكان مماثلا لها ولو كان مماثلا لها لكان حادثاً مثلها ولا حتاج إلى محدث. لكننا علمنا بالأدلة أنه سبحانه خالق الوجود وأنه متصف بالقدم والبقاء، وماكان أساس الوجود واتصف بالقدم والبقاء لا يكون حادثاً وما ليس بحادث لا يماثل الحوادث فى شئ.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ لَمْ يُولَدْ (٣) لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[١]. ويقول تعالى :﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٢].

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) سورة الشورى : الآية ١١.

(هـ) صفة القيام بالنفس

ومعناها: عدم الاحتياج إلى الغير من إنس أو جن أو ملائكة كما أنه لا يحتاج لآلات ومعاونين فى تصريف أمور الكون، بل هو القدوس المنزه عن كل شئ والذى يحتاج لعظمته وجلاله كل مافى الكون.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[١].

ويقول سبحانه: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[٢].

وفى الحديث القدسى يقول تعالى: «ياعبادى لوأن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل منكم ما زاد هذا فى ملكى شيئا ياعبادى لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أشقى قلب رجل منكم ما نقص هذا فى ملكى»[٣].

فهو سبحانه منزه عن الحاجة لأنه لو كان محتاجاً لأحد أو للزمان والمكان لكان ناقصاً والنقص عليه محال، ولكان حادثاً وقد ثبت أنه الأول قبل أى شئ والآخر بعد كل شئ.

---

(١) سورة فاطر الآيات: ١٥-١٧.

(٢) سورة الكهف آية :٥١

(٣) رواه الترمذى.

(و) صفة الحياة

وهى صفة قائمة بذاته تعالى تصحح اتصافه عز وجل ببقية الصفات مثل:القدرة والإرادة والسمع والبصر إلى آخره، بمعنى أنه لا يكون قادراً مريداً سميعًا بصيراً إلا من كان حياً.

وإذا كانت الحياة التى يوصف بها الإنسان من الكمالات فالله سبحانه وتعالى أكمل من كل كمال يمكن أن يصل إليه التصور الإنسانى فيجب وصفة بالحياة .

إلا أن حياته سبحانه وتعالى أزلية أبدية، فنحن نعرف أن حياة الإنسان لها بداية حيث كان عدماً قبل ذلك وتنتهى حتما بالموت، ومهما طالت الحياة بالإنسان أو بأى حى على الأرض فإنها تدخل فى دائرة التغير المستمر من ضعف لقوة ومن مرض لصحة ومن طفولة لشباب ثم لشيخوخة.

أما حياته عز وجل فلا توصف بأى تغير ولا تقاس بالماضى والحاضر والمستقبل، ولا تخضع لمكان أو بيئة لأنها ممتدة من الأزل للأبد ولأنها أساس كل الكون.

ولقد علمنا قبل ذلك أن فاقد الشئ لا يعطيه. فالطبيعة والصدفة والإنسان لا يملك الجزء ولا المجموع أن يمنح الحياة لكن الحياة تدب فى كل الموجودات فمن وهبها؟ إنه الحى الدائم الله سبحانه وتعالى.

يقول سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوت ﴾[1] ويقول:﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولانوم ﴾[2]. ويقول :﴿ وَعَنَت الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[3].

ويقول الرسول ﷺ فى دعائة «اللهم لك اسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت واليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم ان اعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنى أنت الحى الذى لا يموت والجن والإنس يموتون» [4].

---

(١) سورة الفرقان الآية :٥٨.

(٢)سورة البقرة الآية :٢٢٥.

(٣) سورة طه الآية :١١١.

(٤)أخرجه مسلم فى صحيحة من حديث ابن عباس كتاب الذكر والدعاء.

(ز) صفة العلم

وهى صفة قائمة بذاته تعالى ينكشف بها جميع الموجودات والجائزات والمستحيلات انكشافاً تاماً.

وعلمه سبحانه وتعالى لا يماثل علمنا أى مماثلة لأن علمنا مسبوق بالجهل خاضع للزيادة والنقصان والسهو والغفلة والنسيان، محدود بالأزمنه والأمكنة يكتسب بالحواس ولايحيط إحاطة كاملة بالشئ قاصر عن استكناة ما فى الطبيعة خاضع خضوعاً كاملا للآلات.

أما علمه تعالى فهو علم شامل دائم كاشف محيط لا يطرأ عليه أى تغيير من زيادة أو نقص أو غفلة أو نسيان، هو أساس كل ما فى الكون من إتفاق ونظام.

وإذا كان العلم فى الإنسان كمالا بدونه يكون ناقصاً فإن الله سبحانه وتعالى أكمل الكمالات كلها لا يخلو من اتصافه بالعلم.

وإذا كنا لا نستطيع أن نتصور أو نتعقل إقامة بناء شامخ على قطعة من الأرض دون أن يكون العلم الإنسانى وراءه فكيف نتصور أن يكون هذا العالم بكل ما فيه من روعة وجلال وإحكام ونظام وقوانين هى الدقة نفسها وأسرار وراء كل ذرة فيه يكشفها علم الإنسان كلما مر به الزمن.

كيف نستطيع أن نتصور أو يراد بنا أن نتصور أن النظام خلق من الفوضى وأن الدقة خلقت من العدم، إن كل لمسة فى الكون تنطق بأن وراءها عالم لا يخفى عليه شئ هو الله عزوجل القائل: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

والقائل: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَاءٌ مِّنكُم

---

(١) سورة الانعام آية:٥٩.

مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (١). والقائل:﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٢). والقائل:﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(٣). يقولﷺ «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق احينى ماعلمت الحياة خيرالى، وتوفنى إذا علمت الوفاة خيرالى، اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الاخلاص فى الرضا والغضب، واسألك القصد فى الفقر والغنى، وأسالك نعيما لا ينفد، واسألك قرة عين لا تنقطع، واسألك الرضا بالقضاء، واسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك، فى غير ضراء مضره، ولا فتنه مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»(٤).

والله سبحانه وتعالى يعلم ذاته وصفاته كما يعلم الموجودات والمعدومات. يقول الغزالى: «ندعى أن الله تعالى عالم بجميع المعلومات الموجودات والمعدومات، والموجودات منقسمة إلى قديم وحادث والقديم ذاته وصفاته ومن علم غيره فهو بذاته وصفاته أعلم... لأن ما يطلق عليه اسم الغير فهو صنعه المتقن وفعله المحكم المرتب، وذلك يدل على قدرته على ما سبق فإن من رأى خطوطا منظومة تصدر على الاتساق من كاتب ثم استراب فى كونه عالما بصنعة الكتابة كان سفيهًا فى استرابته فإذن قد ثبت أنه عالم بذاته وبغيره»(٥).

---

(١) سورة الرعد: آية ٥٩.

(٢) سورة لقمان : آية ٣٤.

(٣) سورة الملك : ١٣-١٤.

(٤) اخرجة النسائى والحاكم فى المستدرك من حديث عمار بن ياسر.

(٥) الاقتصاد فى الاعتقاد ص٦٤.

(ح) صفة القدرة

وهـى صـفة قائمة بذاته تعالى بها يكون الإيجاد من العدم أو الإفناء بعد الإيجـاد أو الإعطاء بعد المنع على وفق علمـه وإرادته، فـالعلم كـاشف والإرادة مخصصـة أما قدرته تعالى فهى مخرجة إلى الوجود أو مرجعة إلى العدم.

وإذا كانت قدرة الإنسـان محدودة بالزمـان والمكان وسـلامة الحواس وبما يصل إليه من آلات أو يحيط به من معاونين، وإذا كانت عرضة للضعف والقوة، فإن قدرته تعالي شـاملة لكل شئ دائمة لاتتغير لا يحتاج سبحانه إلى معاونين أو آلات وإنما إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فقد أنشأ سبحانه الكون من العدم المطلق وخلق آدم من التراب ومن آدم خلق حواء وخلق عيسى عليه السلام بلا أب وخلق الخير والشر ليدلل على كمال قدرته وليبين للإنسان أنه قادر على خلق المتناقضات وأنه ليس فى حاجة لأى شئ وإذا كان سبحانه وتعالى قد جعل الأسباب منتجة للمسببات فإنه قادر أن يعطل الأسـبـاب ومـا كـان خلق آدم بلا أب وأم وخلق حـواء بلا أم وخلق عيسى بلا أب . وعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم إلا تاكيداً لكمال قدرته ونفاذ مشيئته وليعلم الإنسان أن الأسباب والمسببات لا تخرج عن دائرة القدرة الإلهية.

ونحن نعلم أن القـدرة الأنسـانيـة من الكمـالات فكيف يكون خـالق الإنسان وقدرته بل خالق العالم بما فيه من قدرات هائلة لا يتصف بالقدرة اللامحدودة تنزة سبحانه عن كل ما يقوله الظالمون؟.

يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

---

(١) سورة النور: آية٤٥.

ويقول: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾(١).

ويقول: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾(٢).

ويقول ﷺ فى دعائة «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى امرى، وما أنت اعلم به منى، اللهم اغفر خطاياى وعمدى وهزلى وجدى، وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما اسررت، وما اعلنت، انت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شئ قدير»(٣).

ويدلل الغزالى على ثبوت القدرة لله تعالى بقوله: «ندعى أن محدث العالم قادر؛ لأن العالم فعل محكم مرتب متقن منظم مشتمل على أنواع من العجائب والآيات وذلك يدل على القدرة. ونرتب القياس فنقول: كل فعل محكم فهو صادر عن فاعل قادر، والعالم فعل محكم فهو إذًا صادر عن فاعل قادر»(٤).

ويذكر أن من أحكام القدرة عموم تعلقها بجميع المقدروات - أى الممكنات كلها - بمعنى صلاحيتها للتعلق مطلقا بالمقدورات وجدت أم لم توجد وأن المؤثر ابتداء هو الله(٥).

---

(١) سورة الحج: آية٧.

(٢) سورة يس : الآيتان ٨٠، ٨١.

(٣) أخرجه الشيخان فى صحيحهما من حديث أبى موسى الأشعرى.

(٤) الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى ص ٥٣.

(٥) انظر المرجع السابق ٥٤.

(ط) صفة الإرادة

وهى صفة قائمة بذاته تعالى تخصص الممكن ببعض ما يجوز له من الأمور المتقابلة مثل : البياض والسواد والصحة والمرض والموت والحياة والغنى والفقر والطول والقصر وغير ذلك، كذلك تخصص الممكن بوجوده فى المكان والزمان وفق علمه سبحانه الأزلى.

وإذا كانت إرادتنا تعنى الميل أو الرغبة والمقارنة بين الأشياء ثم العزم والتصميم بعد روية، وتتحرك إرادتنا وفقاً للمنفعة الشخصية فإن إرادته سبحانه منزهة عن هذه الأشياء، فهو سبحانه يفعل ما يشاء وفعله منزه عن أى غرض أو منفعة تعود لذاته العلية.

ولما كانت الإرادة من صفات الكمال فإنه سبحانه يوصف بها لأنه لو لم يكن مريداً لكان مجبوراً مقهوراً والمجبور المقهور لا يخلق ولا يعلم ولا يقدر، وقد سبق أن علمنا أنه سبحانه الخالق المتصف بكل كمال ومن الكمالات اتصافة بالإرادة.

يقول سبحانه وتعالى :﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1]. ويقول سبحانه:﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[2]. ويقول تعالى﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[3]. والإرادة عامة التعلق بجميع الحادثات عند اهل السنه يقول الغزالى «اعلم انها متعلقة بجميع الحادثات من حيث أنه ظهر أن كل حادث فمخترع بقدرته وكل مخترع بالقدرة محتاج إلى إرادة تصرف القدرة إلى المقدور وتخصصها به فكل مقدور مراد وكل حادث مقدور فكل حادث مراد والشر والكفر والمعصية حوادث فهى إذاً لا محالة مرادة فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[4].

---

(١) سورة يس : الآية ٨٢.

(٢) سورة النحل : الآية ٤٠.

(٣) سورة هود : الآية ١٠٧.

(٤) الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى ص ٧٠.

(ى) صفة السمع

وهى صفة قائمة بذاته تعالى تنكشف بها المسموعات انكشافا تاماً يغاير انكشاف صفة العلم والبصر.

وإذا كان الإنسان يستقبل الأصوات بالأذن فإنه يشترط إذا كانت مباشرة أن يكون الصوت قريباً وليس هناك من الحوائل ما يمنع وصول الصوت كما يشترط سلامة حاسة السمع من الآفات، أما إذا كان الصوت غير مباشر كالإشارات اللاسلكية أو التليفون أو غير ذلك من مستحدثات العصر فيضاف إلى ما سبق سلامة هذه الآلات المرسلة والمستقبلة.

أما سمع الله سبحانه وتعالى فهو منزه عن الحاسة ولا يحول بينه وبين المسموع بعد المكان أو الزمان ولا يحتاج سبحانه لالآت معاونة بل يكشف كل المسموعات مهما خفت صوتها؛لأنه سبحانه وتعالى خالقها والمهيمن عليها.

ومعلوم أن السمع فى الإنسان من صفات الكمال والله سبحانه أكمل الكمالات وما كان كذلك فهو سميع لأن القول بغير ذلك يوجب وصفه تعالى بالنقص وهو منزه عن الاتصاف بأى نقص.

يقول سبحانه وتعالى لرسوله:﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّه وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾(١). ويقول عزوجل لموسى وهارون﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾(٢).

ويروى البخارى ومسلم من حديث أبى موسى الاشعرى أن رسول الله ﷺ قال للقوم فى خيبر حنيما رفعوا أصواتهم بالتهليل «أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعًا قريباً»(٣).

---

(١) سورة المجادلة : الآية ١.

(٢) سورة طه: الآية ٤٦.

(٣) صحيح البخارى ك المغازى باب غزوة خيبر.

(ك) صفة البصر

وهى صفة قائمة بذاته تعالى تنكشف بها المبصرات انكشافاً تاماً يغاير انكشاف صفة العلم والسمع.

وكما قلنا فى السمع كذلك نقول فى البصر؛ لأنه سبحانه منزه عن الاتصاف بصفات الحوادث ولأنه كمال مطلق وخالق الكمالات فى العالم وإذا كان سبحانه هو الكمال وهو خالق الكمالات فإنه يتصف بالبصر لأن القول بغير ذلك يؤدى إلى وصفه بالنقص تعالى عما لا يليق بذاته المقدسة.

يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١).

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾(٢) ويقول: ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(٣).

يقول الإمام الغزالى: «ندعى أن صانع العالم سميع بصير ويدل عليه الشرع - مثل الآيات السابقة - والعقل وهو أن تقول: معلوم أن الخالق أكمل من المخلوق ومعلوم أن البصير أكمل ممن لا يبصر، والسميع أكمل ممن لا يسمع فيستحيل أن يثبت وصف الكمال للمخلوق ولا يثبت للخالق، فهذان أصلان يوجبان الإقرار بصحة دعوانا(٤).

---

(١) سورة النساء الآية : ٥٨.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٠.
(٣) سورة غافر :الآية ٢٠.
(٤) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٧٢.

(ل) صفة الكلام

هى صفة قائمة بذاته تعالى ليست من جنس الحروف والأصوات ولاتتخللها آفة من الآفات هى أمر بما أمر به ونهى عما نهى عنه.

وهى من الكمالات التى يتصف بها رب العزة عز وجل، لأنه لو لم يتصف بالكلام لا تصف بضده وضده نقص تنزه سبحانه عن الاتصاف بأى نقص. يقول سبحانه وتعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾(١).

ويقول سبحانه:﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾(٢). ويقول سبحانه :﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾(٣) ويقول :﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾(٤).

ويدلل الغزالى على ثبوت صفة الكلام لله تعالى بقوله: «الكلام للحى إما أن يقال هو كمال أو يقال هو نقص أو يقال لا هو نقص ولا هو كمال. وباطل أن يقال هو نقص، أو هو لا نقص ولا كمال فثبت بالضرورة أنه كمال، وكل كمال وجد للمخلوق فهو واجب الوجود للخالق بطريق الأولى»(٥).

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٣.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٤٣.

(٣) سورة الشورى: آية٥١.

(٤) سورة البقرة آية:٧٥.

(٥) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٧٣.

(٨) رؤية الله سبحانه وتعالى

من المباحث التى اشتغل بها علماء الكلام مبحث رؤية الله سبحانه وتعالى ونود فى البدء أن نحدد الأسئلة التى حاولوا الإجابة عليها هى:

أولاً: هل رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة أو مستحيلة؟

ثانياً: هل هى واقعة للمؤمنين فى الآخر أو لا؟

ثالثاً: هل هناك أدلة من القرآن والسنة على جوازها؟ وهل هناك أدلة من القرآن والسنة على استحالتها؟ وما هى هذه الأدلة؟

رابعاً: ما هى أدلة الوقوع أو عدم الوقوع من القرآن والسنة؟

إجمال عام:

يرى أهل السنة وعلى رأسهم الأشاعرة أن رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة عقلا والقرآن الكريم خير مؤكد لهذا الجواز العقلى؛ لأنه تعالى موجود، وكل موجود تصح رؤيته، فالله تعالى تصح رؤيته، كما أن الرؤية واقعة للمؤمنين فى الآخرة بنص القرآن الكريم والسنه المشرفة.

أما المعتزلة فيذهبون إلى القول: باستحالتها فى الدنيا والآخرة؛ لأن القول بالجواز فى رأيهم يؤدى إلى مستحيل، وهو كونه تعالى فى جهة، وفى مقابلة من الرائى، ويتصل به شعاع العين أو ينطبع فى حدقة الرائى وما أدى إلى مستحيل فهو مستحيل، على هذا فرؤية الله سبحانه وتعالى مستحيلة، ويستدلون على رايهم هذا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة.

رأى أهل السنة بالتفصيل:

ذهب أهل السنة إلى جواز رؤية الله تعالى ودليلهم على ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام :﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن

ترَانِي ولَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وجه الاستشهاد بالآية الكريمة:

أولاً: فقد طلب موسى عليه السلام رؤية ربه – وهو نبى ورسول، وهو كليم الله، وأعلم من المعتزلة ومن غيرهم بأقسام الحكم العقلى أى بما يجب له سبحانه وتعالى وما يجوز له وما يستحيل – والأمر لا يخلو من أن يكون عالماً باستحالتها. أو جاهلا باستحالتها، أو يعلم أنها جائزة، فإن كان عالماً باستحالتها وطلبها لكان عابثاً والعبث على الرسل محال؛ لأنهم معصومون من كل ما يخل بنبوتهم.

وإن كان جاهلا باستحالتها فهو جاهل بما يجب وما يجوز وما يستحيل على الله تعالى، وكيف يكون نبياً ورسولاً ذلك الذى يجهل ما يدعو إليه، زد على أنه كليم الله، فكيف لا يعلم من كلمة ربه بما يجوز أن يوصف به الله أو يستحيل أو يجب؟

وإذا كان العبث والجهل منتفيين فى حق موسى عليه السلام فلم يبق إلا الافتراض الثالث، وهو أنه عليه السلام طلب الرؤية لأنه يعلم بجوازها.

ثانياً: أنه عليه السلام حينما طلب الرؤية علقهاالله وتعالى على أمر ممكن، وهو استقرار الجبل، فالجبل فى نفسه ممكن الاستقرار والحركة ، وما علق على أمر ممكن فهو ممكن.

ثالثاً: إن موسى عليه السلام لو كان عالماً باستحالتها وطلبها لعاتبه ربه كما عاتب نوحاًعليه السلام ، حينما طلب إنجاء ابنه من الغرق، يقول

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

سبحانه وتعالى حكاية عن طلب نوح: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾(١).فأجابة ربه معاتباً: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٢).

وكما عاتب قبل ذلك آدم حينما أكل هو وحواء من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها بقوله تعالى ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٣).

بل إن العتاب لموسى عليه السلام يكون ألزم؛ لأنه يطلب أمراً يتعلق بذات الله، وإذا كان سبحانه وتعالى لم يعاتبه فلم يكن ذلك إلا لأنه يطلب أمراً جائزاً وهو الرؤية.

رابعاً: إنه تعالى نفى رؤية موسى إياه بقوله : {لن ترانى} فلو كانت رؤيته تعالى مستحيلة لقال: لن أر، أو لست بمرئى، كما أن النفى هنا خاص بموسى عليه السلام فى الدنيا، وهذا يدل على جوازها لغيره، كما لا يدل على استحالتها فى الآخرة.

يقول إمام الحرمين الجوينى: فهذه الآية من أصدق الأدلة على ثبوت جواز الرؤية، فإن من اصطفاه الله لرسالته، واختاره، واجتباه لنبوته، وخصصة بتكريمه وشرفه بتكليمه، يستحيل أن يجهل من حكم ربه ما يدركه المعتزلة»(٤).

---

(١) سورة هود : الآية٤٥.

(٢) سورة هود :الآية٤٦.

(٣) سورة الأعراف : الآية ٢٢.

(٤) الإرشاد ص ١٨٣.

اعتراضات للمعتزلة والرد عليها:

وللمعتزلة على الكلام السابق جملة من الاعتراضات منها :

(أ) إن موسى عليه السلام لم يطلب الرؤية، وإنما طلب العلم الضرورى بذاته تعالى ، كأنه قال:أعلمنى علماً ضرورياً بذاتك.

ويرد على هذا الاعتراض:

إن الظاهر هو الرؤية وإن النظر المعدى بإلى فى قوله تعالى :﴿أنظر إليك﴾ لا يدل إلا على الرؤية وأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿لن ترانى﴾ وحمل الآية على خلاف ذلك عدول عن الظاهر ولا ضرورة تدعو لذلك.

(ب) من الاعتراضات أنه عليه السلام لم يسأل الرؤية، وإنما سأل آية كأنه قال: أرنى آية أعلمك بها علماً ضرورياً كما أعلم ما أنظر إليه.

ويرد على هذا الاعتراض:

إن موسى عليه السلام قال : «أرنى أنظر إليك» فلو كان المقصود اية لقال: أرنى آية أنظر إليها، ولقد أجابه ربه بقوله :{لن ترانى} فلو كان المقصود هو النظر للآيةلأجابة لن ترآيتى، ولقال : «فإن استقرمكانه » فسوف ترى آيتى، ثم إن هذا صرف للكلام عن ظاهره ولا ضرورة تدعو إليه، وموسى عليه السلام قد ظهرت له الكثير من آيات الله، مثل قلب العصا حية، وتفجير الماء من الصخر، وفلق البحر واليد البيضاء، وغير ذلك من الآيات. وإذا كان قومه قد صدقوا بهذه الآيات فلا يعقل أن يطلب موسى عليه السلام آية أخرى وهو نبى مرسل.

(جـ) ومن الاعتراضات أيضا أن موسى لم يطلب الرؤية لنفسه؛ لأنه كان عالماً باستحالتها، بل طلبها لقومه حينما قالوا له ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾(١).

---

(١) سورة النساء، آية ١٥٣.

وقالوا له ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾(١). حتى إذا قال تعالى :﴿لن تراني﴾. صدقوا بأن رؤيته مستحيلة.

ويرد على هذا الاعتراض:

إن قوم موسى بين مصدق برسالته ومكذب بها، فالمصدق اطلع على الكثير من المعجزات التى جاء بها موسى من عند ربه فلا يعقل أن يسأل ما يقول عنه المعتزلة بأنه مستحيل، ولو سأل كان لا يكفى أن يقول موسى إنه أمر ممتنع بل يلجأ إلى زجره وتعنيفه كما قال لهم :﴿إنكم قوما تجهلون﴾(٢). حينما سألوا أن يجعل لهم إلهاً كما لعبده الأوثان آلهة.

أما المكذب فقد رفض كل معجزات موسى عليه السلام فهو من باب آخر حينما يبلغ أن الله تعالى قال:{لن ترانى} لن يصدق بهذا، خاصة أنه لم يحضر المناجاة بين الرب تعالى وموسى.

كذلك فإن فى هذا الاعتراض حمل للأية على خلاف الظاهر ولا ضرورة تدعو لذلك، ولو كان موسى عليه السلام سأل الرؤية لقومه لقال: أرهم ينظرون إليك، ولأجابة تعالى قائلا: لن يرونى ولقال :«فإن استقر مكانه فسوف» لن يرونى وهذا خلاف لظاهر الآية.

(د) يقولون أيضا فى اعتراضاتهم : إنه عليه السلام كان يعلم باستحالتها بالدليل العقلى إلا أنه أراد أن يسمع الاستحالة بالدليل النقلى فإذا انضم النقل الى العقل ازداد طمأنينة.

ويرد على هذا الاعتراض:

بأنه لا مانع من طلب الطمانينة لكن المانع هو ان يعلم أنها مستحيلة، فيطلب المستحيل، وطلب المستحيل يشعر بالعبث والجهل، والعبث والجهل على الرسل محال.

(١) سورة البقرة : الآية ٥٥.

(٢) سورة الاعراف: الآية١٢٨.

(هـ) ومن الاعتراضات أيضا أن موسى عليه السلام طلب الرؤية ورد عليه الله سبحانه قائلا : «لن تراني» ولن تفيد تأبيد النفي أي لن تراني لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإذا لم يراه موسى لم يره غيره من البشر.

ويرد على هذا الاعتراض:

نمنع كون لن تفيد تأبيد النفي بل هي مفيدة للتأكيد، فقد قال تعالى على لسان صاحب موسى ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[1]. للتأكيد فقط ولبيان صعوبة الأمر لا لبيان الاستحالة لأن الصبر من الأمور الجائزة.

وإذا حملنا لن على التأبيد فالمراد التأبيد في الدنيالأن موسى عليه السلام كان يطلبها للحال، فهو يعلم بجوازها لكنه لا يعلم بوقتها ولا يطعن هذا في نبوته ويكون المراد بالنفي المؤبد أنك لن تراني في الدنيا ولا يمنع هذا من رؤيته في الآخرة، والدليل على ذلك قوله تعالى في شأن الكفار:﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[2].

فقد جاءت لن مؤكدة بكلمة أبداً ومع ذلك لم تقتض إلا عدم التمني في الدنيا بدليل أنهم يتمنون الموت في الآخرة حتى يتخلصوا من شدة العذاب الذي يعاينونه في الآخرة. يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ ﴾[3].أي ليميتنا حتى نتخلص من العذاب.

(و) من الاعتراضات أيضاً قولهم : إنه تعالى علق الرؤية على أمر مستحيل وهو استقرار الجبل حال تحركه وما علق على مستحيل فهو مستحيل فالرؤية مستحيلة.

---

(١) سورة الكهف الآية: ٧٢

(٢) سورة البقرة الآيات ٩٤-٩٥.

(٣) سورة الزخرف آية:٧٧.

ويرد على هذا الاعتراض:

إن المستحيل هو اجتماع الحركة والسكون فى شئ واحد، فى وقت واحد، أما أن تأتى الحركة بعد السكون أو السكون بعد الحركة فهذا أمر جائز، بل أن الجبل فى نفسه ممكن الحركة كما هو ممكن السكون، وتحركة وتسكينه فى مقدور الله وعلى هذا فالرؤية معلقة على أمر ممكن وما علق على ممكن فهو ممكن.

يقول أبو الحسن الأشعرى: «لو أراد الله سبحانه وتعالى تبعيد الرؤية لقرن الكلام بما يستحيل وقوعة ولم يقرنه بما يجوز وقوعه، فلما قرن باستقرار الجبل وذلك أمر مقدور له سبحانه تعالى دل ذلك على أنه جائز»(١).

نص لأبى حامد الغزالى:

ومن أقوى ما يدل عليه سؤال موسى عليه السلام :«أرنى أنظر إليك» فإنه يستحيل أن يخفى عن نبى من انبياء الله تعالى انتهى أمره إلى أن يكلمه الله سبحانه وتعالى شفاها أن يجهل من صفات ذاته تعالى ما عرفه المعتزلة وهذا معلوم على الضرورة، فإن الجهل بكونه ممتنع الرؤية عند الخصم يوجب التكفير أو التضليل، هو جهل بصفة ذاته؛ لأن استحالتها عندهم لذاته ولأنه ليس بجهة، فكيف لم يعرف موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، أنه ليس بجهة أوكيف عرف أنه ليس بجهة ولم يعرف أن رؤية ما ليس بجهة محال؟ فليت شعرى ماذا يضمر الخصم ويقدره من ذهول موسى عليه السلام، القدرْ معتقداً أنه جسم فى جهة ذو لون، واتهام الانبياء صلوات الله سبحانه وتعالى عليهم وسلامة كفر صراح، فإنه تكفير للنبى ﷺ فإن القائل :بإن الله سبحانه وتعالى جسم. وعابد الوثن والشمس يقول : بأنه واحد علم استحالة كونه بجهة ولكنه لم يعلم أن ما ليس بجهة فلا يرى.

---

(١) الإبانه ص ١٤.

وهذا تجهيل للنبى عليه أفضل الصلاة والسلام لأن الخصم يعتقد أن ذلك من الجليات لا من النظريات .

فأنت أيها المسترشد مخير بين أن تميل إلى تجهيل النبى ﷺ أو إلى تجهيل المعتزلة فاختر لنفسك ما هو أليق بك.

فإن قيل: إن دل هذا لكم فقد دل عليكم بسؤال الرؤية فى الدنيا ودل عليكم قوله تعالى «لن ترانى».

قلنا: أما سؤاله الرؤية فى الدنيا، فهو دليل على عدم معرفته بوقوع وقت ما هو جائز فى نفسه، والأنبياء كلهم عليهم أفضل الصلاة والسلام لا يعرفون من الغيب إلا ما عرفوه وهو القليل، فمن أين يبعد أن يدعو النبى عليه أفضل الصلاة والسلام كشف غمة وإزالة بلية وهو يرتجى الإجابة فى وقت لم تسبق فى علم الله تعالى الإجابة فيه؟

وأما قوله سبحانه:«لن ترانى» فهو دفع لما التمسه وإنما التمس فى الدنيا لو قال :«أرنى انظر إليك» فى الآخرة فقال :«لن ترانى» لكان ذلك دليلا على نفى الرؤية ولكن فى حق موسى على الخصوص لا على العموم، وما كان أيضاً دليلا على الاستحالة فكيف وهو جواب عن السؤال فى الحال؟[1].

الدليل العقلى على جواز رؤية الله تعالى :

عرضنا فى الصفحات السابقة الأدلة النقلية على جواز رؤيته تعالى وفيما يلى نتعرف على دليل العقل .

يرى أهل السنه ومنهم الأشاعرة أن رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة بدليل العقل وإليك التوضيح:

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٤٦.

أولا: إن الرؤية نوع من الكشف يمنحه الله لمن يشاء متى شاء، وإذا كانت العادة قد جرت بأن تحدث الرؤية بالعين للأجسام والأعراض، فإن هذه العادة معطاة للإنسان بقدرة الله تعالى ، ويمكن أن تتخلف بقدرته أيضاً بحيث يعطينا القدرة على رؤيته بالبصر أو بغيره دون أن يلزم من ذلك أى محال فى ذاته العلية من الجسمية أو التحيز أو كونه فى جهة أو فى مقابلة للرائى إلى غير ذلك مما تتنزه ذاته العليه عنه.

ومما يؤكد هذا أن النبىﷺ قال للمصلين معه من الصحابة : «سووا صفوفكم فإنى أراكم من وراء ظهرى»[1] وفى رواية ثانية :«أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهرى »[2]. فى رواية ثالثة:«استووا استووا فو الذى نفسى بيده إنى لأراكم من خلفى كما اراكم من بين يدى»[3]. والرسول ﷺ لم يكن فى مقابلتهم ببصره أثناء الصلاة وهو الصادق المعصوم عن الكذب وهنا يأتى سؤال، كيف يراهم من خلف ظهره مع أن العادة جارية بأن الرؤية لاتتحقق إلا باتصال شعاع بالمرئى أو انطباع المرئى فى حدقة العين؟

الإجابة: أن قدرة الله شاملة فهو سبحانه أعطاه نوعاً من الكشف على غير المعهود للناس.

كذلك فإنه سبحانه يقول لموسى وهارون :﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[4]. ومعلوم أنه تعالى منزه عن الجهة والمكان فإذا كان سبحانه وتعالى قد رأى موسى وهارون بدون جهة ومكان، فهو يرانا بدون جهة ومكان وليس هناك ما يمنع عقلا من أن يعطينا نوعاً من الكشف حيث نراه لا فى جهة ولا فى مكان ولا فى مقابلة ولا باتصال شعاع.

(١،٢) رواه البخارى .

(٣) رواه النسائى.

(٤) سورة طه: الآية ٤٦.

ثانياً: إننا نعلم وجود الله سبحانه وتعالى بالأدلة النقلية والعقلية ويرتبط علمنا به ارتباطاً كاملا بقوله تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[1].

والعلم نوع من الكشف، ولا يقتضى هذا الكشف كونه تعالى جسما أو فى مكان أو كونه عرضاً، كذلك الرؤية نوع من الكشف لا يترتب عليها أى محال فى ذاته تعالى.

ثالثاً: إن العلة المشتركة للرؤية هى الوجود، والله سبحانه وتعالى موجود فيجوز أن يرى، فنحن نرى الجسم لا لكونه جسما وإلا لما رأينا غيره من الأعراض، ونرى العرض لا لكونه عرضاً فقط وإلا لما رأينا الأجسام ، ونرى القائم بالذات لا لكونه قائماً بالذات فقط لأننا نرى ما ليس بقائم بالذات.

وعلى هذا فهناك علة مشتركة حقيقية فى رؤية الأشياء وهى الوجود فنحن نرى الشئ لكونه موجودا؛ والله سبحانه وتعالى موجود فيجوز أن **يوصف بما توصف به الموجودات مع تنزهه عن الحدوث وعن كل نقص واتصافه بكل كمال يليق بذاته المقدسة.**

ونخلص من هذا إلى القول:بأن كل موجود تجوز رؤيته، والله موجود فتجوز رؤيته.

نص لأبى حامد *الغزالى* :

«إنا نقول : إن البارى سبحانه موجود وذات وله ثبوت وحقيقة، وإنما يخالف سائر الموجودات فى استحالة كونه حادثاً، أو موصوفاً بما يدل على الحدوث، أو موصوفاً بصفة تناقض صفات الإلهية من العلم والقدرة وغيرهما، فكل ما يصح لموجود فهو يصح فى حقه تعالى إن لم يدل على الحدوث ولم يناقض صفة من صفاته.

---

(١) سورة الشورى : الآية ١١.

والدليل عليه تعلق العلم به فإنه لما لم يؤد إلى تغير فى ذاته، ولا إلى مناقضة صفاته، ولا إلى الدلالة على الحدوث؛ سوى بينه وبين الأجسام والأعراض فى جواز تعلق العلم بذاته وصفاته، والرؤية نوع علم لا يوجب تعلقه بالمرئى تغير صفة ولا يدل على حدوث فوجب الحكم بها على كل موجود. فإن قيل: فكونه مرئياً يوجب كونه بجهة وكونه بجهة يوجب كونه عرضاً أو جوهراً وهو محال؛ ونظم القياس أنه إن كان مرئياً فهو بجهة من الرائى وهذا اللازم محال فالمفضى إلى الرؤية محال .

قلنا: أحد الأصلين من هذا القياس مسلم لكم وهو أن اللازم محال ولكن الأصل الأول وهو أدعاء هذا اللازم على اعتقاد الرؤية ممنوع. فنقول: لم قلتم إنه إن كان مرئيا فهو بجهة من الرائى أعلمتم ذلك بضرورة أم بنظر ولا سبيل إلى دعوى الضرورة ؟

وأما النظر فلا بد فى بيانه ، ومنتهاهم أنهم لم يروا إلى الآن شيئاً إلا وكان بجهة من الرائى مخصوصة؟

فيقال لهم: ما لم ير فلا يحكم باستحالته ولو جاز هذا لجاز للمجسم أن يقول: إنه تعالى جسم لأنه فاعل فإننا لم نر إلى الآن فاعلا إلا جسما أو يقول: إن كان فاعلا وموجوداً فهو إما داخل العالم وإما خارجه وإما متصل به وإما منفصل عنه . ولا تخلو عنه الجهات الست فإنه لم يعلم موجود إلا وهو كذلك، فلا فضل بينكم وبين هؤلاء.

وحاصله يرجع إلى الحكم بأن ما شوهد وعلم ينبغى أن لا يعلم غيره إلاعلى وفقه وهو كمن يعلم الجسم وينكر العرض. ويقول:لو كان موجوداً لكان يختص بحيز ويمنع غيره من الوجود بحيث هو كالجسم (١).

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٤٢.

نص آخر الغزالي:

« وتحصيله أن الرؤية تدل على معنى له محل وهو العين وله متعلق وهو اللون والقدر والجسم وسائر المرئيات.

فلننظر إلى حقيقة معناه ومحله وإلى متعلقه ولنتأمل أن الركن من جملتها فى إطلاق هذا الاسم ماهو؟

فنقول : أما المحل فليس بركن فى صحة هذه النسمية، فإن الحالة التى ندركها بالعين من المرئى لو أدركناها بالقلب، أو الجبهة مثلا لكنا نقول:قد رأينا الشئ وأبصرناه، وصدق كلا منا، فإن العين محل وآله لا تراد لعينها، بل لتحل فيه هذه الحالة، فحيث حلت الحالة تمت الحقيقة، وصح الاسم.

ولنا أن نقول: علمنا بقلبناأو بدماغنا؛ إن أدركنا الشئ بالقلب، أو بالدماغ إن أدركنا الشئ بالدماغ، وكذلك إن أبصرنا بالقلب أو بالجبهة أو بالعين.

وأما المتعلق بعينه فليس ركناً فى إطلاق هذا الاسم وثبوت هذه الحقيقة فإن الرؤية لو كانت رؤية لتعلقها بالسواد لما كان المتعلق بالبياض رؤية، ولو كانت لتعلقها باللون لما كان المتعلق بالحركة رؤية، ولو كان لتعلقها بالعرض لما كان المتعلق بالجسم رؤية، فدل أن خصوص صفات المتعلق ليس ركناً لوجود هذه الحقيقة وإطلاق هذا الاسم؛ بل الركن فيه من حيث إنه صفة متعلقة أن يكون لها متعلق موجود أى موجد كان، وأى ذات كان.

فإذاً الركن الذى الاسم مطلق عليه هو الامر الثالث، وهو حقيقة المعنى من غير التفات إى محله ومتعلقه.

فلنبحث عن الحقيقة ما هى؟ ولا حقيقة لها إلا أنها نوع إدراك هو كمال ومزيد كشف .. فإذا فهم المراد بما أطلقه أهل الحق من الرؤية علم أن دليل العقل لايحيله بل يوجبه وأن الشرع قد شهد له [١].

تحقق الرؤية للمؤمنين فى الآخر:

عرفنا مما سبق أن رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة بالدليل السمعى ويؤيد العقل هذا الجواز .

والسؤال المطروح الآن: هل يرى المؤمنون الله عز وجل فى الآخرة؟

يقول أهل السنة: نعم؛ لأنها من أكبر النعم ومن اسمى الأمانى التى يتطلع إليها الإنسان. والاخرة دار تحقق لما لم ينله الإنسان فى دنياه

وقد استدلوا على تحقق وقوع الرؤية فى الآخرة للمؤمنين بالقرآن الكريم والسنة والمطهرة.

أما القرآن الكريم: فقد أخبر سبحانه- وخبره صدق ووعده لا يتخلف - أن الوجوه الناضرة وهى وجوه المؤمنين سوف تراه يوم القيامة. يقول سبحانه :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[٢].

ويقول عز وجل :﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[٣]. ويقول جل وعلا:﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾[٤]. ويقول تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾[٥]. ويقول سبحانه عن الكافرين :﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[٦].

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٤٥.

(٢) سورة القيامة:الآيات ٢٢-٢٣.

(٣) سورة يونس : الآية ٢٦.

(٤) سورة الأحزاب: آية٤٤.

(٥) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٦) سورة المطففين: الآية١٥

وفى السنة المطهرة: عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذا نظر إلى القمر ليلة البدر وقال :«إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته»[١]. وعن أبى هريرة - ﷺ - أن الصحابة قالوا: يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ :«هل تضارون فى القمر ليلة البدر؟ قالوا : لا يارسول الله. قال فهل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله.

قال: فإنكم ترونه كذلك[٢]. أى هل يحصل لكم فى ذلك ما تقصر معه الرؤية ، ولا يعنى التشبيه فى قوله ﷺ: «فإنكم سترونه كذلك » أنه يشبهه تعالى بالقمر أو الشمس تعالى الله عن ذلك، وتنزه رسول الله عن أن يصف ربه بالتجسيم أو بما لا يليق بذاته المقدسة، وإنما يعنى تشبيه الرؤية بالرؤية أى أن المؤمنين تحصل لهم رؤية الله تعالى مثلما تحصل لهم رؤية القمر ليلة البدر أو الشمس ليس دونها سحاب .

وعن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهل الجنة نودوا ياأهل الجنة إن لكم عند ربكم موعداً لم تروه . قال: فيقولون : فما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه . قال : فو الله ما اعطاهم الله عز وجل شيئا هو أحب إليهم منه»[٣].

وعن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «وجنتان من فضة انيتهما، وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن يروا ربهم ،تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» [٤].

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى ومسلم

(٣) الاعتقاد للبيهقى ص ٤٨ ورواه مسلم.

(٤) رواه البخارى ومسلم.

هذا وقد رويت أحاديث الرؤية بالتواتر المأمون من الخطأ عن واحد وعشرين من الصحابة الأجلاء وهم: ابن مسعود، وابن عمر ، وابن عباس،وصهيب، وأنس بن مالك، وأبو موسى الأشعرى، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدرى ، وعمار بن ياسر، وجابر بن عبد الله ، ومعاذ بن جبل، وثوبان وعمار بن روبية الثقفى ، وحذيفة بن اليمان. وأبو بكر الصديق، وزيد بن ثابت، وجرير بن عبد الله البجلى، وأبو أمامة الباهلى، وبريدة الأسلمى، وأبو برزه وعبد الله بن الحارث - رضوان الله عليهم جميعاً.

ويذهب المعتزلة إلى استحالة وقوع الرؤية فى الآخرة؛ ولهذا فانهم يؤولون الآيات القرانية والتى تثبت ذلك كما أنهم يطعنون فى أحاديث الرؤية فيقولون: بأن متنها ضعيف كما يقومون بتجريح رواتها من جهة السند، ويقولون عموماً: بأن أحاديث الرؤية تتناقص مع العقل، وكان سندهم فى استحالة الرؤية فى الآخرة قوله تعالى:﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١).

تفصيل لأدلة أهل السنة فى وقوع الرؤية فى الآخرة:

أولا:يقول سبحانه وتعالى :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(٢).

فقد ورد النظر بمعنى الانتظار وبمعنى التفكير والاعتبار وبمعنى العطف والرأفة وبمعنى الرؤية.

فإن تعدى بنفسه كان بمعنى الانتظار. يقول سبحانه وتعالى :﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾(٣). أى انتظرونا ، ويقول تعالى :﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾(٤). أى ما ينتظرون. ويقول قراد بن أجدع:

(١) سورة الانعام: الآية ١٠٣.

(٢) سورة القيامة: الآيات ٢٢-٢٣.

(٣) سورة الحديد: الآية ١٣.

(٤) سورة يس: الآية٤٩.

فإن بك صدر هذا اليوم ولى ‏ ‏ ‏ ‏ فإن غداًلناظره قريب أى لمنتظره

وإن تعدى النظر بفى كان بمعنى التفكر والاعتبار. يقول سبحانه:﴿أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾[1].أي يتفكروا ويعتبروا وتقول: نظرت فى شئونى الماضية أى تفكرت واعتبرت.

وإن تعدى باللام كان بمعنى العطف والرأفة. تقول: نظر عميد الكلية لفلان أى عطف عليه وترأف به، ونظرت للفقير أى عطفت عليه.

أما أن تعدى النظر بالى كان معناه الرؤية ، يقول سبحانه :﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾[2]. ويقول جميل بن معمر :

إنى إليك لما وعدت لناظر ‏ ‏ ‏ ‏ نظر الذليل إلى العزيز القاهر

أى أنظر إليك وكلى ذل وانكسار حتى تقضى مطلبى.

ويقول الشاعر:

ويوم بذى قار رأيت وجوههم ‏ ‏ ‏ ‏ إلى الموت من وقع السيوف نواظر

أى أن وجوههم تنظر إلى الطعن والضرب والأبطال المتقاتلين فكأنها تنظر إلى الموت.

ومن هذا قوله تعالى:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فقد وصف تعالى وجوه المؤمنين التى فيها العيون بالنضارة والتهلل والفرج لانها تطالع ذاته العلية، وتستمتع برؤيتة تعالى .

روى ابن مردويه بسنده إلى عمرو قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى :﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال من البهاء والحسن ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. قال: فى وجه الله عز وجل . وعن الحسن قال: نظرت إلى ربها فنضرت بنوره. وقال أبو صالح عن ابن عباس:﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. قال: تنظر إلى

(١) سورة الاعراف : الآية ٨٥.

(٢) سورة أنعام : الآية ٩٩.

وجه ربها عزوجل ، قال عكرمة: قال:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ من النعيم ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال: تنظر إلى ربها نظراً. ثم حكى عن ابن عباس مثله، وهذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث عليها.

وعلى هذا فإن النظر المعدى بإلى لا يكون إلا بمعنى الرؤية ، وتقويه القرائن ،والآية الكريمة تعدى فيها النظر بإلى ووجدت القرائن المقوية وهى العيون التى فى الوجوه والموصوفة بالنضارة يوم القيامة، وكل هذا لا يفيد سوى النظر الحقيقى، ويعنى هذا وقوع رؤية الله للمؤمنين رؤية حقيقة فى الآخرة.

اعتراضات للمعتزلة والرد عليها:

(أ) وقد اعترض المعتزلة على أهل السنة قائلين:

إن «إلى» فى قوله تعالى:﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ليست حرف جر بل هى اسم مفرد واحد الآلاء أى النعم، وعلى هذا فمعنى الآية الكريمة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ نعمة ربها ناظرة أى منتظره.

وقد أيدوا كلامهم هذا بقول الأعشى

أبيض لا يرهب النزال ولا   يقطع رحماً ولا يخون إلى

أى سيف لا يخاف الحرب ولا يتسبب فى قطع الرحم ولا يخون النعم.

ويرد على اعتراضهم هذا:

أن الجنة دار وقوع النعم لا دار الانتظار فالمنتظر يكون معدوماً ولا يكون هذا إلا فى الدنيا أما فى الآخرة فلا انتظار لأن الموعود به وهو النعم محقق، ومن أسمى النعم رؤية الله سبحانه.

كذلك فإن المؤمنين مصونون فى الجنة عما يوجب اعتراء وحشة أو غم أو ضيق والانتظار يسبب هذه الأمور، فلقد وعدوا بالرؤية والوعد

محقق بلا انتظار، ولهذا وصفوا بنضارة الوجوه، كما أن الآية صريحة ولا ضرورة تدعو لهذا التأويل .

يقول شارح المواقف:«إن انتظار النعمة غم ومن ثم قيل : الانتظار موت أحمر فلا يصح الأخبار به بشاره مع أن الآية وردت مبشرة للمؤمنين بالإنعام والإكرام وحسن الحال وفراغ البال، وذلك فى رؤيته تعالى، فإنها أجل النعم والكرامات، والمستتبعة لنضارة الوجوه لا فى الانتظار المؤدى إلى عبوسه» (١).

(ب) ومن الاعتراضات قولهم : إن النظر المعدى بإلى قد يأتى بمعنى الانتظار .

يقول الشاعر:

وشعث ينظرون إلى بلال ... كما نظر الظماء حيا الغمام

ويقول آخر:

وجوه يوم بدر ناظرات ... إلـــى الرحمن يأتى بالخلاص

ومعنى البيت الأول:أن المؤمنين المغبرة رؤوسهم ينتظرون بلالا فى لهفة كما ينتظر العطشى سقوط المطر .

ومعنى البيت الثانى: أن وجوه المؤمنين فى معركة بدر تنتظر إتيان الرحمن بالنصر .

وعلى هذا فإن إلى حرف جر إلا أن النظر المعدى بها معناه الانتظار وليس الرؤية.

ويجاب على اعتراضهم هـذا: إن نـظر الانتظار لايكـون بالوجه بل القلـب، أمـا إذا كان النظر بالوجه فـلا يفيـد إلا الرؤية وبناء على هــذا

(١) شرح المواقف جـ ٣ ص ١٠٧.

«لا نسلم أن النظر فيما ذكر للانتظار، ففى الأول يرون بلالا كما يرى الظماء ماء يطلبونه ويشتاقون إليه ...... وفى الثانى:أى ناظرات إلى جهة الله وهى العلو فى العرف ولذلك ترفع إليه الأيدى فى الدعاء، أو ناظرات إلى آثاره أى آثار الله من الضرب والطعن الصادرين من الملائكة التى أرسلها الله تعالى لنصرة المؤمنين يوم بدر»(١).

ولو سلمنا جدلا أن النظر المعدى بإلى يفيد الانتظار فإن القرائن هى التى تحدد المراد وفى الآية الكريمة:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾نجد القرائن هى الوجوه التى بها العيون يوم القيامة تنظر، ولا يمكن حمل المعنى مع هذه القرائن إلا على النظر الحقيقى.

(جـ) ومن الاعتراضات أيضاً أنهم يقولون : نسلم لكم أن النظر المعدى بإلى فى الآية الكريمة يفيد الرؤية الحقيقية، إلا أن هناك حذفاً فهو سبحانه ذكر نفسه فى الآية الكريمة وأراد غيره ومعنى الآية ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ إلى ثواب ربها ناظرة.

ويؤكدون كلامهم هذا بقوله تعالى :﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾(٢). وبقوله تعالى ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾(٣). ففى الآيتين حذف والمراد واسأل أهل القرية وإنى ذاهب إلى حيث أمرنى ربى.

ويرد عليهم : أن النظر مضاف إلى الله تعالى ولا يجوز حمله على غير ذلك ولو جاز الجاز أن نقول فى قوله تعالى :﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾(٤). أى غيره وهذا كفر صريح، وأن نقول فى قوله:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٥). أنه ذكر نفسه وأراد غيره وفى هذا قمة الشرك.

(١) شرح المواقف جـ ٣ ص ١٠٧.

(٢) سورة يوسف : الآية ٨٢.

(٣) سورة الصافات : الاية ٩٩.

(٤) سورة البقرة : الآية ٢١.

(٥) سورة الشعراء : الآية ١٥٠.

وحقيقة الأمر : «أن إضمار المضاف وإقامة المضاف اليه مقام المضاف أنما يجوز عند تعين المضاف فى نفسه بدليل من الدلائل فتحصل فائدة الكلام والافهام كما فى قوله تعالى :﴿ واسال القرية التى كنا فيها ﴾ أى أهل القرية لأن السؤال للجواب ولا جواب ينتظر من الأبنية والحيطان وشئ من الجمادات، فعلم أن المراد منه من ينتظر منه الجواب وقد اختص بذلك الأهل، فأما عند انعدام دليل تعين بعض ما يضاف فلا يجوز الإضمار لانعدام الفائدة»(١).

ثانياً: ومن أدلة أهل السنة أيضاً على وقوع الرؤية فى الآخرة قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾(٢).فقد روى أن ﷺ فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله العظيم، وكان على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم وما يؤكد تفسير الزيادة بأنها رؤية الله تعالى فى الآخرة، قوله تعاله فى شأن الكفار ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾(٣). فهم يوم القيامة نتيجة لكفرهم بالله وإعراضهم عن اتباع رسله يحرمون لذة رؤيته تعالى ، أما المؤمنون فيجازون بأطيب النعم وهى رؤيته تعالى ويؤكد أيضاً معنى الزيادة بأنها الرؤية مارواه صهيب قال: قال ﷺ:«إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا يا أهل الجنة إن لكم عند ربكم موعداً لم تروه. قال: فيقولون: فما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه قال: فو الله ما أعطاهم الله عز وجل شيئاً هو أحب إليهم منه» (٤). قال : ثم قرأ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

---

(١) تبصرة الأدلة لأبى المعين النسفى تحقيق د. محمد الأنور ص ٤٣٧.

(٢) سورة يونس : الآية ٢٦.

(٣) سورة المطففين : الآية ١٥.

(٤) الاعتقاد للبيهقى ص ٤٨ وفى لفظ آخر رواه مسلم .

ومما يؤيد القول بوقوع الرؤية فى الآخرة قوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾(١). فإن اللقاء إذا صاحبته التحية وكان يوم القيامة اقتضى الرؤية الحقيقية.

وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم أن الله يرى فى الآخرة ويراه المؤمنون فى الجنة وإذا كان قد حصل خلاف بين بعض الصحابة فى رؤية الله فقد تركز هذا الخلاف فى رؤيته فى الدنيا وهل رآه الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج أم لم يراه؟ فقال بعضهم . رآه بعينى رأسه وقال بعضهم رآه بقلبه . وقال بعضهم : لم يره وإنما رأى جبريل على صورته الحقيقية .

ويؤيد وقوع الرؤية فى الآخرة للمؤمنين قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾(٢) فقد فسرت الزيادة أيضاً بأنها إنعام الله على المؤمنين فى الجنة بتحقق رؤيته لهم. قال الطبرى: قال على بن أبى طالب وأنس ابن مالك :النظر إلى وجه الله عز وجل.

المعتزلة ورؤية الله سبحانه وتعالى

يقول المعتزلة: إن رؤية الله سبحانه وتعالى مستحيلة فى الدنيا والآخرة ولقد سبق أن عرضنا بعض الشبه أو الاعتراضات التى وجهوها لأهل السنة وكيف كان الرد عليهم .

ولهم على قولهم باستحالة الرؤية فى الدنيا والآخرة أدلة نقلية وعقلية:

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ٤٤.

(٢) سورة ق الآية: ٣٥.

الادلة النقلية على استحالة الرؤية عند المعتزلة والرد عليها:

أولا :يقول سبحانه وتعالى :﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(١). يقولون:إن الإدراك هو نفس الرؤية، ونفى الإدراك فى الآية يستلزم نفى الرؤية .

كذلك فإن الأبصار جمع معرف بأل وما كان كذلك أفاد الاستغراق والعموم، ولا توجد قرينة تقصره على معهود خاص وعلى هذا فإن أحداً من البشر لن يراه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وأيضا فإن قوله تعالى:﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ مدح توسط بين مدحين حيث سبق بقوله تعالى :﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(٢). وجاء بعده قوله ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ والعرب يستهجنون ذكر ما ليس بمدح بين مدحين كما يقال: فلان أكرم الناس ويأكل الخبز وأفضل الناس مثل هذا مستهجن، فيلزم لفصاحة اللغة وسلامتها أن يكون المتوسط بين المدحين مدحا والمتوسط هنا قوله تعالى:﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ وإذا كان نفى إدراك الأبصار له تعالى مدحا كان ثبوت الإدراك نقصا والنقص على الله تعالى محال.

الرد عليهم :

ويرد على هذا أن الرؤية والإدراك غير ان، فالرؤية انكشاف خاص أما الإدراك فهو إحاطة كاملة بالمدرك وعلى هذا فالمنفى هو الإدراك الذى يستلزم الإحاطة الكاملة بالشئ وهو لا يكون إلا فى الأجسام ولا أحد من أهل السنة يقول به وليس يلزم من نفى الإدراك نفى الرؤية .

---

(١) سورة الانعام : الآية ١٠٣.

(٢) سورة الانعام : الآية ١٠٢.

وإذا حملنا الكلام على أن الإدراك هو الرؤية فإن النفى فى الآية الكريمة يراد به عدم الرؤية فى الدنيا لأن القرآن الكريم لا يناقض بعضه بعضاً، فلما ذكرت هذه الآية وكانت مطلقة ووجدت آيات أخرى تفيد وقوع الرؤية فى الآخرة مثل قوله تعالى ::﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[١]. قصر الأمر على معهود خاص وهو نفى الرؤية فى الدنيا وإثباتها فى الآخرة، أو نفيها عن الكفار وإثباتها للمؤمنين.

ومعنى هذا أنه ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فى الدنيا وتدركه فى الآخرة، أو لاتدركه أبصار الكافرين وتدركه أبصار المؤمنين وكل ذلك فى الآخرة إذا اعتبرنا الإدراك هو الرؤية .

وهناك رأى لأبى الحسن الأشعرى يقول فيه: إن المنفى هو إدراك الأبصار ولايعنى هذا نفى إدراك المبصرين.

ويقول أبو بكر الباقلانى:«أنه تعالى قال:«لاتدركه الأبصار ولم يقل: لاتراه الأبصار والإدراك معنى بزيد على الرؤية لأن الإدراك هو الإحاطة بالشى من جميع الجهات والله تعالى لا يوصف بالجهات ولا أنه فى جهة فجاز أن يرى وإن لم يدرك»[٢]. ويقول ملا على قارى : «لا يلزم من الرؤية الإدراك والإحاطة فلا ينافى قوله تعالى :﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فإن الإدراك هو الإحاطة بالشئ وهو قدر زائد على الرؤية كما قال الله تعالى﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ﴾[٣]. فلم ينف موسى الرؤية وإنما نفى الإدراك فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحيط به علم »[٤].

---

(١) سورة القيامة الايات :٢٢-٢٣.

(٢) الانصاف ص ١٨٣.

(٣) سورة الشعراء : الآية : ٦١،٦٢.

(٤) شرح الفقه الأكبر ص ٧٦.

وإذا كـان الإدراك غـيــر الرؤية فـإن المدح فى الآية الكريمة نفى الإحاطة بذاته العليه لأنه لا يحاط إلا بما له حدود ونهايات وهذه من سمات النقص المنزه عنها سبحانه وتعالى .

كـذلك فـإن الآية الكريمة ﴿لا تدركـة الأبصـار﴾ لا تفـيد بأنه تعـالى ممدوح لكونه لا يرى لأن المعـدومـات مـشـتـركـة فى عـدم الرؤية وليـست بممدوحة وإنما تفيد أنه سبحانه جائز الرؤية إلا أنه بقدرته وعظمتـه خلق فينا ما يمنعنا من رؤيته فى الدنيا . يقول الباقلانى :«تمدح سبحانه بأن كل راء يجـوز أن يرى لكنه تعـالى مع جـواز أن يرى منعنا من الإدراك له بأن يحدث فى أبصارنا مانعاً يمنعنا من رؤيته فالمدح وقع لكونه قادراً على ذلك دون غيره من الخلق»[١].

نص *الغزالى*

«لاتدركه الأبصـار أى لا تحيط به ولا تكتنفه من جوانبه كما تحيط الرؤية بالأجسام وذلك حق، أو هو عام فـأريد به فى الدنيا وذلك أيضـاً حق وهو ما أراده بقوله سبحانه :﴿لن ترانى﴾ أى فى الدنيا»[٢].

ثانيا:إن الله سـبـحـانه وتعـالى اسـتنكر سـؤال الرؤية وسـمـاه ظلمـاً وعتواً ورتب عليه الأخذ بالصاعقة. يقول تعالى :﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾[٣].فـحـينمـا طلب قـوم موسى منه أن يريهم الله تعالى وصفهم سبحانه بالظلم وتوعدهم بالأخذ بالصاعقة.

ويقول تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[٤]. فحينما علقوا إيمانهم على رؤية الله كان جزاؤهم الأخذ بالصاعقة.

---

(١) الإنصاف ص ١٨٣.

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٤٨.

(٣) سورة النساء الآية :١٥٣

(٤) سورة البقرة الآية :٥٥

ويقول تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾(١).

فقد ذمهم الله ووصفهم بالاستكبار والطغيان الشديد وإذا كان طلب الرؤية قد ترتب عليه الوصف بالاستكبار والظلم يكون الطلب غير جائز وتكون الرؤية مستحيلة.

الرد عليهم:

ويرد على كلامهم هذا أن الاستنكار والوصف بالظلم والأخذ بالصاعقة لم يكن لطلبهم الرؤية على الوجه الذى يقول به أهل السنة وهو نوع من الانكشاف يمنحه الله لمن يشاء، وإنما لأنهم يطلبون الرؤية تعنتاً واستكباراً، وعلى الوجه الذى يرون به الأشياء المجسمة المحدودة فى الدنيا والمحصورة بالمكان، فهم لم يعرفوا للرؤية إلا المعنى المعهود عندهم من المقابلة ووجود المرئى فى مكان واتصال الشعاع أو انعكاس المرئى على العين، والذى يؤكد استكبارهم وظلمهم أنهم رأوا آيات كثيرة لموسى ﷺ ولم يؤمنوا به وعلى هذا «فإن الاستعظام لأجل طلبهم الرؤية تعنتاً وعناداً لأنهم طلبوا الرؤية فى الدنيا قبل أن يخلق الله تعالى فى أبصارهم ماتقوى به على رؤيته تعالى فإن الاستعظام وترتب الوعيد والذم على ذلك لاعلى طلب الرؤية»(٢).

ثالثاً: ومن الأدلة على استحالة الرؤية عند المعتزلة أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾(٣). فقد حصر كلامه تعالى لأنبيائه فى هذه الصور

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٢١.

(٢) شرح مطالع الأنظار لشمس الدين الأصبهانى ص ١٨٩.

(٣) سورة الشورى آية: ٥١.

الثلاث وليس فيها رؤية، وإذا لم يره من يكلمه فى وقت الكلام لم يره فى غير وقت الكلام فتكون الرؤية مستحيلة.

الرد عليهم:

ويرد عليهم «أن التكليم وحى قد يكون حالة الرؤية فإن الوحى كلام يسمع بسرعة وماذا فيه من الدليل على نفى الرؤية»[1]. ويمكن أن يقال: إن حصر التكليم بدون الرؤية يكون فى الدنيا لأن القرآن الكريم لايتعارض مع بعضه حيث نص صراحة على أن الوجوه الناضرة سوف تراه فى الآخرة.

الأدلة العقلية على استحالة الرؤية عند المعتزلة والرد عليها:

أولا: يقولون : إن للرؤية فى الشاهد شروطاً ثمانية إذا تحققت وجبت الرؤية، وهذه الشروط هى:

١) أن تكون حاسة الإبصار سليمة من أى آفة.

٢) أن يكون الشئ جائز الرؤية.

٣) أن تتحقق المقابلة بين الرائى والمرئى مع عدم النوم والغفلة.

٤) كون الشئ الجائز الرؤية حاضراً.

٥) أن لايكون المرئى بعيداً جداً عن حاسة الرؤية.

٦) أن لايكون فى غاية القرب بحيث يلتصق بالعين.

٧) أن لايكون فى غاية اللطافة.

٨) أن لايكون بين الرائى والمرئى حجاب يمنع من الرؤية.

وعلى هذا فالمبصرون يرون الأشياء وجوباً فى الدنيا إذا تحققت هذه الشروط. والقول بغير هذا يرفضه العقل.

---

(١) شرح المواقف جـ ٣ ص ١١٦.

أما فى الغائب فتتحقق الرؤية وجوباً إذا كانت حاسة الإبصار سليمة وكانت الرؤية جائزة.

وعلى قولكم بجواز رؤية الله سبحانه وتعالى فإننا نقول: إنه يجب أن يراه كل البصراء منا ومنكم ولكننا مع سلامة البصر وأنتم أيضاً لاترونه وهذا يدل على استحالتها لأنها لو كانت جائزة لتحققت رؤيته وجوباً لكل سليم الحاسة.

الرد عليهم:

ويرد عليهم أن رؤيته تعالى قد تتوقف على شرط آخر لم يتحقق فى الدنيا وسيخلقه الله سبحانه وتعالى لنا فى الآخرة فلا يلزم من سلامة الإبصار وجواز الرؤية تحققها فى الدنيا وقياسكم الغائب على الشاهد قياس باطل؛ لأن الشاهد يرى لكونه جوهراً أو عرضاً أو فى مكان أو فى مقابلة ولا تتوقف رؤيته تعالى على مثل هذه الأشياء؛ لأنها نقص والنقص عليه محال وإنما تتحقق بشروط أخرى يخلقها الله فبنا فى الآخرة - يقول شمس الدين الأصبهانى: «إنه لم تكن الرؤية واجبة عند تحقق هذه الشروط فإن الرؤية بخلق الله تعالى والشروط الثمانية معدات ولاتجب الرؤية عند وجود معداتها[1].

ونقول أيضاً: إنه سبحانه وتعالى لم يشأ أن يرينا نفسه الآن ولهذا خلق فينا المانع من الرؤية ولو شاء لرأيناه.

ثانياً: ويقولون: إنه سبحانه وتعالى لو كان مرئياً لكان فى مقابلة الرائى، ولو كان فى مقابلة الرائى لكان متحيزاً، والتحيز من أمارات الحدوث، والله تعالى منزه عن الحدوث لأن الحدوث نقص والنقص عليه محال فما أدى إليه وهو كونه مرئياً باطل وإذا بطل كونه تعالى مرئياً ثبت نقيضه وهو استحالة الرؤية.

---

(١) شرح مطالع الأنظار ص ١٨٩.

الرد عليهم:

ويرد عليهم أن الرؤية نوع من الكشف يمنحه الله لمن يشاء فنحن نعلم الله تعالى ولايقتضى علمنا به أن يكون تعالى في جهة من الجهات وفى مكان من الأمكنة، كذلك نراه دون مقابلة.

وإذا كانت المقابلة لازمة فى الشاهد لأن الشاهد جسم أو عرض فلا يلزم فى الغائب مايلزم فى الشاهد والله يرانا دون أن نكون فى مقابلة منه فليس هناك مانع أن يعطينا القدرة على رؤيته دون مقابلة كما أعطى ذلك لرسوله محمد ﷺ حيث رأى المصلين وهم خلفه ولم يكن فى مقابلتهم ببصره.

ثالثاً: يقولون: إن الرؤية لاتتحقق إلا باتصال شعاع العين بالمرئى أو انطباع صورة المرئى فى العين وهذا الاتصال أو الانطباع لايتحقق إلا إذا كان المرئى جسما أو حالا فى الجسم والله سبحانه منزه عن الجسمية والعرضية فتستحيل رؤيته.

الرد عليهم:

ويرد عليهم بأن اشتراط اتصال الشعاع أو الانطباع لايكون إلا فى الشاهد لكونه جسما أو عرضاً أما الغائب وهو الله تعالى فلايجوز فى حقه هذه الشروط وإنما الجائز لكون قدرته عامة وشاملة أن يخلق فينا شروطاً أخرى أو قدرة على رؤيته دون الانطباع أو اتصال الشعاع.

(٩) الآيات المتشابهات

يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾(١).

من الآية الكريمة نعلم أن القرآن الكريم يشتمل على آيات محكمات أى لاتحتمل التأويل وهى واضحة الدلالة، وآيات متشابهات تحتمل تأويلات كثيرة وليست واضحة الدلالة.

ولقد وقف الفكر الإسلامى من الآيات المتشابهة مواقف متعددة نذكر موقفين منها بإيجاز شديد:

أولاً: موقف سلف الأمة وهم أولئك الأطهار الذين حملوا راية الدعوة الإسلامية منذ البداية وانطلقوا بها فى جميع الاتجاهات.

هؤلاء السلف تلقوا الآيات المتشابهة بالإيمان الكامل، والتسليم المطلق، والاعتقاد بصحتها كما هى ولم يشغلوا أنفسهم بالبحث عن معنى لها إيماناً منهم بأنها من الآيات التى لايعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى إلا أنهم فى نفس الوقت نزهوا الله عز وجل عن أى مشابهة بالمخلوقات، وعن كل أمارات الحدوث.

وقد سئل مالك بن أنس إمام أهل المدينة عن معنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(٢). فقال ﷺ: «الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة».

ولقد كان منطلقهم فى ذلك قوله تعالى: (ومايعلم تأويله إلا الله)، فهو سبحانه اختص ذاته العلية بمعرفة المراد من الآيات المتشابهة، وما على

(١) سورة آل عمران آية: ٧.

(٢) سورة طه آية: ٥.

المؤمنين العالمين إلا التسليم. يقول تعالى: ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب ﴾، واعتمدوا فى تسليمهم أيضاً علم المراد بالآيات المتشابهة لله على حديث رسول الله ﷺ القائل: «كان الكتاب الأول أنزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف، زاجر وآمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه، واعملوا بمحكمة وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب»[١].

وقد سئل محمد بن الحسن تلميذ أبى حنيفة عن الآيات والأخبار التى فيها من صفات الله تعالى مايؤدى ظاهره إلى التشبيه فقال: ﴿ نمررها كما جاءت ونؤمن بها ولانقول كيف وكيف ﴾[٢].

ثانياً: موقف الخلف وهم أولئك الذين أتوا بعد الصحابة والتابعين، وقد رأى هؤلاء أن اللغة العربية ثرية بالمعانى حيث يحمل اللفظ الواحد أكثر من معنى كما أن بها الاستعارة والكناية والتشبيه، وغير ذلك من ضروب البلاغة، ولهذا اشتغلوا «بصرف هذه الآيات والأخبار إلى مايحتمل من الوجوه التى لاتناقض دلائل التوحيد والآيات المحكمة، ثم ماكان من ذلك لايحتمل سوى الظاهر... قطعوا على كونه مراد الله، ومايحتمل من ذلك من تأويلات كثيرة يلائم كل واحد منها مايثبت من الدلائل لم يقطعوا على واحد منها بكونه مراداً لانعدام دليل يوجب تعين ذلك. فامتنعوا عن الشهادة على الله تعالى عند انعدام الدليل الموجب للعلم، وقالوا: نعلم أن المراد بعض تلك الوجوه لا الظاهر، فقالوا: إن اليد تذكر ويراد بها القوة والقدرة والسلطنة والحجة والغلبة والعز والغنى والكف، والجارحة، فيضاف إلى الله تعالى مالايناقض التوحيد... والعين تذكر، ويراد بها الحفظ والرعاية والرؤية والجارحة فتحمل على مالايناقض التوحيد... والجنب يذكر، ويراد به الجارحة والحذاء والجوار، والأمر والطاعة، فيحمل على مايليق بصفات الله

---

(١) رواه الحاكم والطبراني.

تعالى، ولا يناقض التوحيد ... والاستواء يذكر، ويراد به الاستقرار كقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾[١]. ويذكر ويراد به التمام كقوله تعالى:﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[٢].

ويذكر ويراد الاستيلاء كقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق — من غير سيف أودم مهراق

ويذكر ويراد به الارتفاع والعلو. كقوله تعالى ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾[٣]. والعلو يراد به علو من حيث المكان، وعلو من حيث الرتبة والمنزلة[٤].

ونلخص هذا فنقول: إن موقف السلف هو التسليم المطلق وعدم الاشتغال بالتأويل مع تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل مالايليق ذاته المقدسة، أما موقف الخلف فإنهم ينظرون فى الآية المتشابهة، فإن كانت لاتحتمل إلا معنى واحداً قطعوا بأنه مراد الله، وإن احتملت تأويلات عدة أخذوا بما لايتناقض مع دلائل التوحيد من المعانى، وقالوا: نعلم أن المراد بعض تلك الوجوه لا الظاهر ولايقطعون على مراد الله تعالى لانعدام الدليل.

أمثلة من الآيات والأحاديث المتشابهة:

١) يقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[٥]. أى أنه سبحانه وتعالى متول ومالك لكل شئ، ومتمم لكل مافى الوجود ومهيمن عليه.

---

(١) سورة هود الآية: ٤٤.

(٢) سورة القصص الآية: ١٤.

(٣) سورة المؤمنون آية: ٢٨.

(٤) تبصرة الأدلة ص ٥٣٠ تحقيق د/ محمد الأنور.

(٥) سورة طه الآية: ٥.

وقد ذكر العرش – وهو من أعظم المخلوقات – تشريفاً وتعظيماً له كما يقال في قوله تعالى: ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾[١]، ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾[٢]، ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾[٣]، من باب تكريم هذه الأشياء وتعظيمها.

٢) يقول الله تعالى: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[٤]، ويقول تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[٥]، ويقول تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٦]، أي قوة الله، وقدرته وعظيم سلطانه، وقهره لكل مافي الوجود.

ويقول ﷺ: ﴿إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها﴾[٧]، أي أن رحمته مستمرة بخلقه وأنه لايرد تائباً.

ويقول عليه الصلاة والسلام: ﴿إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن﴾[٨]، كناية عن قدرته وعظمته وتمام هيمنته على كل مافي الكون، وخاصة الإنسان.

٣) ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[٩]، ويقول: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[١٠]، ويقول: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[١١]، والمراد الانكشاف التام والحفظ والرعاية والعناية.

٤) ويقول تعالى: ﴿ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾[١٢]، أي في أمره ومحبته وطاعته ودينه.

---

(١) سورة الشمس الآية: ١٣.
(٢) سورة الجن الآية: ١٨.
(٣) سورة التوبة الآية: ١٨.
(٤) سورة الفتح الآية: ١٠.
(٥) سورة ص الآية: ٧٥.
(٦) سورة يس الآية: ٨٣.
(٧) (٨) رواه مسلم
(٩) سورة هود الآية ٣٧.
(١٠) سورة القمر الآية ١٤.
(١١) سورة طه الآية: ٣٩
(١٢) سورة الزمر الآية: ٥٦.

- ٥) ويقول تعالى: ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[١]، أى بقدرته وجبروته. ويقول: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[٢]، أى خالق النور ومنور الكون. ويقول: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٣]، أى أمر ربك.

٦) ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾[٤]، ويقول: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾[٥]، ويقول: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾[٦]، أى بألوهيته المعبودة لكل فرد لا بذاته فهو سبحانه منزه عن المكان.

٧) ويقول: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾[٧]،

أى يعلم ذلك علماً كاشفاً وكونه معهم بالعلم والقدرة لابذاته.

٨) ويقول: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[٨]، أى بالسلطان والقدرة. ويقول: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾[٩]، فقد جعل سبحانه ديوان أفعال العباد فى السماء والحفظة من الملائكة فيها فيكون مارفع هناك كأنه رفع إليه سبحانه لأنه بأمره.

ويقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[١٠]، والمراد بالعندية رفعة المنزلة لا المكان.

٩) ويقول: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[١١]، ويقول: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[١٢]، والمقصود أن كل من فى الكون فان إلا ذاته

---

(١) سورة الزمر الآية: ٦٧
(٢) سورة النور الآية: ٣٥
(٣) سورة الفجر الآية: ٢٢.
(٤) سورة الزخرف الآية: ٨٤.
(٥) سورة الأنعام الآية: ٢.
(٦) سورة الملك الآية: ١٦
(٧) سورة المجادلة الآية :٧.
(٨) سورة ق الآية: ١٦.
(٩) سورة فاطر: الآية ١٠.
(١٠) سورة الأعراف: ٢٠٦.
(١١) سورة الرحمن الآية: ٢٧.
(١٢) سورة القصص الآية: ٨٨.

العلية لاتصافه بالأزلية والأبدية. وفى حديث قدسى:«أنا جليس من ذكرنى» أى أحبه وأثيبه وأعينه فى دنياه وآخرته.

١٠) ويقول ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته»[١]. ويرى فى معنى هذا الحديث أنه ﷺ رأى رجلا يضرب آخر على وجهه فنهاه عن ذلك قائلاً:«إن الله تعالى خلق آدم على صورته». أى على صورة المضروب فالهاء فى صورته ترجع إلى المضروب، ويمكن أن ترجع الهاء إلى آدم أى أن صورة آدم فى الجنة هى نفسها على الأرض لم تتغير. وإذا كانت الهاء راجعة إلى الله سبحانه أى خلق آدم على صورة الله يكون المقصود تشريف آدم وتكريمه، ورفع شأنه لا أنه يشبه الله سبحانه فهو سبحانه منزه عن التشبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير ﴾[٢].

(١) مسلم فى صحيحه كتاب البر باب النهى عن ضرب الوجهه جـ ٤ ص ٢٠١٧

(٢) سورة الشوره أيه رقم ١١

(١٠) القضاء والقدر

تعريف القضاء لغة:

القرآن الكريم هو المصدر الأساسى للغة العربية ولهذا يلزمنا الرجوع إليه لنتعرف على مادة – قضى – التى أخذ منها القضاء.

(أ) ذكرت مادة «قضى» بمعنى الحكم يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١] مماقضيت أى مما حكمت. وعلى هذا نقول: قضاء الله أى حكم الله الأزلى.

(ب) وذكرت بمعنى الأمر قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٢] أى أمر ربك ألا تكون العبادة إلا له وعلى هذا فالقضاء يعنى أمر الله الأزلى.

(جـ) و ذكرت بمعنى الإخبار و الإعلام ، يقول سبحانه : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾[٣] أى أعلمناهم وأخبرناهم .

(د) و ذكرت بمعنى الإرادة. يقول تعالى :﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٤] أى إذا أراد أمراً، وعلى هذا فالقضاء يعنى إرادة الله الأزلية.

(هـ) وذكرت بمعنى الإيجاد والخلق على وجه الإحكام والإتقان.

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥.

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٣.

(٣) سورة الإسراء الآية ٤.

(٤) سورة آل عمران الآية ٤٧.

يقـول تعـالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَـــــاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾(١) أي خلقـهن وأوجـدهن على وجـه الإحكام والإتقـان وعلى هذا فالقضاء يعنى الخلق والإيجاد والإحكام.

تعريف القدر لغة:

(أ) وذكـرت مـادة – قـدر – فى القرآن بمعنى التـحديد والتـرتيب. يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾(٢) ومعنى هذا تحديد الله وترتيبه وتقسيمه للأشياء أزلاً وفق علمه السابق.

(ب) وذكـرت مـادة «قـدر» بمعنى الكتـابة في اللـوح المحفـوظ. يقـول تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾(٣) ومـعنى هذا كـتـابة الله الموت على الخلائق فى اللوح أزلاً وفق علمه السابق.

اما فى الإصطلاح:

فإننا نميل إلى التعريف الذى تقول به الماتريدية إن القضاء هو خلق الله سبحانه وتعالى وإيجاده للأشياء على وجه الإحكام والإتقان.

وأن القدر هو التحديد والترتيب والعلم الأزلى السابق بما تكون عليه الاشياء فيما لا يزال (٤).

وهـذا التـعـريف يتطـابق كليـة مـع بعض التـعـريفـات اللغـويـة ويقول الفلاسفة إن القضاء عبارة عن علمه تعالى بما ينبغى أن يكون عليه الوجود حتى يكون على أحسن النظام وأكمل الانتظام وهو المسمى عندهم بالعناية التى هى مبدأ لفيضان الموجودات من حيث جعلها على احسن الوجوه واكملها.

---

(١) سورة فصلت الآية ١٢.

(٢) سورة فصلت الآية ١٠.

(٣) سورة الواقعة الآية ٦٠.

(٤) نظم الفرائد لشيخ زاده ص٢١.

والقدر عبارة عن خروج الموجودات إلى الوجود العينى - أي المنظور والواقع والمشاهد - بأسبابها على الوجه الذى تقرر فى القضاء[١].

وبتعبير آخر خروج المخلوقات إلى الوجود على وفق العلم السابق ويكون خروج كل مخلوق مقترنًا بسببه.

أما الاشاعرة فأنهم يقولون إن قضاء الله معناه ارادته الأزلية المتعلقة بالأشياء خيرها وشرها على ما هى عليه فيما لا يزال.

والقدر إيجاد الله تعالى لجميع الاشياء على قدر مخصوص وتقدير معين فى ذواتها واحوالها طبقاً للإرادة [٢].

وبعد هذا نقول إن تعريف القضاء عند الماتريدية يرجع إلى صفات الافعال[٣] فيكون حادثاً عند الاشاعرة لقولهم بحدوث صفات الافعال مثل

---

(١) شرح المواقف للسيد الشريف - الالهيات ص٢٩٦ تحقيق د/ محمد المهدى.

(٢) القول السديد ص١٣٦، وانظر شرح المواقف نفس الموضع السابق.

(٣) يذهب الماتريدية إلى القول بقدم صفات الذات مثل القدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والحياة والكلام.

وكذا قدم صفات الفعل مثل: الخلق والإيجاد والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع والتكوين.

أما الأشاعرة فيقولون بقدم صفات الذات وحدوث صفات الفعل.

وقيل فى الفرق بين صفات الذات وصفات الفعل «أن ما يثبت ولا يجوز نفيه فهو صفات الذات فإنه يقال يعلم كذا ولا يقال لا يعلم كذا، وكذا يقال يقدر على كذا ولا يقال لا يقدر على كذا.....

ثم يقال أنه تعالى خلق لزيد ولداً ولم يخلق لعمرو، ورزق عبدالله مالاً ولم يرزق خالداً. فدل أن الفرق هو هذا.......

وربما يقولون ما يوصف به ولا يوصف بضده فهو من صفات الذات فإنه يوصف بالحياة ولا يوصف بالموت وكذا فى القدرة والعجز والعلم والجهل... ويوصف بالإحياء والإماتة والتحريك والتسكين......... .

ومتكلموا أهل الحديث يفرقون بينهما بفرق يبقى الكلام فى جملة صفات الذات دون صفات الفعل فيقولون ما يلزم بنفيه نقص فهو من صفات الذات فإنك لو نفيت عنه الحياة يلزم نقيصة الموت وما لم يلزم بنفيه نقص فهو من صفات الفعل فإنك لو نفيت عنه الإحياء أو الإماتة.... لم =

[illegible] والإحياء [illegible] الخ أما [illegible]
فيكون قديما لأن الصفات كلها عندهم قديمة بما فيها صفات الافعال التى ترجع إلى صفة قديمة وهى صفة التكوين.

أمـا القدر وفق تعريف الماتريدية فهـو قديم عندهما لأنه يرجع إلى صفة العلم وهى من صفات المعانى مثل القدرة والارادة ... الخ فإنها كلها قديمة.

وعند الفلاسفة القضاء هو علمه الأزلى إذاً فهو قديم عند الجميع أما القدر فمرجعه إلى صفات الافعال فيكون حادثاً عند الاشاعرة قديماً عند الماتريدية.

والقضاء عند الاشاعرة هو الارادة والارادة من صفات المعانى القديمة فيكون القضاء قديماً عند الجميع.

وأما القدر فهو إيجاد فيكون من صفات الافعال وبالتالى يكون حادثاً عند الأشاعرة قديمًا عند الماتريدية.

«وأما المعتزلة فلما كان مذهبهم أن العبد خالق لأفعاله الاختيارية وأن الله لا يريد الشرور والمعاصى فإنهم قالوا لا قضاء ولا قدر بالنسبة لأفعال العباد الاختيارية[1] ومع قولهم هذا فإنهم يثبتون لله سبحانه وتعالى علمه بهذه الافعال الاختيارية إلا أن وجودها لا يستند إلى هذا العلم وإنما إلي قدرة الانسان وإرادته وهما معاً من الله سبحانه وتعالى.

وإذا حاولنا البحث عن عامل تشترك فيه التعريفات السابقة فسنجد أن منطلقها هو الإيمان بأن كل شىء يحدث فى هذا الكون بما فيه افعال

= يلزم نقيضه... ثم لو نفى عنه الكلام لزمه نقيصة الآفة كالعجز والخرس فكان من صفات الذات». تبصرة الأدلة لأبى المعين النسفى ـ تحقيق د/ محمد الأنور جـ١ ص٣٤١ .

(١) انظر القول السديد ص١٣٦.

العباد واقع تحت علم الله سبحانه وتعالى الأزلى وأن شيئاً لا يخرج ابداً عن إرادته ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه سبحانه وتعالى الخالق بمعنى الموجد من العدم على غير مثال سبق ولا خالق بالمعنى السابق سواه أما الانسان فهو فاعل ومريد بالقدرة والارادة المعطاة له من الله سبحانه وتعالى وأرادته وقدرته واقعة تحت السيطرة الالهية بمعنى إذا أراد سلبها أو الغاء بعضها دون البعض لا يعجزه عز وجل أى شيء.

• يقول البيهقى إن الإيمان بالقدر يعنى «الإيمان بتقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من أكساب الخلق، وغيرها من المخلوقات وصدور جميعها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها[١]».

ويعجبنى فى هذا المقام ما قال به ابن تيمية والذى اذكره بنصه لأنه يوضح قضية القضاء والقدر ببساطة ويسر يقول تحت عنوان الإيمان بالقدر وبيان ما يتضمنه «وتؤمن الفرقة الناجية بالقدر خيره وشره.

والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين:

الدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذى هو موصوف به أزلاً وأبداً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والارزاق والأجال. ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلق .. يقول سبحانه ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٢] ويقول ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾[٣] .

---

(١) الاعتقاد ص٥٤.

(٢) سورة الحج الآية: ٧٠.

(٣) سورة الحديد الآية: ٢٢.

أما **الدرجة الثانية** فهى مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه ما فى السموات وما فى الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون فى ملكه إلا ما يريد وأنه سبحانه على كل شىء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق فى الأرض ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه[1].

فالله سبحانه وتعالى بعلمه الأزلى علم ما الخلق عاملون وأمر بكتابة كل شىء فى اللوح المحفوظ وكل شىء بمشيئته عز وجل وبخلقه .

القضاء والقدر جزء من الإيمان:

وبعد أن عرفنا معنى القضاء والقدر فإننا نسأل: ما هو حكم الإيمان بهما؟ وللإجابة نقول: إن الإيمان بالقضاء والقدر واجب لأنهما جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، ولأن الإيمان بهما يقتضى أن الله يعلم كل شىء ويحدد كل شىء ويخلق كل شىء ولا يصدر فى الكون شىء إلا وفق إرادته سبحانه وتعالى.

ولهذا حينما سئل ﷺ عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره[2]».

ويروى أن أثنين من الصحابة أتيا عبد الله بن عمر بن الخطاب وقالا له:إن بعض الناس يزعمون أن لا قدر وأن الامر أنف قال: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم براء منى، والذى يحلف به عبد الله

---

(١) ابن تيمية - العقيدة الواسطية ص١٦٢ شرح الدكتور صالح الفوزان - مكتبة المعارف بالرياض ١٤٠٧هـ..

(٢) أخرجة البخارى فى صحيحه كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والاحسان وعلم الساعة ١٩/١ - ٢٠ . ومسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والاحسان ٣٩/١.

ابن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر(١)».

والقرآن الكريم مليء بالآيات التى تؤكد علم الله بكل ذرة فى هذا الكون وأن كل ما يوجد لا يصدر إلا بقضائه وتقديره وبإرادته. يقول سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾(٢).

ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾(٣). ويقول تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٤). ويقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٥). و يقول تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٦).

ويقول عبادة بن الصامت لأبنه: «يا بنى إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله سبحانه القلم،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه.
(٢) سورة الرعد الآيات ٨-١٠.
(٣) سورة سبأ الاية ٢.
(٤) سورة الأنعام الآية ٥٩.
(٥) سورة الحديد الآية ٢٢.
(٦) سورة التوبة الآية ٥١.

فقال له: أكتب. قال: رب ما أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. يا بنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول من مات علي غير هذا فليس منى[١]».

الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافى الأخذ بالأسباب

ونسأل: هل يتنافى الإيمان بالقضاء والقدر مع الأخذ بالأسباب؟

أو هل يتنافى الإيمان بالقضاء والقدر مع عمل الإنسان؟ أو هل يتنافى الإيمان بالقضاء والقدر مع المسئولية الإنسانية؟ وهل يستلزم الرضا بالقضاء الرضا بالمعاصى؟

لكى نجيب يجب أن نعلم أن الدين الإسلامى فى جوهره وفى كل أسسه دين عقلانى، وأصدق دليل على ذلك أن معجزته الخالدة الباقية إلى أن تفنى الدنيا هى القرآن الكريم.

والقرآن الكريم يحث على التأمل والتفكر فى كل شىء، وينهى عن التقليد والتعصب ويطالب دائماً بالدليل والبرهان.

والدين الاسلامى فى جوهره دين شمولى بمعنى أنه يتعامل مع الإنسان فى جانبيه الروحى والجسمي، ويتعامل معه كفرد وكجماعة صغيرة وكأمة ويضع له القوانين التى لو اتبعها لحقق تأكيد الذات وسيطر على ما حوله مما جعل مستخلفاً فيه، ونشر الأمن والأمان فى كل اتجاه. والدين الاسلامى فى شموليته لا يفاضل بين فرد وآخر، أو أمة وأخرى إلا بالعمل الصالح ... وفى شموليته يشرع لكل قطاعات الحياة سياسية أو أجتماعية، أو اقتصادية، ويوجه لكل مجالات الثقافة الحقة، ولا يترك الإنسان هملاً، وإنما يبين له الأسباب الموصلة للنجاح فى كل شىء، ويوفر

(١) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب القدر باب رقم ١٧ جـ ٤ ص ٤٠٨.

له القدرة على ذلك، والمطلوب فقط هو توجيه القدرة، أو الطاقة نحو الأسباب الصحيحة.

والإيمان بالقضاء والقدر يعنى التصديق المطلق بأن كل شيء فى هذا الوجود إنما هو من خلق الله، وإيجاده وإحكامه وأتقانه، وأن شيئاً لا يخرج عن علمه تعالى، وعلى هذا المفهوم فإن الإيمان بالقضاء والقدر لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب. فقد اقتضى عدله وحكمته وعلمه أن يرتب خروج الأشياء على الأسباب، فكلما أخذ الفرد بالسبب كلما وصل إلى النتيجة، والمطلوب فقط هو الأخذ بالأسباب التى وجهنا الله إليها، ثم الرضا الكامل بالنتائج مهما كانت حتى لو خرجت على غير ما نتمنى إيماناً منا بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وتصديقاً منا لقول الرسول ﷺ : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان[1]».

وأعتقد أن القوة المطلوبة هى قوة الجسم والعقل، والنفس وصفاء الروح .. ولا تتحقق هذه الأشياء ولا تتكامل شخصية الإنسان إلا بالتوجه كلية نحو الأخذ بالأسباب. ولهذا نراه ﷺ يقول: «أحرص على ما ينفعك، ولا يعنى الحرص إلا الأخذ بالأسباب الموصلة للهدف، ولحرص الإسلام على نفسية الإنسان فإنه ينأى به عن التوتر والقلق الناجم عن التردد، ولهذا نجده يقول إنك بعد الأخذ بالأسباب والأستعانة بالله، والثقة فى أنه نعم المعين. اترك النتائج لله سبحانه وتعالى فإن كانت خيراً فبها وإلا فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه كتاب القدر باب الامر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ٤/٢٠٥٢.

وفى هذا المعنى أيضاً نجده ﷺ يقول لابن عباس:

«يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قلت: بلى. فقال: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك. تعرف إليه فى الرخاء يعرفك فى الشدة، جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه، فأعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أن مع الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا[١]».

والمؤمن بالقضاء والقدر حينما يأخذ بكل الأسباب ويسلم بالنتائج يكون قوة متحركة، وفى نفس الوقت حينما يعلم أن أحداً لا يملك له ضراً ولا نفعاً سوى الله سبحانه وتعالى بتحرك فى دائرة الوجود بكامل الحرية والتعقل والاعتزاز النفسى والحفاظ على الكرامة.

ولقد عرف محمد ﷺ أسمى ما خلق الله وعرف أصحابه الأطهار أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب، ولهذا تحركوا وعملوا وانطلقوا فى كل المجالات حتى استطاعوا أن يكونوا دولة الإسلام الفتية فى أقصر مدة من عمر الزمن، وكان منهم الأعلام الأفذاذ وجاء بعدهم من قدروا العلم، وفهموا المراد بالقضاء والقدر فنقبوا فى كل الوجود، وتأملوا فى كل ما يحيط بهم ونتج عن حركتهم داخل دائرة الوجود نهضة فى شتى ميادين العلم والفكر.

ويكفى الإنسان أن ينظر فى القرآن الكريم ليتأكد بنفسه أنه لا يدعو للخنوع، أو التواكل، أو السلبية، وإنما يدعو للأخذ بالأسباب. يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) الاعتقاد البيهقى ص ٥٨.

لآيات لأولي الألباب﴾[1]. ويقول في شأن العلماء: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[2].

ويقول في المسئولية: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[3] .

ويدعو الإنسان دعوة صريحة إلى الأخذ بالأسباب. يقول تعالى ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾[4]، ويقول: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾[5]، ويقول تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾[6].

ولتقدير الإسلام للعمل والأخذ بالأسباب يقول ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أومنعوه[7]». ويقول «ما أكل عبد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده[8]». ويقول ﷺ: «باكروا الغدو في طلب الرزق فإن الغدو بركة ونجاح[9]». وجاء

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠.

(٢) سورة فاطر الآية ٢٨.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٤) سورة الملك الآية ١٥.

(٥) سورة الجمعة الآية ١٠.

(٦) سورة الأنفال الآية ٦٠.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة باب قوله تعالى لايسألون الناس إلحافا ١٥٤/٢.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده ٧٤/٣.

(٩) أورده المنذري في الترغيب والترهيب كتاب البيوع باب الترغيب في البكور في طلب الرزق وغيره وماجاء في نوم الصبحه عن عائشة رضي الله عنها وأخرجه الطبراني في الاوسط ٢٣٨/٧ ح رقم ٧٢٥٠ عن عائشة رضي الله عنها

جماعة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا بعدك يا رسول الله أفضل من فلان يصوم النهار، فإذا تركناه قام الليل: فقال ﷺ:ومن يكفله ويخدمه؟ قالوا: كلنا. فقال: «كلكم أفضل منه[١]».

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - : «إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا سقط من عينى».

والإسلام يعتبر العمل وقوداً للحياة وحركة دافعة لرقى البشر وأساساً للرخاء والاستقرار النفسى وتأكيداً لحرية الإنسان وكرامته.

وليس العمل فى جوهره إلا أخذ الأسباب وابتعاداً عن التواكل، والسلبية، وتعاملاً مباشراً بالعقل وبكل الحواس مع كل ما فى الوجود.

ويوم أن فهم المسلمون الإسلام على حقيقته، وآمنوا بالقضاء والقدر وعرفوا أنه لا يتنافى مع حرية الإنسان وعمله صاروا قدوة وقدرة جادة متحركة فى كل الاتجاهات، وضربوا المثل الأعلى لمن أراد السمو والرفعة وحققوا ما لم تحققه الأجيال المتتابعة.

والرضا معناه إرادة الثواب على الفعل، وترك الاعتراض، أو سرور القلب بمر القضاء، والرضا بالقضاء لا يتنافى مع تكليف الله لنا بأفعل أو لا تفعل، ويتطلب منا فى نفس الوقت ترك الاعتراض على الله فى خلقه وتصريفه لكل أمر فى الكون والتسليم بكل النتائج بعد الأخذ بالأسباب كاملة والثقة بأنها لا تفعل إلا بإذنه ولا يستلزم الرضا بالقضاء الرضا بالمعاصى «لأن الكفر له جهتان جهة اقدار الله تعالى للعبد عليه، وجهة حصوله بصدوره عن العبد بقدرته، والرضا المطلوب شرعاً ترك الاعتراض من الجهة الأولى، أما من الجهة الثانية فالمطلوب كراهته وعدم الرضا عن مرتكبه[٢]».

---

(١) رواه الطبرانى

(٢) الشيخ محمود ابو دقيقة - القول السديد جـ٢ ص١٣٩ تحقيق د/ عوض الله حجازى.

الإنسان بين الجبر والاختيار

علمنا أن الله سبحانه وتعالى متصف بكل كمال يليق بذاته العلية ومن صفات الكمال قدرته سبحانه وتعالى الشاملة لكل شيء وإرادته التى تخصص الممكنات بما يجوز لها وعلمه المحيط والكاشف إحاطة كاملة وكشفاً كاملاً.

ومن صفات الكمال التى يتصف بها سبحانه أيضاً صفة العدل. ويعنى العدل أنه لا يظلم مثقال ذرة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(١). ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٢).

نحن إذاً أمام قدرة تخرج كل شيء للوجود وإرادة تخصص، وعلم يكشف وعدل لا يجور.

وبعد ذلك نسأل: ما هو الإنسان؟

أعتقد أن أصدق تعريف له أنه حيوان إجتماعى ناطق أو عاقل أومفكر.

ويعنى هذا أن الإنسان يشترك مع بقية المخلوقات فى أشياء ويختص بأشياء فهو يشترك مع الجماد فى تكوينه المادى من عناصر ويشترك مع النبات فى النمو ويشترك مع الحيوان وغيره فى الإحساس والحركة والتغذى والتوالد والموت والحياة والخضوع للهرم والإصابة بالأمراض المختلفة.

---

(١) سورة الزلزلة الآيتان: ٧ - ٨ .

(٢) سورة الإسراء الآيات: ١٣ - ١٥.

و على هذا نقول: إنه فى هذه الجوانب المادية والنباتية والحيوانية لا إرادة له ولا اختيار، بل يجرى عليه ما يجرى على بقية المخلوقات فقبل البدء كان عدماً ثم مع التقاء الحيوان المنوى بالبويضة بدأت النطفة التى تحولت إلى علقة فمضغة فعظام مكسو باللحم فإنسان يحبو على الأرض ثم يمشى عليها وتنتهى حياته كغيره من بقية المخلوقات بالموت، وإذا بحث الإنسان عن بدائل للتحولات المستمرة فيه منذ البدء حتى يخرج من الدنيا فلن يجد، إذا الجبر فى هذا الجانب هو الأساس ولا قدرة للإنسان على الاختيار.

فإذا ما تركنا هذا الجانب وجدنا جانباً آخر يختص به الإنسان عن غيره مما يحيط به وهو الجانب العقلى. وهذا الجانب كرم به الإنسان وبه أصبح مسئولاً مسئولية كاملة، وإذا سألنا: لماذا؟ كانت الإجابة: إن العقل فى هذا الجانب تتعدد أمامه البدائل فأمامه الخير والشر وأمامه الفضيلة والرذيلة وأمامه النور والظلام وأمامه رسالات السماء بكل ما اشتملت عليه من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق.

ومع وجود البدائل وتعددها ووجود الرسالات السماوية وسلامة العقل يكون التكليف وتكون المسئولية ويكون الجزاء.

ويعنى هذا أنه يتمتع فى هذا الجانب بالاختيار وله الحرية فى أن يفعل و أن يترك.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد علم أزلاً بما يفعله الإنسان فإن علمه تعالي كاشف، والكشف لا يعنى الجبر وليس لأحد أن يقول: إنه تعالى كتب على كذا قبل أن أولد لأن العقل البشرى قاصر عن معرفة حقيقة نفسه وعن معرفة حقيقة الروح بل هو قاصر عن معرفة ما كتبه الله على الإنسان.

وإنما على العقل البشرى أن يفكر وأن يتأمل فى الكون وأن يأخذ بالأسباب وأن يعلم يقيناً أنه تعالى مع اتصافه بالقدرة والعلم والإرادة فإنه سبحانه متصف بالعدل، والعادل لا يظلم وإنما يزود الإنسان بما يجعله أمام البدائل حراً.

ويكفينا هنا ما يحكيه القرآن الكريم عن المشركين الذين تعللوا بأن مشيئة الله هى التى ألزمتهم الشرك، يقول سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾[١]. فرد عليهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾[٢]، أى هل علمتم ما كتبه الله عليكم حتى تتعللوا بمشيئته.

ولقد عرف المسلمون الأوائل أنهم بالعقل يتمتعون بالاختيار وأنهم لهذا لابد أن يأخذوا بالأسباب مع إيمانهم الكامل أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومعرفتهم الحقة أن عقولهم قاصرة عن معرفة ما هو مكتوب.

يروى صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خرج إلى الشام مع بعض الصحابة حتى إذا كان «بسرع» - وهى قرية في طرف الشام - لقيه أبو عبيد بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام فنادى عمر فى الناس: إنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه - أى أنى راجع إلى المدينة فى الصباح على راحلتى - فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر متعجباً: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة. نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس أن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

---

(١) سورة الانعام الآية ١٤٨.

(٢) سورة الانعام الآية ١٤٨.

فعمر ﷺ يعلم أن كل شىء مكتوب وهو فى علم الله سبحانه وتعالى وفى نفس الوقت يعلم أن علمه تعالى لا يجبر أحداً وأن أحداً لا يعلم ما هو فى علمه تعالى وأن الإنسان أمام البدائل حر وهذه البدائل لا تخرج عن إرادة الله وما على الإنسان إلا أن يأخذ بالأسباب.

ويروى أن جعفر بن محمد الصادق قال: «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً، فما أراد منا أظهره لنا وما أراد بنا طواه عنا، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا[١]».

أراد جعفر الصادق - ﷺ - أن نوجه طاقتنا إلى معرفة ما أراده الله سبحانه وتعالى منا، فلقد أراد منا أن نعرفه وألا نشرك به أحداً وأن نعبده وأن نؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وأن تؤدى العبادات على الوجه الأكمل، وأن نلتزم بالأوامر ونبتعد عن النواهى وأن نتخلق بالأخلاق الفاضلة وأن نأخذ بكل ما يحقق لنا الاستقرار والسعادة فى دنيانا ويحقق لنا الفوز في الآخرة وأن نعمل عقولنا فى كل ما يحيط بنا، وكل هذه الأمور تجتمع فى دائرة التكليف.

ونحن أمام هذه الدائرة فى حرية تامة وكل البدائل مطروحة وظاهرة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٢]، ويقول تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[٣]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٤].

أما ما أراده بنا من خير أو شر أو موت أو حياة أو طول عمر أو قصر أو غنى أو فقر أو صحة أو مرض، فهذه دائرة يقصر العقل عن

---

(١) نهاية الإقدام للشهرستانى ص٢٥٩.

(٢) سورة البلد الايات ٨ - ١٠.

(٣) سورة الإسراء الآية ١٥.

(٤) سورة الإنسان الآية ٣.

إدراكها وليس لأحد أن يغتر بعقله وما علي الإنسان إلا أن يأخذ بالأسباب فقط.

ومن الغريب أن الإنسان يشغل نفسه بما ليس فى مقدوره أن يفعله ليبرر خطيئته وضعفه وسلبيته مع حقائق الوجود بينما ينصرف عن الجانب الواضح أمامه.

ونخلص من هذا: إلى أن الإنسان مجبور في الجانب الذى لا قدرة للعقل على تغييره مهما أوتى من تقدم، ومهما وصل من علم، أما ما يقع فى دائرة العقل فالإنسان أمام البدائل فى حرية تامة وليس لأحد أن يتعلل بالقضاء والقدر.

(١١) الإسلام والديانات السماوية الأخرى

ضرورة الدين لبنى البشر أمر ثابت ، ونعنى بالدين المنهج الربانى والأحكام التى جاء بها رسل الله للإنسان على الأرض .

و يتطلب منا البحث أن نحدد العلاقة بين الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ من عند الله و بين الديانات السماوية الأخرى التى جاء بها رسل الله عليهم الصلاة و السلام .

و إذا أردناأن نحدد العلاقة بين شيئين يلزمنا فى البدء أن نعرف حقيقة هذين الشيئين ، و من خلال معرفة كنة كل منهما تتبين لنا العلاقة بوضوح .

و إذا كنا الآن بصدد الإسلام و الديانات الأخرى فإننا نسأل ما هو جوهر الإسلام ؟ و ما هو جوهر الديانات الأخرى ؟ ثم ما هو المصدر لكليهما ؟

جوهر الإسلام الإيمان بالله :

أما عن جوهر الإسلام فهو الاعتقاد الصادق بوجوده عز و جل وتفرده بالوحدانية و بكل صفات الكمال و تنزهه عن كل نقص ، و هو الخضوع و الخشوع و الانقياد و التسليم المطلق و العبودية الكاملة لذاته سبحانه و تعالى، و هو التأثر الصادق بكرم الله على عباده ، و الثقة التامة بتدبيره و رحمته و عدله ، و هو الالتزام بكل الأوامر و الابتعاد عن كل النواهى و الاستقامة فى القول و الفعل و العمل .

هو فى كلمتين: إيمان واستقامة:

عن سفيان بن عبد الله الثقفى – ﷺ– قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال ﷺ: «قل آمنت بالله ثم أستقم[١]».

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام ٦٥/١.

ومصدر الإسلام وأساسه ومنزل تشريعاته هو رب العزة سبحانه وتعالى. وإذا كان هذا بتبسيط شديد هو جوهر الإسلام ومصدره، فما هو جوهر الديانات السماوية الأخرى ومصدرها؟

للإجابة نعود إلى آخر كتاب سماوى، إلى القرآن الكريم لنستلهم منه الحقيقة.

الإسلام رسالة جميع الانبياء:

يقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١). ويتجه ابراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وهما يقيمان البيت الحرام بالدعاء إلى الله عز وجل قائلين: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(٢).

ويسأل يعقوب بنيه قائلاً: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾(٣) فيجيبونه: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٤).

ويقول الحواريون لعيسى عليه السلام: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٥) .

ويأمر القرآن الكريم البشر بالإيمان بالأنبياء جميعاً فى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة يونس الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٢٧.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٣٣.

(٤) سورة البقرة الآية: ١٣٣.

(٥) سورة ال عمران الآية: ٥٢.

(٦) سورة البقرة الآية: ١٣٦.

فإذا ذهبنا إلى التوراة نستلهم منه الحقيقة ونبحث فيه عن وحدانية الله سبحانه وتعالى نجد فيه:«أنا هو الرب وليس غيرى وليس دونى إله ليعلم الذين هم من مشرق الشمس ومن مغربها أنه ليس غيرى أنا الرب وليس آخر[١]».

ويقول: «أنا الرب صانع كل شيء ناشر السموات وحدى باسط الأرض من معى[٢]».

وفي التوراة أيضاً: «أنا الرب إلهك لا يكن لك آلهة غيرى. أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك. لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك[٣]».

وفى إنجيل متى يقول عيسى ﷺ: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل[٤]».

ويتحدث عيسى ﷺ مبيناً للناس أنه لم يأت برسالة من عنده ولم يخترع ديناً وإنما الرسالة والدين من الله سبحانه وتعالى «ما أتيت لأصنع مشيئتى بل مشيئة من أرسلنى[٥]». ويقول فى إنجيل يوحنا أيضاً: «لكن الذى أرسلني هو حق وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم[٦]». ويقول المسيح ﷺ: «وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته. أنا مجدتك على الأرض. العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته[٧]». ويدخل أحد الناس علي السيد المسيح

---

(١) أشعياء الإصحاح ٤٥.

(٢) أشعياء الإصحاح ٤٤.

(٣) الخروج الإصحاح ٢٠.

(٤) إنجيل متى الإصحاح ٥.

(٥) إنجيل يوحنا الإصحاح ٦.

(٦) إنجيل يوحنا إصحاح ٨.

(٧) إنجيل يوحنا إصحاح ١٧.

ﷺ وهوجالس يشرح تعاليم الله فيسأله قائلاً: آية وصية هى أول الكل؟ فأجاب المسيح: «إن أول كل الوصايا هى: إسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هى الوصية الأولى. وثانية مثلها هى تحب قريبك كنفسك[1]».

بعد هذه السياحة نعود إلى السؤال المطروح: ما هو جوهر الأديان الآخرى وما هو مصدرها؟.

جوهر الاديان واحد:

لقد جاء نوح بالإسلام وكانت دعوة إبراهيم وإسماعيل هى الإسلام وعبد إسحاق ويعقوب وأبناء يعقوب إلهاً واحداً هو الرحمن الرحيم وموسى وعيسى كانت دعوتهما الإسلام، وجاء محمدﷺ فى نهاية المطاف ليقول «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[2] ».

وإذا كان الإسلام يعنى التوحيد الخالص والعبودية المطلقة لرب هذا الكون والتزام لكل ما أمر الله واجتناب لكل ما نهى عنه.

وإذا كان الإسلام هو دعوة محمدﷺ فهو في نفس الوقت دعوة كل أنبياء الله ورسله، وإذا كان مصدر الإسلام كما جاء به محمد ﷺ هو الله عز وجل فهو سبحانه مصدر دين كل الأنبياء من قبله عليهم جميعاً السلام.

---

(١) إنجيل مرقس إصحاح ١٢.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب المناقب باب خاتم النبيين ٦٢٦/٤

وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الفضائل باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ١٧٩٠/٤ - ١٧٩١ .

وعلى هذا نقول: إن جوهر الأديان السماوية كلها واحد، ومصدرها جميعاً هو الله سبحانه وتعالى، وإذا كان الجوهر واحداً، والمصدر واحداً، فإن العلاقة بين الأديان السماوية تكون علاقة بناء ومحبة وسلام وتضامن من أجل رخاء الإنسان على الأرض المستخلف فيها، وطهارته من شرور الشيطان استعداداً ليوم اللقاء العظيم علاقة الأديان السماوية كلها علاقة توحيد وإكمال وتعديل لبعض الأحكام.

الهدف من تعدد الرسالات:

لقد علم الله سبحانه وتعالى - وهو خالق الكون والإنسان - ما يصلح من شأن خلقه، وعلم ما يمكن أن يتقبله الإنسان فى فترة دون فترة، ولهذا تعددت الرسالات السماوية إلا أن تعددها لم يكن فى الأصول فكلها تدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر، وكلها تدعو إلى السماحة والأمن، وإلى القيم النبيلة، وتنهى عن كل ما يصطدم بفطرة الإنسان.

أما التعدد فقد جاء فى القوانين التى تتمشى مع طبيعة الزمن، ولما أكتمل نمو الإنسان جاءت الرسالة الخاتمة مكملة لتشريعات السماء. يقول سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1] .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: «لقد جاء الإنجيل بتعديل بعض أحكام التوراة إذا أعلن عيسى أنه جاء ليحل لبنى إسرائيل بعض الذى حرم عليهم، وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الأنجيل والتوراة إذ أعلن أن محمداً جاء ليحل للناس كل الطيبات، ويحرم عليم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

---

(١) سورة المائدة الآية ٣.

ولكن يجب أن نفهم أن هذا وذاك لم يكن من المتأخر نقضاً للمتقدم، ولا إنكاراً لحكمة أحكامه، وإنما كان وقوفاً بها عند وقتها المناسب ... ذلك أن الشرائع السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات: تشريعات خالدة لا تتبدل بتبدل الأسقاع والأوضاع، وتشريعات موقوتة بآجال طويلة أو قصيرة فهذه تنتهى بانتهاء وقتها، وتجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة[١]».

موقف أتباع محمد ﷺ :

ونأتى إلى نقطة أخيرة وهى: إذا كان الإسلام هو دين أنبياء الله ورسله عليهم جميعاً السلام، وكان آخر رسول هو محمد ﷺ، وآخر كتاب سماوى هو القرآن الكريم.

فما هو موقف المسلمين أتباع محمد ﷺ من التوراة والإنجيل؟

وللإجابة نقول: إننا أتباع محمد ﷺ نؤمن بتوراة موسى عليه السلام الذى جاء به من عند ربه بدون أى تحريف ونؤمن بإنجيل عيسى عليه السلام الذي جاء به من عند ربه بدون أي تحريف.

والمشكلة ليست مشكلة الكتابين المقدسين فالإيمان بهما من عقيدتنا. يقول سبحانه وتعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[٢] .

وإنما هى مشكلة العقل البشرى الذى لم يكتف فى حركته المغرورة بتحطيم نفسه وتزييفها. وإنما راح وبعنف يحطم القيم النبيلة، ويزيف الحقائق الإلهية ثم يقاتل لنشر الباطل فى كل مكان.

---

(١) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص١٨٥.

(٢) سورة البقرة الاية ٢٨٥.

نحن نؤمن بموسى عليه السلام وبكتابه المقدس، ونؤمن بعيسى عليه السلام وبكتابه المقدس لكن إيماننا يدعونا إلى النصح، ومن النصح أن نقف متأملين أمام بعض النصوص التى وردت فى التوراة والإنجيل ونسأل أنفسنا هل هى حقا نصوص مقدسة ، أو هى من صنع عقل ماكر أراد بالإنسان فى كل زمان ومكان الشر والعداء، وأراد بالأديان، وبذات الله العلية، وبرسله عليهم السلام السوء كل السوء؟

ونذكر بعض هذه النصوص:

- يحكى التوراة قصة بدء الخلق وفى بداية الإصحاح الثانى يقول:«وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فأستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأن فيه استراح عن جميع عمله [1]».

وملخص النص: أن الله يتصف بالتعب والإعياء، والقرآن الكريم صراحة يقول: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**﴾[3].

٢- يحكى التوراة قصة أكل أدم وحواء من الشجرة التى نهاهما سبحانه عن الأكل منها، ويبين كيف أصبحا عريانين، ثم يقول: «وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة ... فأختبأ آدم وحواء من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله ادم وقال: أين أنت؟ فقال:

---

(١) سفر التكوين الإصحاح الثانى، والخروج الإصحاح العشرون.

(٢) سورة الأحقاف الآية ٣٣.

(٣) سورة ق الآية ٣٨.

سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ [١]».

ويتلخص النص فى أن الله يتمشى فى الجنة، وأنه لا يعرف شيئاً عما خلقه.

٣- وبعد أن أكل آدم وأمرأته وعرفا كل شىء يخاف الله أن يصبح الإنسان خالداً مثله إذا أكل من شجرة الحياة، ولهذا يقول التوراة: «وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها [٢]».

٤- وينزل الله تعالى من ملكوته ويجلس مع سيدنا يعقوب ويصارعه طول الليل، ويصر سيدنا يعقوب أن لا يخلى سبيل الرب ليمضى لشأنه إلا بعد أن يأخذ منه البركة، يقول التوراة: «فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه: وقال: أطلقنى لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركنى... فقال له: ما اسمك؟ قال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله الناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال: أخبرنى باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمى؟ وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان (فينيئيل) قائلاً: لأنه نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسى [٣]».

٥- والله سبحانه وتعالى يثور ويغضب وينوى البطش ببنى إسرائيل إلا أن موسى عليه السلام يهدىء من روعه ويطالبه بالندم، فيعدل الإله عما كان

---

(١) سفر التكوين الإصحاح الثالث.

(٢) سفر التكوين الإصحاح الثالث.

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٣٢.

ينوى ويندم، هكذا يقول نص التوراة الاتى: «وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة، فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم فأصيرك شعباً عظيماً؟

فتضرع موسى أمام الرب إلهه، وقال: لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر ... ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك، اذكر ابراهيم وإسحق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك.. فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه [١]».

وإذا كانت صورة الإله قد حرفت فى بعض نصوص التوراة فهو إله يتعب ويحتاج للراحة، ولا يعلم عن خليقته شيئاً، ويخاف أن ينازعه الإنسان فى الأبدية ويصارع الإنسان ويباركه حينما يضغط عليه، وهو إله يثور ويغضب، وينوى البطش إلا أنه يقنع من جهة الإنسان ويندم.

٦- كذلك فإن صورة الأنبياء لم تسلم من العقل البشرى، فنبى الله لوط تسكره ابنتاه ليرتكب فيهما أفحش جريمة فى جميع الآديان.

يقول التوراة: «وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه، لأنه يخاف أن يسكن فى صوغر فسكن فى المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقى ابانا خمراً ونضجع معه فنحيى من أبينا نسلاً.

فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم بأضطجاعها ولا بقيامها.

وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة: إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى نسقيه خمراً الليلة أيضاً فأدخلى اضطجعى معه فنحيى من أبينا

---

(١) سفر الخروج الإصحاح ٣٢.

نسلاً. فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما[١]».

٧- ونعلم جميعاً أن النبوة لا تكون بالاكتساب، وإنما هى منحة يختص بها الله سبحانه وتعالى من يشاء من عباده، إلا أننا لو رجعنا إلى الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين ، لوجدنا أنها ليست اكتساباً فقط، وإنما تأتى بالمكر والخديعة فنبى الله إسحاق يكلف ابنه عيسو بإحضار أشياء حتى يعطيه النبوة، ويعلم بذلك الابن الثانى يعقوب فيحتال على أخيه ويلجأ إلى الحيل ويغرر بأبيه حتى يأخذ منه النبوة بدلاً من أخيه عيسو، ويكتشف الأب بعد أن منح النبوة ليعقوب أنه غرر به، ومع ذلك لا يعدل عن رأيه وإنما يستسلم للخديعة.

وعلي من يريد التأكد من هذا أن يعود إلى الإصحاح المذكور ليقوأه بنفسه.

المسيح ﷺ رسول من رسل الله الكرام:

٨- والسيد المسيح ﷺ أتى لينشر الحب والأمن والسلام وهو كبقية أنبياء الله جاء للإصلاح لا للتدمير، يقول ﷺ: «طوبى للرحماء لأنهم يرحمون، طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون [٢]».

هذا النبى المكرم الذى يدعو للرحمة والنقاء والتسامح والسلام هل يمكن أن تكون النصوص الآتية ضمن كتابه المقدس؟.

---

(١) سفر التكوين الإصحاح ١٩.

(٢) إنجيل متى الإصحاح٥.

يقول الإصحاح العاشر من إنجيل متى: «لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض. ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والإبنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته [١]».

ويقول إنجيل لوقا: «جئت لألقى ناراً على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت. أتظنون أنى جئت لأعطى سلاماً على الأرض؟ كلا أقول لكم بل أنقساماً [٢]».

والسيد المسيح عليه السلام كان حريصاً على أن يردد أنه ابن الإنسان وقد فسر أكثر من مرة بأن معنى أنه ابن الله أنه المطيع المخلص، ومع هذا نرى فى الإنجيل: «أنا والأب واحد»، ونجد: «فإن لم تؤمنوا بى فآمنوا بالأعمال لكى تعرفوا وتؤمنوا أن الأب فى وأنا فيه».

وإذا كان السيد المسيح عليه السلام يقول: لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الانبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإن هذا يلزم أتباع موسى عليه السلام - مع إيمانهم بكتابه الصحيح - أن يؤمنوا برسالة عيسى عليه السلام حتى تصدق عليهم كلمة الإسلام فإذا أنكروا خرجوا عن دائرة الرسالات السماوية فإذا جاء محمد ﷺ بالرسالة السماوية الخاتمة الجامعة المكملة لكلمة السماء إلى الأرض، إذا جاء بقول ربه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[٣]، وبقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٤]، وبقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي

---

(١) إنجيل متى الإصحاح ١٠.

(٢) إنجيل لوقا الإصحاح ١٢.

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٤) سورة الانبياء الآية ١٠٧.

﴿رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(١)، وبقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(٢).

وإذا جاء ﷺ ليقول لكل البشر: «كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود» – وفى رواية: «وبعثت إلى الناس عامة»، وفى رواية آخرى: «وبعثت إلى الخلق كافة» والروايات كلها فى صحيح البخارى.

وإذا كان ﷺ قد أمر بالتبليغ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾(٣) فإن التبليغ ينسحب إلى كل البشر بمن فيهم أصحاب الديانات السماوية الآخرى، ويلزمهم مع إيمانهم بالتوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح الإيمان برسالة محمد ﷺ، وبكل لفظ ورد فى القرآن الكريم، وإذا لم يفعلوا ذلك خرجوا عن دائرة الإسلام، لأنهم رفضوا رسالة خاتمة وكتاباً خاتمًا مهيمنًا وبالتالى رفضوا دين الله.

ونحن المسلمين نعيش بالسماحة والحب والسلام ونذكر بالدين الخاتم ومنطلقنا قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٤) فإن استجابت العقول والقلوب كانت مسلمة مؤمنة وإلا قلنا عن قناعة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(٥).

---

(١) سورة الاعراف الآية: ١٥٨.

(٢) سورة الفرقان الآية: ١.

(٣) سورة المائدة الآية: ٦٧.

(٤) سورة النحل الآية: ١٢٥.

(٥) سورة الكافرون الآية: ٦.

الباب الثانى

النبوة والرسالة

١) الوحى.

٢) النبى والرسول.

٣) حكم إرسال الرسل.

٤) إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ.

٥) تعريف المعجزة.

٦) المعجزة الخالدة: القرآن الكريم.

٧) المنكرون لرسالة سيدنا محمد والرد على شبههم

٨) رؤية في عصمة الأنبياء.

(ا) الوحــى

لما كـان الوحى هو المدخل الرئيـسى للنبـوة والرسـالة حـيث يتلقى الانبيـاء والرسل عن طريقـه مـا يشـاء الله سـبـحـانه وتعـالى من عقـائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وحكم ومواعظ وامثال وقصص.. الخ ما يتصل بدينهم ودنياهم وآخرتهم يقول سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(١).

ولما كان الوحى هو الوسيلة التى أرادها الله ليعرف ملائكته ورسله بما يريد أن يعرفهم به، كان لزاماً علينا أن نتحدث عنه بإيجاز وعن ما يتصل به قبل الحديث عن الأنبياء والرسل عليهم جميعاً السلام.

تعريف الوحى:

الوحى فى اللغـة مـعناه الاعـلام السـرى أو الخـفى السـريـع وهذا الاعلام يكون من الله سبحانه وتعالى لملائكته ورسله وبعض خلقه. يقول سبحانه ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(٢) ويقول عز وجل﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء الآية: ١٦٣ - ١٦٤.

(٢) سورة الانفال الآية: ١٣.

(٣) سورة النجم الآية: ١٠.

كما يكون من غيره لغيره:

ويتحقق الاعلام بوسائل عدة منها:- الرمز أو الإيماء أو الاشارة أو الكتابة. فزكريا ﷺ حينما بشر بغلام اسمه يحيى مع كبر سنه وعقم زوجته أراد أن يطمئن قلبه من خلال علامة ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(١) - فأوحى إليهم - أى رمز لهم أو أومأ إليهم أوكتب أو أشار لهم.

وفى معنى الاشارة والرمز والكتابة يمكن تفسير قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(٢).ويقول سبحانه ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾(٣).

ومنها الالقاء فى النفس أو الالهام يقول سبحانه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٤).

كما يكون بالتسخير والامر يوضحه قوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(٥).والمتتبع لآيات القرآن الكريم يعرف هذه المعانى كما يعرف غيرها(٦).

(١) سورة مريم الآية ١٠ - ١١.

(٢) سورة الانعام الآية ١١٢.

(٣) سورة الانعام الآية ١٢١.

(٤) سورة القصص الاية ٧.

(٥) سورة النحل الآية ٦٨.

(٦) راجع بصائر ذوى التمييز جـ٥ ص١٧٩.

ويتسع معني الوحى فى اللغة ليشمل الموحى به يقول سبحانه وتعالى عن القرآن ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(١). ويقول ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾.

اما تعريف الوحى فى الاصطلاح:

بالمعنى المصدرى أوحى إيحاء أي أعلم إعلاماً فهو اعلام من الله سبحانه وتعالى لنبى من أنبيائه أو رسول من رسله بحكم شرعى تكليفى أو غير ذلك، بطريقة تفيد النبى أو الرسول العلم اليقينى القاطع بكل ما أعلم الله سبحانه وتعالى مثال الحكم الشرعى التكليفى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾(٢) وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(٣) وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٤) ومثال ماليس بحكم شرعى القصص والامثال والعظات والعبر والفضائل التى يريد الاسلام من الانسان أن يتحلى بها، والرذائل التى يريد الاسلام من الانسان أن يبتعد عنها وأيضاً تعريف الانسان بنفسه من أين؟

وإلى أين؟ ولماذا؟ وتعريفه لبعض أمور الآخرة مثل الصراط والميزان والحشر والنشر والجنة والنار... الخ.

ويمكن تعريف الوحى بالمعنى الحاصل بالمصدر أي الموحى به بأنه، ما أعلمه الله سبحانه وتعالى لأنبيائه ورسله وانزله عليهم من كتب سماوية لم نعلمها أو علمناها من خلال الكتاب الخاتم المهيمن والمتمم والناسخ

(١) سورة النجم الآية: ٤.

(٢) سورة النحل الآية: ٩.

(٣) سورة المائدة الآية: ٦٧.

(٤) سورة البقرة الآية: ١٨٣.

لبعض ما قبله القرآن الكريم مثل: صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى.

ومن خلال ما سبق نجد أن الوحي يستجمع عدة عناصر هامة

أ- «إنه اعلام من الله تعالى المحيط بكل شيء علماً

ب- إن الرسول أو النبى يتلقف هذا الاعلام تلقفاً وهو مستجمع كامل شعوره الفكرى والوجدانى دون أن يكون لإرادته أي مدخل فى مضمون ما يلقى إليه لفظاً أو معنى.

جـ- إن ما يلقى بالوحى يحتل فى ذات الرسول أو النبى مركز العلم اليقينى القاطع بصحة التلقى عن الله سبحانه بحيث لا يعترى نفسه أي تردد أو شك.

د- إن ظاهرة الوحى ناموس الهى يتلقى به جميع الرسل والانبياء ما يلقي إليهم من اعلام [١]».

الوحى ممكن عقلاً:

والوحى من الامور الممكنة عقلاً إذ لا يترتب على القول به أى مستحيل والاساس الذى يجعله فى حيز الامكان هو التصديق القلبى الجازم الذى لا بداخله أى شك بوجود الله سبحانه وتعالى واتصافه بكل كمال وتنزهه عن أى نقص ومن كمالاته العلم الكاشف والارادة المخصصة والقدرة المخرجة للشيء من العدم للوجود ومن الوجود للعدم فإذا كان هذا الإيمان متحققاً عند من يبحث فى قضية الوحى فإنه بالضرورة يدفعه إلى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق مخلوقات من نور لا يعصونه ويفعلون ما يؤمرون ومن الامور التى يؤمرون بها تلقى الكلمات عنه سبحانه أو أخذها من اللوح المحفوظ وهم بعد تلقى الأمر ينفذون ما

---

(١) الشيخ عبد الرحمن الميدانى – العقيدة الاسلامية ص٥٢٩ دار القلم بيروت ١٩٧٩.

أمرهم الله به بإقدار منه عز وجل ويكونون بهذا الاقدار على استعداد لتوصيل كلمات الله لمن أراد سبحانه أن تصله كلماته والتى هى فى جوهرها متضمنه للعقائد والعبادات والمعاملات والاخلاق.

وممن أراد سبحانه أن تصلهم كلماته الرسل عليهم السلام ولكى يفهموا ويستوعبوا كل ما يأتيهم به ملاك الوحى أوجد فيهم سبحانه الصفاء الروحى واليقظة المتعقلة والطهر القلبى والكمال فى الخلقة والاخلاق وحفظ ظاهرهم وباطنهم من ترك مأمور به أو فعل منهى عنه وأيدهم بأمور خارقة ليس فى قدرتهم فعلها هى بمثابة التأكيد لهم أن ما يتلقونه أو ما يقذف فى داخلهم أو ما يسمعونه هو من الله عز وجل لا من وحى أنفسهم.

عناصر إمكان الوحى إذا هى الإيمان بالله الواحد الأحد الخالق لكل الكون والإيمان بالملائكة الذين جبلوا على تنفيذ ما يوكل إليهم والإيمان بالرسل الذين زودوا بأستعدادات خاصة وجعلت مداركهم قابلة للتلقى مع اليقظة الكاملة دون أن تنقص أو تزيد.

ومنكر إمكان الوحى أو القائل بأن الوحى يأتى من داخل الرسول لا من خارجه بمعنى أنه لا يتلقى كلاماً من الله أو من ملاك الوحى وإنما تظهر له بعض الامور التى هى فى الحقيقة من نتاج نفس هذا المنكر أو الدعى إن كان لا يؤمن بالله تعالى وبقدرته على الخلق والإصطفاء، فلا حاجة لمناقشته فى إمكان الوحى أو استحالته قبل إزالة ما ران على فطرته من ضباب حجبه عن معرفة الله والإيمان به عز وجل.

وإن كان يؤمن بالله وإتصافه بكل كمال فهو فى حاجة ماسة إلى تصحيح إيمانه بالعودة الواعية لفهم القرآن الكريم والسنة المطهرة لأنه بالإيمان الصحيح لن يخرج الوحى بكل معانيه عن دائرة الإمكان العقلى وهو فى نفس الوقت سيتأكد من وقوعه الفعلى بأدلة النقل بقول سبحانه

وتعالى لنوح عليه السلام ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾(١) ويقول لمحمد ﷺ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾(٢) أى القاؤه إليك بواسطة الملك. ويقول سبحانه ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾(٣) أى اعلم الرسل ويقول سبحانه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾(٤) أى اعلمناه بسرعة وخفاء.

الوحى واقع فعلاً

ودليل الوقوع لمن عاصر الرسل مشاهدتهم لبعض الامور الخارقة التى ظهرت على أيدى الرسل فموسى بمحضر من القوم وباقدار من الله سبحانه يوحى إليه أن الق عصاك فيلقيها فإذا هى حية تسعى، ويدخل يده فى جيبه ويخرجها بيضاء لا سوء فيها، ويضرب بعصاه الحجر الاصم فإذا بعيون الماء تتفجر منه.. وعيسى عليه السلام يبرىء الاكمة والابرص ويحيى الموتى بإذن الله، وينبىء القوم بما ياكلون وما يدخرون فى بيوتهم، ومحمد ﷺ يشبع الخلق الكثير من الطعام القليل، ويتفجر الماء من بين أصابعه الشريفة ويطلب من ربه شق القمر إلى فلقتين فيستجيب له سبحانه الخ هذه الخوارق ثم هو الأمى ياتى بكتاب معجز بكل مقاييس الاعجاز من عند ربه سبحانه.

هذه المشاهدات اكدت للقوم أن الرسل لا يتحدثون من أنفسهم وإنما عن وحى يوحى إليهم يقول سبحانه فى شأن سيدنا محمد عليه السلام ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٥).

أما من لم يعاصر فإن احوال وصفات واخلاق ومعجزات الرسل، نقل الكثير منها بالتواتر، وهو لا يفيد إلا اليقين بقول الشيخ ابو دقيقة

---

(١) سورة هود الآية ٣٧.

(٢) سورة طه الآية ١١٤.

(٣) سورة إبراهيم الآية ١٣.

(٤) سورة الاعراف الآية ١١٧.

(٥) سورة النجم الآية ٣-٤.

«وأما وقوع الوحى وحصول الرسالة فدليله يختلف بالنسبة للمشاهد للانبياء والغائب عنهم. فالمشاهد لهم دليله تلك المعجزات التى شاهدها على ايديهم. وأما الغائب عنهم فدليله التواتر وهو مفيد لليقين حيث كان مستوفياً للشرائط التى تحقق صحته وخلا من كل ما يضعف الثقة به[١]».

انواع الوحى

وللوحى انواع ثلاثة يمكننا اخذها من الآية الكريمة يقول سبحانه وتعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢] .

النوع الاول: يكون بالقذف أو الالقاء فى القلب يقظة أو مناماً مع العلم الضرورى للرسول بأن الفاعل لهذا هو الله سبحانه وتعالى. وليس بمستحيل عليه عز وجل وهو الذى خلق الرسول وزوده بكمال فى خلقته واخلاقه، وأصطفاه من دون خلقه ليحمل الرسالة وعصمه عصمة كاملة وايده بالمعجزات - أن يخلق فى رسوله العلم الضرورى الذى لا يحتاج لأى دليل بأن الموحى إليه هو عز وجل. يقول الالوسى «ظاهرة حصر التكليم فى ثلاثة أقسام ، الأول الوحى وهو المراد بقوله تعالى (إلا وحيا) وفسره بعضهم بالإلقاء فى القلب سواء كان فى اليقظة أو المنام. والالقاء أعم من الالهام، فإن إيحاء أم موسى الهام، وإيحاء ابراهيم ﷺ القاء فى المنام وليس الهاماً، وإيحاء الزبور القاء فى اليقظة كما روى عن مجاهد وليس بالإلهام.

والفرق أن الالهام لا يستدعى صورة كلام نفسانى فقد وقد، وأما اللفظى فلا. وأما نحو إيحاء الزبور فيستدعيه [٣]».

---

(١) القول السديد فى علم التوحيد جـ٢ ص١٦٦.

(٢) سورة الشورى الآية ٥١.

(٣) روح المـ[illegible] ٢ ص٥٤.

النوع الثاني: هو إن يسمع الرسول كلام الله سبحانه وتعالى دون أن يراه عزوجل (وكلم الله موسى تكليماً) ويقول سبحانه ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ...... آلخ﴾[1].

النوع الثالث: وهو الاغلب والاعم وبخاصة مع سيدنا محمد ﷺ، ويكون بإرسال ملاك الوحى جبريل عليه السلام محملاً بكلمات رب العزة.. ويتخذ هذا النوع صوراً متعددة فقد يرى الرسول ملاك الوحى على صورته الحقيقية، وهذا ما حدث بالفعل مع بدء الوحى فى غار حراء، إذ رأى المصطفى ﷺ جبريل على صورته الحقيقية.

وقد يأتى فى صورة رجل من الصحابة أو فى صورة رجل آت من سفر لا يعرفه أحد، وقد حدثت الصورتان حيث إتى جبريل فى صورة الصحابى الجليل دحية الكلبى. وحيث جاء فى صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر ونترك الحديث الذى يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ليوضح لنا الصورة - يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنه بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد اخبرنى عن الاسلام فقال رسول الله ﷺ «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت إن أستطعت إليه سبيلاً» قال صدقت. قال فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال فأخبرنى عن الإيمان قال: «إن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره

---

(١) سورة طه الآيات: ١١ ـ ١٤.

وشره» قال صدقت. قال فأخبرنى عن الإحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه وأن لم تكن تراه فإنه يراك» قال فأخبرنى عن الساعة قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» قال فأخبرنى عن أماراتها قالك «أن تلد الأمة ربتها، وإن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان» قال ثم أنطلق فلبثت ملياً ثم قال «يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم قال «فإنه جبريل اتاكم ليعلمكم دينكم [١]»

وقد يأتى ملاك الوحى ويتصل بالرسول ﷺ ليبلغه بكلمة السماء دون أن يراه الرسول وإنما يسمع صلصلة مثل صلصلة الجرس ويتفهم الرسول كل ما يلقى إليه من خلال هذه الصلصلة.

وهذه الصورة كانت من اثقل وأشد انواع الوحى على الرسول ﷺ حيث يقول عنها «أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو اشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال [٢]» .

يقول الشيخ محمد عبد الله دراز عن هذه الصورة «وتارة لا يرى الرسول الملك عند الوحى بل يسمع عند قدومه دوياً وصلصلة شديدة يعلم الله كهنها ومصدرها فيعتريه حالة روحية غير عادية لا يدرك الحاضرون منها إلا أماراتها الظاهرية كثقل بدنه وتفصد جبينه عرقاً، وربما سمعوا عند وجهه الكريم دويا كدوى النحل مدة نزول الوحى حتى إذا قضى الملك رسالة ربه وأوحى إلى النبى ما أوحى إما بالكلام أو بالنفث فى روعه إنفصم عنه وسريت عنه تلك الشدة التى كان يجدها فيرجع إلى حالته العادية وقد وعى ما قال الملك[٣]».

---

(١) اخرجه الخمسة إلا البخارى.

(٢) اخرجه البخارى فى صحيحه عن عائشة ام المؤمنين باب كيف كان بدء الوحى .

(٣) المختار م[illegible] السنة النبوية ص٢ ط. دمشق ١٣٩٧.

ونلاحظ مما سبق أن النوعين الأولين كانا بلا واسطة (إلا وحيا أو من وراء حجاب) وأن النوع الثالث كان بواسطة ملاك الوحى جبريل (أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء).

كما يلاحظ أن القذف أو الالقاء في القلب يكون فيه الالهام وأن الانواع الثلاثة وحى «إلا أنه تعالى خصص النوع الأول باسم الوحى لأن ما يقع فى القلب على سبيل الالهام فهو يقع دفعة فكان تخصيص لفظ الوحى به أولى [(١)] »

ومن التكليم وحى الرؤيا الصادقة فى المنام، ومن هذا الطريق أمر سيدنا إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل لقوله عز وجل﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[(٢)].

وكانت الرؤيا المنامية الصادقة هى بداية الوحى للنبى محمد ﷺ تقول السيدة عائشة رضي الله عنها فى حديث طويل «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا وجاءت كفلق الصبح.. [(٣)]».

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢٧ ص١٨٨.

(٢) سورة الصافات الآية ١٠٢.

(٣) اخرجه البخارى فى صحيحه باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ.

(٢) النبى والرســول

يقتضينا سياق الكلام أن نحدد فى البدء تعريف النبى والرسول، وأن نبين الفرق بينهما.

أ) التعريف فى اللغة:

لفظ النبى فى اللغة: مـأخوذ إما من النبأ - بالهمز - أى الخبر؛ لأنه منبأ أى مخبر من الله تعالى إذ هو المتلقى لوحى السماء.

أو هو منبئ أى مبلغ ومخبر للناس ما تلقاه عن طريق الوحى.

وإما أنه مأخوذ من النبوة - بفتح النون بلا همزة - وهو ما ارتفع من الأرض؛ وذلك لأن النبى مرتفع عن البشر لاختصاصه بالوحى ولسمو نفسه وطهارتها؛ ولأنه يرتفع بمن يتبعه إلى درجة عالية من الكمال النفسى والخلقى.

أو مأخوذ من النبى بسكون الباء والياء أى الطريق وذلك لأن النبى طريق موصل للحق فى كل شيء «فإن كان النبى مأخوذًا من النباوة والنبوة وهو الارتفاع لعلو شأنه واشتهار مكانه أو من النبى بمعنى الطريق لكونه وسيلة إلى الحق تعالى فالنبوة على الأصل كالأبوة وإن كان من النبأ وهو الخبر لإنبائه عن الله تعالى فعلى قلب الهمزة واوًا ثم الإدغام كالمروة»[1].

أما الرسول: فهو مأخوذ من الفعل المتعدى: أرسل يرسل مرسل - بالكسر - اسم فاعل. ومرسل - بالفتح - اسم مفعول.

ويعنى هذا أنه لابد من مرسل - بالكسر - ومرسل - بالفتح - ومرسل إليهم ورسالة.

---

(١) شرح المقاصد حـ٥ ص ٥ ت عبدالرحمن عميرة.

وحينما يذكر لفظ الرسول فى جانب الرسالات السماوية ينصرف إلى من أرسله الله برسالة إلى الناس وجعله واسطة وسفيرًا ليبلغ كلمة السماء، فالمرسل - بكسر السين - هو الله، والمرسل - بفتحها - هو الرسول.

ويذكر البغدادى رأيًا آخر فيقول: «إن الرسول هو من تتابع عليه الوحى من رسل اللبن إذا تتابع دره»[1].

ب) التعريف فى الاصطلاح:

يعرف النبى بأنه إنسان حر اختصه الله سبحانه وتعالى بسماع وحى بحكم شرعى تكليفى.

أما الرسول: فهو من اختصه الله سبحانه وتعالى بسماع وحى بحكم شرعى تكليفى وأمر بتبليغه.

وعلى هذا، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولاً حيث يشتركان فى الاختصاص بالوحى وينفرد الرسول عن النبى بالأمر بالتبليغ.

وقيل: إن الرسول أخص من النبى حيث يشترط أن يكون معه كتاب أو شريعة جديدة متممة أو ناسخة لبعض ما جاء فى شريعة من سبقه ولا يشترط هذا فى النبى، بل قد يدعو بكتاب وشريعة من سبقه.

يقول البغدادى: «والفرق بينهما: أن النبى من أتاه الوحى من الله عز وجل ونزل عليه الملك بالوحى، والرسول من يأتى بشرع على الابتداء أو بنسخ بعض أحكام شريعة قبله»[2].

ويذكر تعريف ثالث أن الرسول هو الذى يأتيه ملاك الوحى فى الظاهر ويأمره بتبليغ كلمة الله للناس أما النبى فليس كذلك بل يرى فى النوم أو يبلغه أحد الرسل أنه نبى[3].

(١) أصول الدين ص ١٥٤.

(٢) أصول الدين ص ١٥٤.

(٣) تفسير الفخر الرازى م١٢ جـ٢٢ ص ٥٠.

جـ) رأى المعتزلة:

ويرى بعض المعتزلة: أن تعريف الرسول تعريف للنبى، فكل رسول نبى وكل نبى رسول، ولا فرق بينهما إلا من حيث الوصف العنوانى، فإذا قال الله له: إنى أرسلتك أو يا أيها الرسول بلغ، فالوصف العنوانى له رسول.

ومن حيث إنه نبأ الناس وأخبرهم بما أمر بإخباره فهو نبى، وعلى هذا فالرسول هو النبى والنبى هو الرسول.

يقول القاضى عبدالجبار: «إن الأنبياء يتميزون عن غيرهم بما يأتون به من المعجزات التى توجب إتباعهم والرجوع إلى قولهم وفعلهم، وهذا لا يوجد فيمن ليس برسول وإن كان يؤدى عن الله تعالى»[1].

رد للأشاعرة:

وقد رد الأشاعرة على هذا الرأى الأخير فقالوا: إن العطف لا يكون إلا بين المتغايرين. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[2]. وهذا يدل على أن كلاً منهما غير الآخر، وما يؤكد أن الرسول غير النبى أنه سئل ﷺ عن عدد الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا - فقيل: فكم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جمًا غفيرًا»[3].

ولعلنا نميل إلى القول: بأن الرسول هو من أتى بشريعة مجددة وكان معه كتاب متمم ومكمل لمن قبله وناسخ لبعض الأحكام التى سبقته.

أما النبى فهو أعم من الرسول حيث أتى ليطبق وليسير فى دعوته وفقًا لمن جاء قبله من الرسل ومتبعًا لكتبهم.

---

(١) المغنى جـ١٥، ص ١٢.

(٢) سورة الـ[illegible] ٥٢.

(٣) أخرجه أ[illegible] المسند ٥/١٧٨ - ١٧٩ - ٢٦٦.

(٣) حكم إرسال الرسل

يقول الأشاعرة: إن إرسال الرسل جائز لأنه تفضل منه تعالى وهو سبحانه يفعل ما يشاء ويختار، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ويقول المعتزلة: إن الإرسال واجب[١] لأنه صلاح للعبد وكل ما كان كذلك كان واجبًا.

أما الصابئة والبراهمة وغيرهم من المشككين فيقولون: بأن إرسال الرسل مستحيل، لأن العقل يغنى عنه وما كان كذلك كان إرساله عبثًا والعبث على الله مستحيل فالإرسال مستحيل، وإليك هذه الآراء بتفصيل موجز:

أ) رأى الأشاعرة:

العقل البشرى فى بحثه عن العلل والمعلولات والعلاقات بين الأشياء فى الطبيعة حقق الكثير من النجاحات وقذف بالإنسان إلى مجاهل الكون، ولم يكن ذلك إلا بناء على استقراءات خاصة وتجارب معقدة.

ولقد حاول بكل ما لديه من علم ومعامل وتجارب وأموال أن يوفر الظروف الصالحة لخلق الحياة فى حشرة صغيرة أو فى خلية واحدة، وحاول أن يوقف الموت عن أعز الأعزاء، وراحت محاولاته سدى تشهد بمحدوديته فى هذا الوجود.

ولكل مزهو بعقله أن يسأل نفسه هذه الأسئلة: هل يقدر على معرفة أين ومتى يموت؟ وبأى سبب يكون موته؟ هل يستطيع أن يهب الشفاء لعزيز استعصى على الطب مرضه؟ هل يقدر على صنع كل الأشياء التى يريدها؟ هل يعرف حقيقة ما يحيط به من مادة؟ ثم هل يعرف حقيقة الروح؟ ومع إجابة العقل على الأسئلة السابقة أحسب أن أى عاقل يوافقنى على أن أى

(١) يعرف القاضى عبدالجبار وهو من شيوخ المعتزلة الواجب بقوله: «ما إذا لم يفعله القادر عليه استحق الذم... وإن شئت قلت فى حد الواجب ما للإخلال به مدخل فى استحقاق الذم» شرح الأصول الخمسة ص ٣٩.

صانع يعرف كل جزئيات صنعته ويعلم كيف تتحرك هذه الجزئيات لتحقق الهدف من وجودها.

والخالق الحكيم سبحانه وتعالى خلق الإنسان على غير مثال سبق ويعلم إلى أى هدف يتجه كل جزء فيه، ويعلم أن العقل قاصر عن الإحاطة بكل ما حوله وما حوله يكون الجانب المادى.

أما عن الجانب الروحى فكله غيبيات يضعف العقل عن إدراك كنهها. وهـذه الغيبيـات هى أساس أمنـه النفسى، وعليها تنبنـى المسئوليـة ويكـون الجزاء.

وإذا كان الإنسان ضعيفًا بعقله وكان فى نفس الوقت مسئولاً عن كل لحظة دب فيها على هذه الأرض منذ بلوغه وكانت المسئولية لا تضيع هملاً وإنما يعقبها الحساب، وحتى لا يقول الإنسان: إن عقلى ضعيف وأنت الذى خلقته هكذا.

أرسل له ربنا عز و جل رسلاً مبشرين ومنذرين ليقودوه إلى أسلم الطرق نحو الحق والخير وزودهم بكتب مقدسة تهدى للأمثل والأقوم فى كل شىء وأيدهم بالمعجزات وجعل خاتم رسالاته محمداً ﷺ.

وإذ كنا قد علمنا أنه سبحانه وتعالى متكلم وكلامه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بحرف من الحروف ولا بصوت من الأصوات، ولا شكل من الأشكال بها يكون الأمر والنهى والوعد والوعيد، كذلك علمنا أنه تعالى متصف بالقدرة وقدرته شاملة.

والإنسان لا يقدر على معرفة الأمر والنهى إلا بالحروف والأصوات، فإنه بقدرته تعالى يخلق الحروف والأصوات التى تدل على كلامه النفسى وبذا يعرف الإنسان ما يريده الله سبحانه وما ينهى عنه.

ثم إنه تعالى يختص من عباده من يحمله كلمة السماء ويأمره بالتبليغ ولكى يكون [illegible]ـول مصدقًا بين الناس فإنه تعالى يؤيده بالمعجزات عند

دعواه النبوة، ويجعل هذه المعجزات خارقة للعادة ويتعذر على غير الرسول الإتيان بمثلها.

وعلى هذا نقول: إن إرسال الرسل فعل من أفعال الله سبحانه وتعالى للدلالة على كلامه النفسى صادر عن قدرته وإرادته وكل ما كان كذلك فإنه يكون جائزًا «وإن ورود التكليف بالإيجاب والحظر والإطلاق والمنع ممن له الملك فى مماليكه ليس مما تأباه العقول ولا مما تدفعه الدلائل، إذ لكل مالك ولاية التصرف فى مملوكه بقدر ماله من الملك فيه، ولله تعالى فى كل جزء من أجزاء العالم وشخص من أشخاص بنى آدم ملك التخليق إذ هو الموجد له من العدم، المخترع له لا عن أصل فكان له أن يتصرف فى كل من ذلك بأى وجه شاء من وجوه التصرف، منعًا كان أو إطلاقًا، حظرًا كان أو إيجابًا، ثم يعلمهم ذلك بأى طريق شاء، إن شاء بتخليقه العلم بذلك التكليف وإن شاء بإرسال رسول يوحى إليه ذلك ويأمره بالتبليغ إلى العقلاء المميزين من عباده... ولا يستحيل ذلك منه إذ هو المتصرف فى ملكه»[1].

يقول أبو حامد الغزالى:

«وبرهان الجواز أنه مهما قام الدليل على أن الله تعالى متكلم وقام الدليل على أنه قادر لا يعجز على أن يدل على كلام النفس بخلق ألفاظ وأصوات ورقوم أو غيرها من الدلالات، وقد قام دليل على جواز إرسال الرسل فإنا لسنا نعنى به إلا أن يقوم بذات الله تعالى خبر عن الأمر النافع فى الآخرة والأمر الضار بحكم إجراء العادة ويصدر منه فعل هو دلالة الشخص على ذلك الخبر وعلى أمره بتبليغ الخبر ويصدر منه فعل خارق للعادة مقرونا بدعوى ذلك الشخص الرسالة فليس شىء من ذلك محالاً لذاته فإنه يرجع إلى كلام النفس وإلى اختراع ما هو دلالة على الكلام وما هو مصدق الرسول»[1].

---

(١) تبصرة الأدلة للنسفى ص ٤٩٠، تحقيق [illegible]

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢١.

ب) رأى المعتزلة:

ذهب المعتزلة إلى القول: بوجوب بعثة الرسل والأنبياء، وقد بنوا رأيهم هذا على قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين ووجوب فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى.

فقالوا: إن العقل يحكم بحسن بعثة الرسل وما حسنه العقل فقد أوجبه، على هذا فبعثة الرسل واجبة، كذلك فإن فى إرسال الرسل صلاح للعباد لأنهم لا يعرفون كثيرًا من أمور الدنيا والآخرة ولا طريق لهم إلى معرفة ذلك إلا بإرسال الرسل والله سبحانه وتعالى عادل والعادل لا يظلم، وحكيم والحكيم لا يسفه وما كان كذلك وجب عليه أن يرسل للناس ما يعرفهم طريق الصلاح. يقول القاضى عبدالجبار المعتزلى: «إذا علم أن صلاحنا يتعلق بهذه الشرعيات فلابد من أن يعرفنا إياها لكيلا يكون مخلاً بما هو واجب عليه، والأصل فى هذا الباب أن نقول: إنه قد تقرر فى عقل كل عاقل وجوب دفع الضرر عن النفس، وثبت أيضًا أن ما يدعو إلى الواجب، ويصرف عن القبيح فإنه واجب لا محالة، إذا صح هذا وكنا نجوز فى الأفعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات، وفيها ما إذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك، ولم يكن فى قوة العقل ما يعرف به ذلك ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف، وبين ما لا يكون كذلك، فلابد من أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الأفعال كيلا يكون عائدًا بالنقض على غرضه بالتكليف، وإذا كان لا يمكن تعريفنا ذلك، إلا بأن يبعث إلينا رسولاً مؤيدًا بعلم معجز دال على صدقه فلابد أن يفعل ذلك، ولا يجوز الإخلال به، ولهذه الجملة قال مشايخنا: «إن البعثة متى حسنت وجبت»[1].

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٣.

جـ) الرد عليهم:

ويرد عليهم ببطلان القول بالتحسين والتقبيح العقليين، وإنما الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، وأنه تعالى خالق كل شىء ولا يجب عليه شىء فإن أعطانا فبمحض فضله، وإن منعنا فبمحض عدله، ثم إن الوجوب على الله يشعر بالنقص، وهو سبحانه وتعالى منزه عنه.

يقول أبو حامد الغزالى:

«إنه تعالى لا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد خلافًا للمعتزلة، فإنهم حجروا على الله تعالى فى أفعاله وأوجبوا عليه رعاية الأصلح، ويدل على بطلان ذلك.. أنا نريهم من أفعال الله تعالى ما يلزمهمْ الاعتراف به بأنه لا صلاح للعبيد فيه فإنا نفرض ثلاثة أطفال مات أحدهم وهو مسلم فى الصبا، وبلغ الآخر وأسلم ومات مسلمًا بالغًا وبلغ الثالث كافرًا ومات على الكفر، فإن العدل عندهم أن يخلد الكافر البالغ فى النار، وأن يكون للبالغ المسلم فى الجنة رتبة فوق رتبة الصبى المسلم.

فإذا قال الصبى المسلم: يا رب لم خفضت رتبتى عن رتبته؟ فيقول: لأنه بلغ فأطاعنى وأنت لم تطعنى بالعبادات بعد البلوغ. فيقول: لأنك أمتنى قبل البلوغ فكان صلاحى فى أن تمدنى بالحياة حتى أبلغ فأطيع فأنال رتبته فلم حرمتنى هذه الرتبة أبد الآبدين، وكنت قادرًا على أن توصلنى لها؟ فلا يكون له جواب إلا أن يقول: علمت أنك لو بلغت لعصيت وما أطعت، وتعرضت لعقابى وسخطى فرأيت هذه الرتبة النازلة أولى بك وأصلح لك من العقوبة.

فينادى الكافر البالغ من الهاوية ويقول: يا رب أو ما علمت أنى إذا بلغت كفرت؟ فلو أمتنى فى الصبا وأنزلتنى فى تلك المنزلة النازلة لكان أحب إلى من تخليدى فى النار وأصلح لى فلم أحييتنى وكان الموت خيرًا لى؟

فلا يبقى له جواب البتة... وبه يظهر على القطع أن الأصلح للعباد كلهم ليس بواجب»(١).

د) رأى البراهمة والصابئة وغيرهما من المتشككين:

يذهب البراهمة والصابئة وغيرهما إلى القول: باستحالة إرسال الرسل، وقد اعتمدوا فى قولهم هذا على عدد من الشبه نعرض بعضاً منها مع الرد على كل شبه.

الشبهة الأولى:

إن الرسول إذا أتى بما تقتضيه العقول ففى العقول عنه غنية، ويكون الإرسال عبثًا والعبث على الله محال.

وإن جاء مخالفًا لما تقتضيه العقول فإنه يؤخذ بحكم العقل كما أنه يتعذر تصديق الرسول؛ لأن التصديق لا يتم إلا بالعقل، فما هى إذًا وسيلة تصديقه.

ويبنون شبهتهم هذه على قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين. فما حكم العقل بتحسينه يكون حسنًا ويعمل به، وما حكم العقل بتقبيحه يكون قبيحًا ولا يؤخذ به، وما توقف فيه العقل فإنه يعمل به عند الحاجة، لعدم وضوح الضرر، ويترك عند انعدام الحاجة.

الرد على الشبهة الأولى:

ويرد على هذا الكلام: بأن العقل لا يدرك حسن الأفعال، أو قبحها وإنما الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، ثم إن الرسول إذا جاء بما تقتضيه العقول كان بمثابة اجتماع أكثر من دليل على مدلول واحد، وهذا يكون سببًا فى تقوية الحكم وتأكيده ومانعًا لأعذار المكلفين، يقول تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٢).

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٩٠.

(٢) سورة ال[illegible] ١٦[illegible].

وعقل الإنسان مهما ارتقى فإنه لا يعلم كثيرًا من الأشياء، وإذا علم بعضها إجمالاً فإن الرسول يأتى بتوضيح هذا الإجمال وتفصيله، وبيان الضار والنافع منه، كما أنه يعرف الإنسان بالأشياء التى يتعذر على العقل معرفتها. ومن أهمها: الغيبيات التى هى أساس المسئولية والثواب والعقاب، يزيل الشبه التى يصعب على العقل دفعها ويبين حسن أو قبح ما توقف فيه العقل.

وحينما يأتى الرسول فإنه يؤيد بمعجزات تصديقًا لدعوته، والعقل حينما يتأمل هذه المعجزات ويتخلى عن الألف والعادة؛ فإنه لا يجد أمامه سوى التسليم لدعوة الرسول والتصديق بها.

يقول سعد الدين التفتازنى:

«إن ما يوافق العقل قد يستقل بمعرفته فيعاضده النبى ويؤكده فيكون بمنزلة الأدلة العقلية على مدلول واحد، وقد لا يستقل فيدل عليه ويرشده، وما يخالف العقل قد لا يكون مع الجزم به فيدفعه النبى،أو يرفع عنه الاحتمال، وما لا يدرك حسنه ولا قبحه قد يكون حسنًا يجب فعله، أو قبيحًا يجب تركه. هذا مع أن العقول متفاوتة فالتفويض إليها مظنة التنازع، والتقاتل ومفض إلى اختلال النظام»[1].

ويقول أبو حامد الغزالى:

«أما الشبهة الأولى فضعيفة، فإن النبى ﷺ يرد مخبرًا بما لا تشتغل العقول بمعرفته، ولكن تستقل بفهمه إذا عرف، فإن العقل لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد، ولا يفرق بين المشقى والمسعد. كما لا يستقل بدرك خواص الأدوية والعقاقير، ولكنه إذا عرف فهم وصدق، وانتفع بالسماع فيجتنب الهلاك، ويقصد المسعد كما ينتفع بقول

---

(١) شرح المقاصد جـ٢ ص ١٧٥.

الطبيب في معرفة الداء والدواء، ثم كما يعرف صدق الطبيب بقرائن الأحوال وأمور أخر فكذلك يستدل على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام بمعجزات وقرائن»[١].

الشبهة الثانية:

يقولون: إن إرسال الرسل عبث والعبث على الله تعالى محال وما أدى إلى المحال فهو محال.

وذلك لأن الرسول حينما يأتي لابد من دليل لكي يصدقه الناس؛ فإذا كلمهم الله مشافهة، وقال: إنه رسولي إليكم فلا حاجة للرسول؛ لأنه في هذه الحالة يمكن له سبحانه وتعالى أن يأمرهم وينهاهم مشافهة كما يمكن أن يبين لهم ما يضرهم وما ينفعهم مشافهة ويكونون بذلك في غنى عن الرسول.

وإن أيده بأمر خارق للعادة فإن هذا الأمر لا يتميز عن السحر وعجائب الأشياء، والسحر وعجائب الأشياء في مقدور السحرة ومن عنده علم بخصائص الأشياء فلا يتميز ما يأتي به الرسول عن غيره ممن يأتي بالخوارق، وبذا لا يحصل تصديق فيكون إرساله عبثًا والله منزه عن العبث.

الرد على الشبهة الثانية:

ويرد عليهم: إن حكمة الله سبحانه قضت أن لا يكلم الناس مشافهة، وإنما يؤيد سبحانه رسوله بما يجعله مصدقًا بين الناس بمعجزات خارقة للعادة.

وفرق بين ما يؤيد به الرسول من المعجزات، وما يفعله السحرة أو من عندهم علم بخصائص الأشياء.

[illegible] ص ١٢٣.

فإن الأمر الذى يؤيد بـه الرسول تصديقًا لدعـواه، وتأكيـدًا أنه مبعوث من عنـد الله فوق أن هـذا الأمر خـارق للعادة فإن الرسول يتحدى به ويعجز القوم عـن الإتيان بمثله، وهـذا من أصـدق الدلالة على أنـه من فعـل الله سبحانه وتعالى.

وعلى سبيل المثال:

فـقـد بعث مـوسى - عليه السلام - وسط قـوم اشتـهروا بالسـحر. فجاءت معـجزته من جنس مـا اشتـهروا به إلا أنها ليست سحرًا أو تخـيلاً، وإنما حقيقة من عند الله، وتحداهم أن يفعلوا مثله فخر السحرة كلهم ساجدين لعـجزهم عن الإتيـان بمثل مـا أتى مـوسى ولإيمانهم أن مـثل هذا الفعل لا يصدر عن بشر.

وبعـث عـيسى - عليه السلام - وسـط قـوم اشتـهروا بالطـب فـأبـرأ الأكمـه والأبـرص وأحيا الموتى بـإذن الله، ولم يقدروا على فعل مثله لأنه من عند الله.

وبعـث محمـد ﷺ وكـانت له معجزات حسية كثيرة رآها من عاش فى عـصـره ﷺ، ثم هـو فى نفس الـوقت يتـحداهم بالمعـجزة الخـالدة: القـرآن الكريم وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيـان، يتحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله، فعجزوا وظل فى تحديهم وتسفيه عقولهم وتحريضهم ولما لم يقدروا على الرد على التحدى قاوموه بالعـدوان ولو كـان فى مـقـدورهم أن يأتوا بمثل مـا أتى به مـحمـد ﷺ لما رفعوا السيف.

وعلى هذا نقول: إن المعجـزة من الله وهى بمثـابة التصديق لرسوله وتتميز عن السحر ومعرفة خصائص الأشياء بأنها لا تأتى بالتعلم كما أنها تكون مقرونة بالتحدى مع عجز الغير عن الإتيان بمثلها.

يقول أبو حامد الغزالي:

«فأما الشبهة الثانية: وهو عدم تمييز المعجزة عن السحر والتخييل فليس كذلك فإن أحداً من العقلاء لم يجوز انتهاء السحر إلى إحياء الموتى وقلب العصا ثعباناً، وفلق القمر وشق البحر وإبراء الأكمه والأبرص، وأمثال ذلك القول الوجيز. إن هذا القائل: إن ادعى أن كل مقدور لله تعالى فهو ممكن تحصيله بالسحر فهو قول معلوم الاستحالة بالضرورة. وإن فرق بين فعل قوم وفعل قوم فقد تصور تصديق الرسول بما يعلم أنه ليس من السحر(١).

الشبهة الثالثة:

يقولون: إن بعثة الرسل مستحيلة عقلاً؛ لأنها تتوقف على علم الرسول أن المرسل له هو الله تعالى، ولا طريق لهذا، وذلك لأنه: إذا كان مبلغاً من الله تعالى فلابد أن يسمع أمره وكلامه ثم يبلغ عنه أو يسمع مما سمع منه، فيم عرف النبى بأن المتكلم هو الله؟ أو بم عرف أن المتوسط ملك يوحى إليه؟ وبم عرف ذلك الملك أن الرب هو الآمر المتكلم(٢).

الرد على الشبهة الثالثة:

ويرد عليهم: «أن الرسول يعلم ويتأكد أن الباعث له هو الله سبحانه وتعالى حيث يخلق فيه علماً ضرورياً بذلك ثم يؤيده بمعجزات لا يقدر أحد على الإتيان بمثلها ويأ رة بالتحدى، وخرق العادة مع التحدى وعجز البشر عن الإتيان بمثل ما جاء به الرسول يؤكد له أنه مرسل من الله وأن الوحى يأتيه من الله وأن الذى يكلفه بالدعوة هو الله ولا استحالة فى ذلك إطلاقاً، يقول شارح المواقف «إن المرسل ينصب دليلاً يعلم به الرسول أن القائل له

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٩٦.

(٢) نهاية الإقدام للشهرستانى ص ٤١٩.

أرسلتك: هو الله تعالى بأن يظهر له آيات ومعجزات يتقاصر عنها جميع المخلوقات وتكون مفيدة له ذلك العلم أو يخلق علمًا ضروريًا فيه بأنه المرسل والقائل»[١].

الشبهة الرابعة:

يقولون: إن الذى يأتى بالوحى للرسول إما أن يكون جسمانيًا وإما أن يكون روحانيًا، فإن كان جسمانيًا وجب أن يراه الجميع وإن كان روحانيًا فإن إلقاء الوحى بطريق التكليم لا يسمع منه لاستحالة أن يقع منه وهو روحانى كلام لأن ذلك من خواص الأجسام.

الرد على الشبهة الرابعة:

إن الذى يأتى بالوحى جسمانى وهو جبريل عليه السلام وقد رآه صحابة الرسول ﷺ حينما جاء يسأل عن معنى الإيمان، والإسلام والإحسان، وقال الرسول ﷺ: إنه جبريل أتاكم ليعلمكم أمور دينكم، والرسول معصوم من الكذب، وإذا كان الصحابة لم يرو جبريل فى جميع الأحوال فإن فى قدرة الله أن يخلق ما يمنع من رؤيته. يقول شرح المواقف: «جاز أن يكون الملك جسمانيًا ولا يخلق الله رؤيته فى الحاضرين فإن قدرته لا تقصر عن شىء»[٢].

الشبهة الخامسة:

يقولون: إنه يستحيل الاتصال بين الله تعالى وبين البشر والقول بثبوت الرسالة يوجب هذا الاتصال، وهو ممنوع وبناء عليه فالرسالة مستحيلة، وذلك لأنا نحتاج فى معرفة أوامر الله

---

(١) شرح المواقف جـ٣ ص ١٨٣.

(٢) شرح المواقف جـ٣ ص ١٨٣.

ونواهيه إلى متوسط، وهذا المتوسط يجب أن يكون روحانيًا، حتى يتحقق اتصاله بالله أما إذا كان جسمانيًا فلا يتحقق هذا الاتصال لتساوى الجسمانيات فى كل شىء.

الرد على الشبهة الخامسة:

ويرد عليهم بسؤال: هل آمنتم بنبوة شيث وإدريس؟ فإن قالوا: نعم. فقد لزمهم الإيمان ببقية الرسل، وإن قالوا: لم نؤمن بهما وإنما اتبعناهما على أنهما حكيمان.

قيل لهم: فما وجه التمييز بينكم وبينهما مع أنهما متساويان فى البشرية مثلكم.

ونقول لهم: إن إرسال الرسل ليس مستحيلاً؛ وذلك لأن الرسول فيه طرفان:

طرف جسمانى: يأكل مثلما نأكل، ويشرب مثلما نشرب، ويتعامل مثلما يتعامل البشر.

وطرف روحانى يشارك به الملائكة، وبهذا الطرف الأخير يتحقق الاتصال بينه وبين الله فيتلقى وحيه ليبلغه إلى الناس.

ونذكر شبهتين بالنص لوضوحهما وأهميتهما ووضوح الرد عليهما:

الشبهة السادسة:

«إن العمدة فى باب البعثة هو التكليف، وهو عبث لا يليق بالحكيم إذ لا يشتمل على فائدة للعبد لكونه فى حقه مضرة ناجزة ومشقة ظاهرة، ولا للمعبود لتعاليه عن الاستفادة والانتفاع، وأيضًا فيه شغل للقلب عما هو غاية الأعمال ونهاية الكمال..... .

والجواب:

إن مضاره الناجزة قليلة جدًا بالنسبة إلى منافعه الدنيوية والأخروية الظاهرة لدى الواقفين على ظواهر الشريعة النبوية..... وإذا تأملتم فالتكليف صرف إلى ما ذكرتم لا شغل عنه على ما توهمتم.

الشبهة السابعة:

يقولون: إنا نجد الشرائع مشتملة على أفعال وهيئات لا يشك أن الصانع الحكيم لا يعتبرها ولا يأمر بها كما تشاهد فى الحج والصلاة.... .

والجواب:

أنها أمور تعبدية اعتبرها الشرع ابتلاء للمكلفين وتطويعًا لنفوسهم... ولعل فيها حكمًا لا يعلمها إلا الله والراسخون فى العلم»(١).

---

(١) شرح المقاصد جـ٥ ص ١٠.

(٤) إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ

العقل وهو أبهى وأقوى ما فى الإنسان لم يستطع حتى الآن أن يعرف كل شىء فى الجانب المادى الملموس له، فكيف إذا يتعامل مع الجانب الروحى الذى هو أساس أول للأمن فى الدنيا ومبدأ المسئولية والجزاء فى الآخرة. لهذا فإن المشرع الحكيم خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه، ويعلم أن التوازن بين الروح والجسد فيه لن يكون إلا بإرسال الرسل، ويعلم أن العقل سيحاول التشكيك فيهم، ولذا لابد من إعجاز ربانى يتحرك به الرسل بين قومهم وهم فى قمة التحدى لأى عقل، وللعقل الذكى نقول:

أن محمداً ﷺ جاء هادياً ومبشراً ونذيراً ومخرجاً للناس من ظلمات الشك والحيرة إلى نور اليقين والإيمان، جاء بدعوة هى خاتمة الدعوات وبكتاب هو خاتم الكتب.

هذه هى القضية، ولكل قضية أدلة على ثبوتها، وإذا كانت قضية إلهية فمع الأدلة تكون المعجزات.

وللعقل أن ينظر وللعقل أن يحكم، لكننا قبل النظر والحكم نطالب العقل بالتخلص من الأوثان، ونعنى بذلك الألف والعادة والهوى والتعصب والبغى والحسد والجحود.

وإذا استطاع ذلك فله أن يسأل:

هل ما ادعاه محمد ﷺ فى حيز الإمكان أم ادعى أمراً مستحيلاً؟

هل أتى ببينة على ما يقول طابقت دعواه؟

هل انتفت دواعى الجرح عن بينته؟

هل سلمت الدعوى والبينة عن أى مناقض؟

٢) أجوبة مبسطة:

وليبحث العقل عن الإجابة وسيجد أن محمدًا ﷺ ادعى أنه رسول من الله إلى الناس كافة فهل فى هذه الدعوة استحالة؟

لقد رأينا العقل فى قمة القصور مع الجانب الروحى، وأن سنة الله فى خلقه أن لا يحاسب إلا بعد إرسال الرسل ولذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(١). ورأينا الرسل تأتى مع كل أمة. ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢). وقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾(٣) وعلمنا أن إرسال الرسل جائز عقلاً وواقع فعلاً.

فهل ابتدع محمد ﷺ أمرًا؟ أم جاء موافقًا لسنن الله فى خلقه القائل فى كتابه الكريم: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ (٤). والقائل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٥).

كانت دعوى نبينا ورسولنا محمد ﷺ امتدادًا للرسالات السماوية وخاتمة لهذه الرسالات.

ولقد كان مجيئه موافقًا وقت الحاجة إليه، فالزمن زمن فترة من الرسل والناس فى ظلمات الجهالة والشرك يتخبطون.

وعن بينته، فقد طابقت دعواه، فقد جاء موسى عليه السلام والقوم يشتغلون بالسحر فألقى عصاه تحديًا وإعجازًا فإذا هى تلقف ما يأفكون وضرب بعصاه الحجر فإذا بينابيع الماء تنفجر من الحجر الأصم.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ١٥.

(٢) سورة فاطر الآية: ٢٤.

(٣) سورة المؤمنون الآية: ٤٤.

(٤) سورة الأحقاف الآية : ٩.

(٥) سورة يونس الآية ٢.

وجاء عيسى ﷺ والقـوم يتبـاهون بما وصلوا إليـه من طب، فـأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله، وعجز القوم عن الإتيان بما أتى به موسى وعيسى عليهما السلام.

أما محمد ﷺ فلم يأت بمعجزات حسية فحسب، بل أتى بمعجزات عقليـة أيضًا، ونقلت المعجزات بنوعيها إلينا إما بالتواتر الصادق وإما بصحة الأخبار.

ولقد كان من أهم المعجزات العقلية لمحمد ﷺ: القرآن الكريم الذى تحدى به القوم وهم أرباب البيان والفصاحة والبلاغة تحداهم أن يأتوا حتى بسورة من مثله فعجزوا، وما يزال القرآن الكريم بيننا يتحدى كل الأجيال وجميع الأجناس.

وإعجاز القرآن موضوع سنتحدث عنه فيما بعد.

ب) معجزات حسية لمحمد ﷺ:

ويكفينا هنـا أن نذكـر بعض المعجزات الحسيـة التى تؤكد أنـه رسول الله.

من هذه المعجزات ما كان خارج ذاته يقول السيد الشريف:

«قد تواتر القول بانشقاق القمر على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[1] وقد روى الانشقاق جمع كبير من الصحابة منهم: عبدالله بن مسعود. قالوا: قد انشق القمر شقين متباعدين بحيث كان الجبل بينهما وكان ذلك فى مجال التحدى.

وعن كلام الجمادات يقول: قال أنس بن مالك: «كنا عند رسول الله ﷺ فأخذ كفًا من حصى فسبحن فى يده حتى سمعنا التسبيح».

---

(١) سورة الق[illegible] ١.

ولقد شهدت الشجرة والذئب له ﷺ بالنبوة، والأمر مروى عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة وهما ثقات[1].

ولقد أشبع ﷺ الخلق الكثير من الطعام القليل، كما نبع الماء من بين أصابعه، يقول أنس بن مالك: أوتى رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء قليل وهو بقباء فوضع يده فيه فلم تدخل فأدخل أصابعه الأربع وقال للناس: هلموا إلى الشراب.

قال أنس: فقد رأيت الماء وهو ينبع من بين أصابعه فلم يزل الناس يردون حتى رووا.

وجاء فى الصحيحين عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع من جذوع النخل فلما صنع المنبر وقام عليه سمعوا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النبى ﷺ فوضع يده عليه فسكت.

وفى الصحيحين أيضًا عن جابر: أن شاته التى ذبحها لرسول الله مع صاع من شعير أكل منها من كان يحفر الخندق وهم ألف لأن رسول الله باركها. يقول جابر فى النهاية: وإن برمتنا لتغط كما هى وإن عجيننا ليخبز كما هو.

ومن المعجزات الحسية ما كان فى ذاته مثل: النور الذى كان ينتقل من ظهر إلى بطن إلى ظهر إلى أن جاء ﷺ، وما كان من الخاتم بين كتفيه.

ومن هذه المعجزات: ما كان فى أخلاقه ﷺ. من ذلك: حلمه ووفائه وصدقه وذكائه وزهده وسخائه وأمانته وشجاعته وعفافه وصادق صبره وبارع حفظه وقوله بجوامع الكلم إذا قال ومراعاته لشرائط الصمت إذا صمت وتصديقه المواعيد إذا وعد وطهارة أخلاقه كلها صبيًا وشابًا وكهلاً. ثم كانت هذه الأخلاق الفاضلة مجتمعة فيه على طول الأيام وتصاريف

---

(١) شرح المواقف جـ٣ ص ٢٠٠.

الأحوال لم يتغير عن شيء منها ولا وجد فيه ضدها وكان هذا دليلاً أن أخلاقًا مثل هذه لا تكون إلا عن تربية ربانية وليست عن تكلف أو اصطناع.

وتدل أيضًا على أنه مؤيد بقوة سماوية ومكرم بمعونة إلهية ليشتغل بالقيام بما فرض ويتحمل أعباء ما حمل.

جـ) دواعي الجرح منتفية عن دعواه:

وعن دواعي الجرح فهي منتفية عن دعواه ﷺ، فلم يعرف عنه كفر بالله ولا فسق في أوامر الله ولا كذب في أحكام الله ولا جهل بشريعة الله ولم يكن أبدًا ساحرًا ولا شاعرًا ولا كاهنًا.

د) سلامة البينة عن المناقضة:

وقد سلمت البينة عن أي مناقضة فقد تحدى بالقرآن الكريم جميع الناس وأمهلهم وحرضهم على الإتيان بمثله أو حتى بسورة من مثله وهم البلغاء والفصحاء ولا يزال القرآن يتحدى فهل أمكن معارضته كل الاستقراءات تقول: لا. وهل يمكن للعقل الآن أن يناقضه؟ لنترك الإجابة للعقل ونحن في ثقة من عجز كل العقول لأن الخالق هو المتحدي وهو القائل: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[١].

هـ) دعوة الرسول سالمة عن المناقضة:

لقد جاء ﷺ مصدقًا لمن قبله من الرسل ومتممًا وخاتمًا لكلمة السماء إلى الأرض ولم يدع عليه الصلاة والسلام أنه ملاك من السماء وإنما علم القوم أنه بشر مثلهم وأنه لا يزيد عليهم إلا بالوحي وأن الله تعالى يأمره بدعوة الناس إلى الوحدانية المطلقة لله سبحانه ونبذ الشرك ولم يقم بالتبليغ إلا امتثالاً لأمر ربه.

---

(١) سورة [illegible]

يقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾(١).

و) معجزات عقلية لنبينا محمد ﷺ:

ذكرنا بإيجاز بعض المعجزات الحسية للرسول ،ﷺ وبنفس الإيجاز نعرض بعض المعجزات العقلية.

وبداية نقول: إن محمداً ﷺ كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ولم يتعلم كتب السابقين، ولم يشتغل أبداً بالسحر أو الشعر أو التنبؤ بالغيب، بل هو لم يترك القوم إلا مرة واحدة فى سفر قصير إلى الشام مع التجارة، ولم يكن قبل الدعوة متكلماً فى أمر من الأمور التى بدأ مع البعثة يدعو الناس إليها، ولم يكن محباً للسلطة أو الزعامة أو المال.

ولو اشتغل بأمر من الأمور السابقة قبل بعثته لأظهره معاشروه وحاربوه به بعد أن عاداهم معاداة الدين وهى أشد أنواع العداوة وسفه أحلامهم، لكنهم حينما عجزوا عن مقارنة الحجة بالحجة أخذوا يكيدون له ويتآمرون على حياته وحياة من اتبعه ويحاربونه بكل عددهم وعتادهم.

ولو لم يكن محمد رسولاً من عند الله لما تحمل مع فقره وفاقته وقلة أعوانه كل هذه المشاق، ولو لم يكن محمد رسولاً من عند الله لما قال للقوم الذين آذوه أشد الإيذاء وتربصوا لدعوته، لما قال لهم وهو فى قمة الانتصار عليهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

إخبار عن الماضى:

فقد قص على القوم أمر الأمم السابقة مع أنبيائهم، كما وردت فى الكتب المقدسة، كالتوراة والإنجيل وهو النبى الأمى الذى لم يقرأ هذه الكتب

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧.

ولم يجالس أحداً ممن له علم بذلك، وكان إخباره على نحو ما علمه أحبار اليهود وعلماء النصارى من غير زيادة ولا نقصان.

تنبؤات بالمستقبل وكشف لمواقف:

نذكر بعض هذه التنبؤات وبعض هذه المواقف من خلال السنة المطهرة:

يقول ﷺ : «زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها»(١).

وقد تحقق قوله ﷺ فى عهد الخلفاء الراشدين ويوم أن تقوى العقيدة فى قلوبنا ونعيش بها ولها سيتحقق الكثير.

ويقول ﷺ لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية»(٢)، وقتل رضي الله عنه يوم صفين.

ويقول ﷺ لعلى بن أبى طالب: «أشقى الناس عاقر الناقة والذى يخضب من هذا هذه»(٣)، يعنى الذى يضربك على رأسك فيخضب لحيتك من دم رأسك، فضرب على - رضي الله عنه - على رأسه حين قتل.

ويقول ﷺ: «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم يؤتى الله الملك من يشاء»(٤) وكانت مدة الخلافة كما قال.

ولقد ضلت له عليه الصلاة والسلام ناقة فأقبل يسأل الناس، فقال المنافقون: هذا محمد يخبركم خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته،

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ٤/٢٢١٥.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٤/٢٢٣٥ ـ ٢٢٣٦.

(٣) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء فى ترجمة سعيد بن جبير ٤/٣٠٧. وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/١٤ كتاب التفسير باب فى تفسير سورة المائدة.

(٤) أخرجه [illegible] سننه كتاب السنة باب فى الخلفاء ٤/٢١٠.

فصعد ﷺ المنبر، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه حكى قولهم ثم قال: إنى لا أعلم إلا ما أعلمنى ربى وقد أخبرنى أنها فى وادى كذا يتعلق زمامها بشجرة»[١]، وذهب الناس فوجدوها كما قال عليه الصلاة والسلام.

ومن ذلك أيضًا قوله عليه الصلاة والسلام للعباس حين أسر: «أفد نفسك وابنى أخيك فإنك ذو مال، فقال العباس: لا مال عندى، فقال : فأين المال الذى وضعته فى مكة عند أم الفضل وليس معكما أحد؟ فقلت: إن أصبت فى سفرى فللفضل كذا ولعبدالله كذا. فقال العباس: والذى بعثك بالحق نبيًا ما علم بهذا أحد غيرى وإنك لرسول الله حقًا وأسلم»[٢].

وبعث خالد بن الوليد إلى أكيدر بدومة الجندل وقال: «أما إنكم ستأتونه فتجدونه يصيد البقر»[٣] فوجدوه كما قال.

ألم يكن إذًا ما أخبر به محمد ﷺ خارقًا للعادة ومؤكدًا لصدق رسالته؟

دعواته ﷺ مستجابة:

ثم هناك دعواته عليه الصلاة والسلام فقد آذته وكذبته قبيلة مضر قديمًا فدعا عليهم بقوله: «اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعل عليهم سنين كسنى يوسف»[٤] فأمسك الله عليهم القطر حتى جف الزرع وهلكت الماشية ولم ينكشف عنهم الغم إلا بدعائه لهم حينما استنجدوا به عليه الصلاة والسلام.

---

(١) ذكره الماوردى فى أعلام النبوة.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٣٥٢/١.

(٣) ذكره الماوردى فى أعلام النبوة.

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الأذان باب يهوى بالتكبير ٢٠٣/١. وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب المساجد باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة ٤٦٧/١.

وقد دعا ﷺ على كسرى حين مزق كتابه فقال: «اللهم مزق ملكه كل ممزق - ونظر إلى الصحابة قائلاً - أما أنكم ستملكون أرضه»(١) واستجاب الله الدعاء بتمزيق ملك كسرى وتحقق ما قاله الرسول.

ودعا عليه الصلاة والسلام على عتبة بن أبى لهب قائلاً: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك»(٢) فافترسه الأسد.

ما ذكر لمحات بسيطة من دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ ويبقى ما تفرد به عليه الصلاة والسلام وهو القرآن الكريم المعجزة الكبرى.

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى ١/٢٦٠ باب ذكر بعث رسول الله ﷺ الرسل بكتبه إلى الملوك.

(٢) [illegible]رجه أ[illegible] فى دلائل النبوة باب ذكر قصة عتبة بن أبى لهب ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٥) تعريف المعجزة

قبل الحديث عن الإعجاز في القرآن الكريم نود أن نتعرف على معنى المعجزة فنقول: إن المعجزة في اللغة: مأخوذة من العجز لأنها تكون لإثبات عجز الغير عن الإتيان بمثلها أو لإظهار عجز البشر.

وفي الإصطلاح: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى يظهره الله سبحانه وتعالى على يدى مدعى النبوة فى دار التكليف تصديقًا له فى دعواه مع عجز الغير عن المعارضة. يقول البغدادى فى تعريفها: «ظهور أمر خلاف العادة فى دار التكليف لإظهار صدق ذى نبوة من الأنبياء... مع نكول من يتحدى به عن معارضة مثله»[1].

وقد قلنا أمر ونعنى بذلك الفعل مثل: انقلاب عصا موسى عليه السلام حية فإذا هى تلقف ما يأفكون. ومثل: إبراء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص وإحيائه للموتى بإذن الله. ومثل: تفجر الماء من أصابع سيدنا محمد ﷺ وإشباعه للخلق الكثير من الطعام القليل. وغير ذلك من المعجزات الحسية.

وأيضًا يشتمل - أمر - على الترك مثل: عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام.

ويشتمل - أمر - على القسم الثالث وهو القول أى القرآن الكريم. وخارق للعادة لنخرج الأمر المعتاد فإنه ليس بخارق.

ومقرون بالتحدى لنخرج ما ليس مقرونًا بالتحدى كظهور خارق على يد ولى من أوليائه تعالى وكذا لنخرج ما يظهر قبل النبوة كالإرهاصات.

---

(١) أصول الدين ص ١٧٠.

ويظهــره اللــه سبحـــانه وتعـــالى عــلى يــدى مدعى النبــوة لنخرج مـــا يأتى بالتـعليم كـالسـحـر. ومـا يظهـره اللـــه على يدى الولى أو معونة لأحـد مــن النـــاس أو غيــر ذلك. وفى دار التكليف لنخـرج مــا يحـدث قـبل قيام الساعة.

وتصـديقًا له فى دعـواه ليخـرج الأمـر الخـارق للـعادة المكذب للمدعى كنطق الجماد وتكذيبه لمدعى النبوة.

ومع عجز الغير عن المعارضة؛ لأن التحدى والإعجاز لا يكون إلا بذلك فـإن عورض الأمـر المعـجـز سـقط إعـجـازه، ويخـرج بهـذا السـحـر ومـعـرفـة خصائص الأشياء وغرائب المخترعات والشعوذة.

«فـأمـا وجه كيفية دلالتها على صدق الآتى بها فإنا نعلم أن الله تعالى سامع لما يقوله هذا المدعى، وأن ما يظهره على يده خارج عن مقدور البشر، بل عن مقدور جميع الخلق، ولا قدرة عليه إلا لله تعالى، فإذا ادعى الرسالة ثم قال آية صدق دعواى أن الله أرسلنى، أن يفعل الله تعالى كذا، ففعل الله تعالى ذلك. كان ذلك من الله تعالى تصديقًا له فيما يدعى من الرسالة بما فعل من نقض العادة، فيكون ذلك كقوله له عقيب دعواه هذه صدقت.... .

ثم ظهـور الناقض للعـادة عـقيب دعـوى المدعى للرسـالة يوجب العلم يقينًا، أن الله تعالى هو الذى فعل ذلك إذ لا قدرة لغيره على مثل ذلك الفعل، ثم ذلك منه تصديق له فيدل ذلك على صدقه لا محاله»[1].

---

(١) تبصرة الأدلة جـ٢ ص٥١١ .

(٦) المعجزة الخالدة «القرآن الكريم»

بعد أن عرفنا معنى المعجزة نقول:

إن من أصدق الأدلة وأبقاها على رسالة سيدنا محمد ﷺ القرآن الكريم، فقد جاء به ﷺ من عند ربه ليخرج الناس من ظلمات الجهالة والشرك إلى نور الإيمان واليقين.

وإذا كانت المعجزة عبارة عن أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى يظهره الله سبحانه وتعالى على يدى مدعى النبوة فى دار التكليف تصديقًا له فى دعواه مع عجز الغير أى المتحدى عن الإتيان بمثله.

فقد جاء محمد بالقرآن الكريم وتحدى به أرباب البيان والفصاحة والبلاغة، تحداهم أن يأتوا بمثله. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾[1] أو بعشر سور من مثله. يقول تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[2] أو بسورة واحدة من مثله. يقول تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[3] فعجزوا رغم أنه بلغتهم ومن جنس ما اشتهروا به ولم يكن ذلك إلا لعظمة القرآن وبلوغه الدرجة العليا فى الفصاحة والبلاغة والبيان. يقول شارح المواقف: «إن من تتبع القرآن من العارفين بالبلاغة وجد فيه فنونها بأسرها من إفادة المعاني الكثيرة باللفظ القليل، ومن ضروب التأكيد، وأنواع التشبيه والتمثيل - أى ضرب المثل - وأصناف الاستعارة، وحسن الفواصل، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل اللائق بالمقام، وتعريه - أى خلوه - عن اللفظ الغث - أى الركيك - والشاذ الخارج على القياس، والشارد الناشز عن الاستعمال - إلى غير ذلك من أنواع

---

(١) سورة الطور آية: ٣٤.

(٢) سورة هود آية ١٣.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٣.

البلاغات... بحيث لا يرى المتصفح له - أى القرآن - وتراكيبه المميز بين فنون البلاغة نوعًا منها أى من تلك الفنون إلا وجده فيه أحسن ما يكون، فالقرآن مشتمل على جملتها لم يغادر شيئًا منها؛ ولا يقدر أحد من البلغاء الواصلين إلى ذروة البلاغة من العرب، وإن استفرغ وسعه وطاقته فى تزيين كلامه إلا نوع أو نوعين[١].

ولقد ظل رسول الله ﷺ فى تحديهم وكلما تناسوا ذكرهم وحرضهم وفيهم الفحول من الفصحاء والشعراء وأصحاب المعلقات.

يقول أبو حامد الغزالى:

«لا يمكن إنكار اقتدار العرب على طريقة الفصاحة، ولا يمكن إنكار حرصهم على دفع نبوته بكل ممكن حماية لدينهم ودمهم ومالهم، وتخلصًا من سطوة المسلمين وقهرهم، ولا يمكن إنكار عجزهم لأنهم لو قدروا لفعلوا فإن العادة قاضية بالضرورة بأن القادر على دفع البلاء عن نفسه يشتغل بدفعه، ولو فعلوا لظهر ذلك ونقل»[٢].

ومن الإعجاز فى القرآن أحاديثه المتنوعة عن الأمم السابقة وما فعلته هذه الأمم مع الأنبياء والرسل، وهذا يؤكد أنه من عند الله سبحانه العليم بكل شىء وخاصة أن محمدًا ﷺ أمى ولم يعرف عنه أنه جالس أصحاب التواريخ أو من عنده علم بقصص الأنبياء السابقين.

ومن الإعجاز تنبؤاته بالمستقبل. يقول تعالى ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[٣]، والسورة مكية والكلام عن مشركى مكة ولقد تحقق ذلك بانتصار المسلمين على المشركين فى غزوة بدر.

---

(١) شرح المواقف جـ٣ ص ١٩٢.

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٩.

(٣) سورة القمر الآية: ٤٥.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[١] أى إلى مكة وقد رد إليها عزيزًا فاتحًا.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[٢]، ويرى بعض المفسرين أن القوم هم بنو حنيفة وقد دعا أبو بكر إلى قتالهم، ويرى البعض الآخر أن القوم هم أهل فارس وقد دعا إلى قتالهم عمر بن الخطاب.

ويقول تعالى: ﴿الم ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[٣]. فكان الأمر كما جاء به محمد ﷺ من عند ربه سبحانه وتعالى.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾[٤]، وفى كل يوم يكشف العلم الحديث من آيات الله سبحانه وتعالى فى الكون، وفى النفس البشرية الكثير.

ومن الإعجاز فى القرآن الكريم اشتماله على الأحكام التى يحتاج إليها البشر فى كل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

ومن الإعجاز عدم اختلافه أو تناقضه مع طوله. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٥].

وقيل: «إن من وجوه الإعجاز الصرفة بمعنى أن العرب مع كون القرآن الكريم نزل بلغتهم أى من جنس ما يقرأون ويكتبون،

---

(١) سورة القصص الآية: ٨٥.

(٢) سورة الفتح الآية: ١٦.

(٣) سورة الروم الآيات: ١ - ٤.

(٤) سورة فصلت الآية: ٥٣.

(٥) سورة النساء الآية ٨٢.

ومـع توفـر الدواعى لمعارضتـه، لم يقـدروا على المعـارضـة لأن الله تعـالى صـرف هممـهم عـن المعـارضـة، وأنه تعـالى سلبـهم العلوم التى بهـا يعارضون القرآن، وهـذا يـؤكد أنه مـن عنـد اللـه سبحانـه وتعـالى. إذ أن الصرف عـن المقـدور المعتـاد من أعظـم المعجـزات، فلـو قـال نبى آيـة صـدقى أنى فى هـذا اليـوم أحـرك أصبـعى ولا يقـدر أحـد مـن البشـر على معـارضتى فلم يعارضـه أحـد فى ذلك اليـوم ثبت صدقـه، وكان فقد قدرتهم على الحركة مع سلامة الأعضاء من أعظم المعجزات»[1].

ومحمد ﷺ لم يقل هذا فـحـسب، بل إنه أتى بالقـرآن من عند ربه وحينما أنكروه تحداهم ووبخـهم، وسفه عقولهم واستمر فى هذا التحدى ليأتوا بسورة واحدة من مثل سورة القرآن وهم أرباب البيان وفيهم الشعراء العظام فلم يقـدروا، ألا يدل هذا على أن الله تعـالى سلبـهم القـدرة على المعارضة تأييدًا لنبيه فى نبوته؟

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣٠.

(٧) المنكرون لرسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

لا شك أن الماديين عموماً لا ينكرون رسالة نبينا فحسب، بل إنهم ينكرون كل الديانات السماوية ولا يؤمنون إلا بما هو ملموس محس. وهؤلاء لا نناقشهم الآن.

وإنما نناقش الرافضين من أهل الديانات السماوية الذين أثاروا بعض الشبهات حول رسالته ﷺ، وسنورد شبه كل فريق مع ردنا على كل شبهة.

١) الفرقة الأولى: العيسوية

وهم فرقة من اليهود تنسب إلى أبى عيسى إسحاق بن يعقوب الذى ظهر أيام المنصور وزعم أنه نبى بعث ليخلص بنى إسرائيل من أيدى الأمم وقد اتبعه يهود كثيرون وادعوا له آيات ومعجزات[١].

وقد ذهبت هذه الفرقة إلى القول: بأن محمداً ﷺ بعث إلى العرب خاصة لا إلى غيرهم فهم يصدقون بأنه نبى إلا أن نبوته خاصة بالعرب ويستدلون على ادعائهم هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

الرد عليهم:

إنكم تصدقون بأنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى وتعلمون يقيناً أن رسل الله معصومون عن الكذب والافتراء.

---

(١) الملل والنحل الشهرستانى جـ٢ ص ٢٢.

(٢) سورة إبراهيم الآية: ٤.

وبناء علـى هـذين الأمـرين، فإن محمدًا ﷺ جاء بالرسالة الخاتمة من عند ربه.

وقـد أخبـر سبحانه ـوتعالى أنـه مـا جـاء إلا رحمـة للعالـمين. يقـول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١)، ويقـول تعـالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾(٢)، وقـد أخبـر سبحـانه وتعـالى أن محمدًا جاء للناس كافة، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(٣)، ويقـول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٤).

وفى السنة يروى البخارى أنه ﷺ قال: «كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصـة وبعثت إلى كل أحمـر وأسـود»، وفى بعض الروايات: «وبعثت إلى الناس عامة» وفى بعضها الآخر: «وبعثت إلى الخلق كافة» ويروى البخارى أيضًا أنه ﷺ قال: «إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة».

وعلى هذا يلزم كل من يقر بأنه رسول أن يقر ويصدق بأنه مبعوث للعالمين.

يقول الجوينى: «فإن قيل: أضربتم عن الرد عن العيسوية، قلنا: إنا فعلنا ذلك لوضوح تناقض قولهم: بأنهم التزموا شريعته ثم كذبوه، وقد علمنا ضرورة أنه ادعى كونه مبعوثًا إلى الثقلين وأرسل دعاته إلى الأكاسرة وملوك العجم فوضح بهذا القدر سقوط مذهبهم(٥).

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الفرقان الآية ١.

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٥٨.

(٥) الإرشاد للجويني ص ٣٥٧.

ويقول الغزالى فى رده عليهم: «إنهم اعترفوا بكونه رسولا حقًا ومعلوم أن الرسول لا يكذب، وقد ادعى هو أنه رسول مبعوث إلى الثقلين، وبعث رسله إلى كسرى وقيصر وسائر ملوك العجم وتوافر ذلك منه فما قالوه محال متناقض»[1].

ب) الفرقة الثانية من المنكرين وهم «اليهود»:

وقد استندوا فى إنكارهم على شبهتين:

الشبهة الأولى:

أن القول بنبوته يقتضى نسخ الأديان السابقة والنسخ محال لأنه يدل إما على الجهل أو البداء، فكونه تعالى يقول بحكم ثم ينسخه يلزم أنه لم يكن عالمًا ثم علم وهذا جهل والجهل عليه محال فالنسخ إذًا محال، أو أنه قال بحكم ثم بدا له أن غيره أحسن منه فقال به وهذا أيضًا محال وإذا كان النسخ محالاً كان إرسال الرسل بعد موسى عليه السلام محالاً.

الرد عليهم:

ويرد عليهم: أن النسخ هو الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بخطاب آخر على وجه لولاه لاستمر الحكم المنسوخ، والجهل أو البداء يكونان إذا جد علم جديد أو لم يكن العلم محيطًا بكل الأشياء، وعلم الله سبحانه وتعالى لا يتجدد فيه شىء ولا يتغير وإنما هو علم شامل متعلق بالمعلومات على ما هى عليه.

وقد اقتضت حكمته أن يكون حكم ما فى وقت ما ثم يكون حكم آخر فى وقت آخر، وهذا تغيير فى الحكم نفسه ولا يقتضى تغيير الحكم تغير علمه فقد علم أزلاً بما سيكون وبما هو كائن وبما كان.

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٧.

فإذا جاء موسى عليه السلام بحكم مطلق من الله سبحانه وتعالى فإنه سبحانه وتعالى يعلم أزلاً أنه سيرسل عيسى عليه السلام بحكم ثان، وسيرسل محمداً ﷺ بأحكام أخرى فيها تغيير للأحكام السابقة، ولا يعنى هذا تجدد علم، أو حصول علم لم يكن، أو ظهور أمر كان غائبًا.

وقولهم: بأن النسخ محال يعود عليهم فى التوراة، فقد كان الجمع بين الأختين محللاً فى شريعة آدم عليه السلام، وجاءت شريعة موسى بتحريم هذا الجمع، وجاء فى شريعة نوح عليه السلام تحليل كل ما دب على الأرض ما عدا الدم، وجاءت التوراة بتحريم كثير من الحيوانات فكيف يكون النسخ محالاً؟

يقول أبو حامد الغزالى: «النسخ هو عبارة عن الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت المشروط استمراره بعد لحوق خطاب برفعه، وليس من المحال أن يقول السيد لعبده: قم مطلقًا ولا يبين له مدة القيام وهو يعلم أن القيام مقتضى منه إلى وقت بقاء مصلحته فى القيام، ويعلم مدة مصلحته ولكن لا ينبه عليها، ويفهم العبد أنه مأمور بالقيام مطلقًا، وأن الواجب الاستمرار عليه أبدًا إلا أن يخاطبه السيد بالقعود فإذا خاطبه بالقعود قعد ولم يتوهم بالسيد أنه بدا له، أو ظهرت له مصلحة كان لا يعرفها والآن قد عرفها، بل يجوز أن يكون قد عرف مدة مصلحة القيام، وعرف أن الصلاح فى أن لا ينبه العبد عليها ويطلق الأمر له إطلاقًا حتى يستمر على الامتثال، ثم إذا تغيرت مصلحته أمره بالقعود، فهكذا ينبغى أن يفهم اختلاف أحكام الشرائع فإن ورود النبى ﷺ ليس بناسخ لشرع من قبله بمجرد بعثته، ولا فى معظم الأحكام، ولكن فى بعض الأحكام كتغيير قبلة، وتحليل محرم وغير ذلك، وهذه المصالح تختلف بالأعصار والأحوال فليس فيه ما يدل على التغيير، ولا على الاستبانة بعد الجهل، ولا على التناقض»(١).

---

(١) الاقتصاد [illegible] ١٢٨.

الشبهة الثانية:

إنهم يقولون: إن موسى ﷺ قال: «عليكم بدينى ما دامت السموات والأرض»، أو «تمسكوا بالسبت ما دامت السموات والأرض»، وأنه قال: «إنى خاتم الأنبياء».

ويقتضى هذا أن دين موسى باق إلى أن تقوم الساعة، وإذا كان باقيًا يستحيل نسخه، وبالتالى يستحيل إرسال رسل بعده، كما أنه بقوله: إنى خاتم الأنبياء يصرح بأنه لا نبى بعده.

الرد عليهم:

إنه لم يتواتر عن موسى ﷺ القول بدوام دينه، أو أنه خاتم الأنبياء، ولو تواتر لاحتج به اليهود فى عهد النبى ﷺ، وخاصة أنه من الأمور العظام التى تتعلق بالعقيدة، ولقد كان اليهود يتمنون الموت هروبًا من دعوة محمد ﷺ، وقد عادوه شر المعاداة، وألبوا عليه الأعداء من المنافقين والمشركين وتحزبوا جميعًا للقضاء على دعوته، فلو كان معهم ما يثبت تأبيد دعوة موسى لأظهروه ولاشتهر بين القوم، ولكنه معروف عند الجميع أن دعوة التأبيد، أو كون موسى خاتم الأنبياء من اختلاق ابن الراوندى.

ومعلوم أيضًا أن الله سبحانه وتعالى لا يؤيد الكاذب بالمعجزات، ولا يأمره بتحدى الناس فلو كان موسى ﷺ خاتم الأنبياء، أو أن دينه مؤبدًا لما ظهرت المعجزات على يد عيسى ﷺ تأكيدًا له فى دعواه، ولما ظهرت على يد محمد ﷺ، فلما ظهرت هذه المعجزات دل ذلك على أن ما يقوله اليهود هو محض اختلاق.

يقول أبو حامد الغزالى:

«لو صح ما قالوه عن موسى لما ظهرت المعجزات على يد عيسى، فإن ذلك تصديق بالضرورة فكيف يصدق الله تعالى بالمعجزة من يكذب موسى

وهو أيضًا مصدق له.... وهذه الشبهة إنما لقنوها بعد بعثة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وبعد وفاته ولو كانت صحيحة لاحتج اليهود بها، وقد حملوا بالسيف على الإسلام، وكان رسولنا عليه الصلاة والسلام مصدقًا بموسى عليه الصلاة والسلام... وما الذى صرفهم عنه، ومعلوم قطعًا أن اليهود لم يحتجوا به؛ لأن ذلك لو كان لكان مفحمًا لا جواب عنه، ولتواتر نقله، ومعلوم أنهم لم يتركوه مع القدرة عليه، ولقد كانوا يحرصون على الطعن فى شرعه بكل ممكن حماية لدمائهم وأموالهم ونسائهم»[١].

جـ) *الفرقة الثالثة: من المنكرين لرسالة نبينا محمد ﷺ: على رأس هذه الفرقة النصارى.*

وهم يقولون: بجواز النسخ ولكنهم ينكرون الإعجاز فى القرآن، ويدعون أن القرآن عورض ولم تظهر المعارضة لكثرة أتباع محمد ﷺ كما يدعون أن اشتغال الأعداء بالحرب ضد محمد وأتباعه هو الذى صرفهم عن معارضته.

الرد عليهم:

ذكرنا فيما سبق بعض وجوه الإعجاز فى القرآن فلا حاجة للتكرار «ولا معنى للمعجزة إلا ما يقترن بتحدى النبى عليه الصلاة والسلام عند استشهاده على صدقه على وجه يعجز الخلق عن معارضته وتحديه للعرب مع شغفهم بالفصاحة، وإغراقهم فيها متواتر وعدم المعارضة معلوم إذ لو كان لظهر فإن أرذل الشعراء لما تحدوا بشعرهم، وعورضوا ظهرت المعارضات والمناقضات الجارية بينهم، فإذن لا يمكن إنكار تحديه بالقرآن ولا يمكن إنكار اقتدار العرب على طريق الفصاحة»[٢].

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٨.

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٩.

ومعلوم أن أعداء محمد ﷺ كانوا أكثر من أتباعه، وكانوا حريصين كل الحرص على معارضته لإظهار أن القرآن من عند غير الله، وقد استمر ﷺ فى تحديهم بالقرآن وتسفيه أحلامهم، فلو كانوا عارضوه بشىء لظهر ونقل إلينا، ولو افترضنا أن أتباع النبى ﷺ فيما بعد أخفوا المعارضة فإن العقل يحكم باستحالة هذا وإنما يجوز تسرب بعض المعارضات فإن الأعداء لم ينعدموا كليًا وكان تنقلهم فى التجارة مستمرًا فى بلدان عديدة فلا يصعب أن ينقلوا المعارضات سرًا إلى هذه البلدان كما نقلت ترهات مسيلمة الكذاب حيث قال: الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وثيل وخرطوم طويل، وكما نقلت قصائد الهجاء فى حقه ﷺ .

أما عن قولهم: بأن العرب شغلهم حرب الرسول عن المعارضة فهذا هذيان؛ لأنه ﷺ ظل ثلاثة عشر عامًا بينهم يدعوهم ويغيظهم ويتحداهم ولم يكن بينه وبينهم أى حروب تذكر.

ثم إن حروبه عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة معهم لم تكن لتشغلهم كليًا عن المعارضة، بل إنهم حينما عجزوا عن المعارضة لجأوا إلى المقارعة بالسيف.

يقول أبو حامد الغزالى: «فإن قيل: ما وجه إعجاز القرآن؟ قلنا: الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب والمنهاج الخارج عن مناهج كلام العرب فى خطبهم وأشعارهم، وسائر صنوف كلامهم، والجمع بين هذا النظم، وهذه الجزالة معجزة خارج عن مقدور البشر... فإن قيل: لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن ولو قصدت لقدرت عليه أو منعتها العوائق عن الاشتغال به.

والجواب: إن ما ذكروه هوس، فإن دفع تحدى المتحدى بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف مع ما جرى على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبى وشن الغارات»[1].

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٩ .

(٨) رؤية فى عصمة الأنبياء

أنبياء الله ورسله هم الصفوة الممتازة الذين اجتباهم الله من بين البشر واختصهم بصفات الكمال الخُلقية والخَلقية، وجعلهم السفراء الأمناء فى حمل الشرع وتبليغه إلى الناس.

وإذا كانت وظيفة الرسول هى توصيل كلمة الله إلى الناس وإرشادهم بالقول والفعل والإقرار إلى ما فيه النفع فى الدنيا والآخرة، كان لزامًا أن يكون قدوة حسنة فى كل ما يصدر عنه وأن لا ينطق إلا بكلمة السماء، ولن يكون كذلك إلا بالعصمة الباطنية من الحقد والغل والكبرياء والحسد والرياء والشح إلخ.... والعصمة الظاهرية من الذنوب مثل: الشرك والكذب والقتل وشرب الخمر والزنا إلخ...

ولعلك تسأل ما هى العصمة؟

ونجيبك بأنها: حفظ الله ظواهر الرسل وبواطنهم من ارتكاب منهى عنه أو ترك مأمور به، أو هى لطف من الله سبحانه وتعالى يجعل الرسل يتجهون إلى فعل الخير ويبتعدون عن فعل الشر.

ولا يعنى الحفظ أو اللطف أنهم عليهم السلام مجبورون، بل يعنى أن استعدادهم كامل فى التمييز بين الخير والشر، وأن مراقبتهم لله فى أعمالهم متحققة مع كل نبضة من نبضات القلب، فهم يتحركون دائمًا فى دائرة الإحسان والتى بينها رسولنا ﷺ حينما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] ومن كان أمره كذلك كان اتجاهه بالعقل والقلب معًا فى كل قول أو فعل أو إقرار ملازمًا لأوامر الله ومبتعدًا عن نواهيه.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ١/١٩ ـ ٢٠.

ومسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٧.

ونأتى إلى سؤال: هل الأنبياء معصومون قبل البعثة وبعدها من الصغائر والكبائر؟

لعلماء المسلمين مواقف متعددة إلا أنهم مجمعون على عصمة الأنبياء من الشرك والكذب وما يشعر بالخسة كالزنا والسرقة وكل ذلك قبل البعثة وبعدها، وجوز بعضهم عقلاً فيما عدا ذلك من الكبائر والصغائر قبل البعثة.

يقول السنوسى: «أما حكمها قبل النبوة فالذى ذهب إليه أكثر الأشاعرة وطائفة كثيرة من المعتزلة إلى أنه لا يمتنع عقلاً على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل البعثة معصية كبيرة أو صغيرة»[1].

ولعلنا لا نميل إلى مثل هذا الرأى الأخير ونرى أن رسل الله معصومون عن الكبائر مطلقًا قبل البعثة وبعدها عمدًا أو سهوًا، أما الصغائر فإن كانت مشعرة بخسة أو تؤدى إلى نفور كسرقة دينار أو تطفيف كيل مثلاً، فهم معصومون منها قبل البعثة وبعدها عمدًا أو سهوًا، وإذا لم تكن مشعرة بخسة فهم غير معصومين منها قبل البعثة عمدًا أو سهوًا أما بعدها فهم معصومون منها عمدًا، ويجوز الوقوع فيها على سبيل النسيان أو الخطأ فى التأويل، وإذا حدث مثل هذا فإن المشرع الحكيم يوجههم إلى الطريق الصحيح ويذكرهم بما وقعوا فيه من نسيان.

بعض الآيات التى يُشعر ظاهرها ما يخالف عصمة الانبياء:

وقد وردت آيات فى القرآن الكريم يشعر ظاهرها أن الأنبياء قد وقعوا فى بعض الذنوب فلنتأمل فيها لنقف على حقيقة الأمر.

أولاً: ورد فى حق سيدنا آدم ﷺ أنه أمر بعدم الأكل من شجرة معينة إلا أنه بعد وسوسة الشيطان خالف الأمر وبذلك صار عاصيًا ورجع إلى الله بالتوبة فقبلها منه، وهذا يؤكد وقوعه فى ذنب والذنوب تخالف

(١) شرح عقيدة أهل التوحيد ص ٢٥٠.

العصمة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١). ويقول سبحانه: ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾(٢).

ويرد على هذا:

بأن ما حدث من آدم لا يخالف العصمة؛ لأنه كان قبل النبوة حيث لم تكن له أمة بعد ولم يكن في أمر تشريعي، ومثل هذا يعتبر صغيرة، ولقد سماه الله سبحانه عصيانًا لما سيكون من شأن عظيم لآدم فيما بعد وما صدر عنه كان نتيجة للنسيان، والذي يؤكد هذا قوله سبحانه: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(٣). ولقد غفر الله له هذا الذنب الصغير ثم جعله نبيًا. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(٤).

ثانيًا: ورد أن سيدنا نوحًا ﷺ طلب من ربه أن ينجي ابنه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فأجابه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وهذا يدل على أن نوحًا ﷺ قد كذب على الله والكذب كبيرة تخالف العصمة. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة آيات: ٣٥ ـ ٣٧.

(٢) سورة طه آية: ١٢١.

(٣) سورة طه آية: ١١٥.

(٤) سورة طه آية: ١٢٢.

(٥) سورة هود الآيتان: ٤٥ ـ ٤٦.

ويرد على هذا:

إن نوحًا ﷺ لم يكذب على ربه وأن ما يطلب إنجاءه هو ابنه من صلبه وقد رد الله عليه سبحانه وتعالى بما يفيد أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، أو هو ليس من أهل دينك بل هو كافر مستحق للعقوبة.

ثالثًا: وردت آيات فى حق سيدنا إبراهيم ﷺ ربما فهم من ظاهرها تردده فى الاعتقاد حيث اعتقد ألوهية الكوكب ثم رجع عنه إلى اعتقاد ألوهية القمر فلما طلعت الشمس ورآها أكبر اعتقد ألوهيتها وهذا التردد فى الاعتقاد يفيد الشرك والشرك من الكبائر التى أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء منها ثم إنه تبرأ بعد ذلك من كل هذه الأشياء واعتقد ألوهية الواحد الأحد سبحانه. يقول عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

ويرد على هذا:

بأن إبراهيم ﷺ يعتقد يقينًا بوجود الله وبأنه سبحانه متصف بكل كمال ومنزه عن أى نقص، إلا أن البيئة التى تحيط به تعبد الأصنام والكواكب ولقد أراد ﷺ أن يهديهم إلى الله الحق فتظاهر بالتسليم لهم بأن ما يعبدونه آلهة ثم أخذ يبين لهم بطلان اعتقادهم بالتدريج فالإله لا يتغير وما يعبدونه يتغير والإله لا يغيب وما يعبدونه يغيب والإله ليس بحادث وما يعبدونه حادث.

---

(١) سورة الأنعام الآيات: ٧٦ ـ ٧٩.

وما قام به سيدنا إبراهيم ﷺ من التظاهر بالتسليم للخصم ثم مناقشته لبيان بطلان اعتقاد هذا الخصم لا يتنافى مع العقل فى عصرنا الحديث وليس فيه أى شرك بل هو توجيه عقلى للإيمان بالله وبتفرده بالكمال المطلق وتنزهه عن الحوادث.

رابعًا: ورد أن سيدنا إبراهيم ﷺ أقسم ليحطمن الأصنام وفعلاً حطمها إلا الصنم الكبير فقد تركه بعد أن وضع على كتفه المعول، وحينما أتى القوم هالهم ما رأوا ثم سألوا سيدنا إبراهيم عن الذى حطم آلهتهم؟ فأجابهم ﷺ: بأن الذى حطمها هو كبير الأصنام وطلب منهم أن يسألوه، وعلى هذا فقد وقع سيدنا إبراهيم فى الكذب حيث قال: ما ليس بحق، والكذب من الكبائر التى تتنافى مع عصمة الأنبياء.

يقص القرآن هذا الحديث فيقول: ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾[1].

ويرد على هذا:

بأنه ﷺ لم يكذب؛ لأنه لم يقصد إسناد الفعل إلى الصنم حقيقة، بل إلى نفسه، وإنما أراد الاستهزاء والسخرية بهم والتعريض بضعف فكرهم واعتقادهم، وإعلامهم بأن الأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تملك الدفاع عن نفسها، وكأنه ﷺ أراد أن يقول لهم: إذا كان عندكم شك فى أن الأصنام لا تملك شيئًا فارجعوا إليها واسألوها.

---

(١) سورة الأنبياء الآيات: ٥٧ - ٦٣.

ولهـذا يحكى القرآن عودتهم إلى أنفسـهم وإحسـاسـهم بأنهم هم الظالمون ويصفهم بالخيبة لتأكدهم أن الأصنام لا تنطق. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾[1].

خامساً: ورد أن سيدنا إبراهيم طلب من الله أن يريه كيف يحيى الموتى، وهذا يشعر بشك سيدنا إبراهيم فى قدرة الله على الإحياء وهذا من الأنبياء من الكبائر التى تتنافى مع عصمتهم.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

ويرد على هذا:

بأن سيدنا إبراهيم يعلم علم اليقين أن الله قادر على الإحياء ولكنه يريد أن ينتقل من علم اليقين - أى المبنى على الاستدلال إلى عين اليقين - أى المطبوع فى القلب. وأيضاً فإنه ﷺ أوحى إليه من ربه «إنى اتخذت عبداً من عبادى خليلاً وعلامته أنه لو طلب منى إحياء الميت فإنى أفعله إكراماً له» فأراد ﷺ أن يتعرف أن ذلك الخليل هل هو هو؟ فسأل عن ذلك وكأن المعنى ولكن ليطمئن قلبى على كونى خليلاً لك ومخصوصاً من عندك بهذا الشرف[3].

سادساً: ورد فى حق سيدنا يوسف ﷺ أن امرأة العزيز همت بارتكاب الفاحشة معه وهو هم بنفس الشىء وهذا يتنافى مع القول بعصمة الأنبياء.

---

(١) سورة الأنبياء الآيتين: ٦٤ - ٦٥.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦٠.

(٣) عصمة الأنبياء للرازى ص ٤٤.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾(١).

ويرد على هذا:

بأن امرأة العزيز همت بارتكاب الفاحشة معه أما هو فقد هم بدفعها عنه بالضرب إلا أن ربه سبحانه وتعالى أراه أنه لو ضربها فسيقتله أهلها ولهذا اندفع فارًا منها وصرف الله عنه فاحشة امرأة العزيز وسوء القوم لأنه من عباد الله المخلصين.

وهناك رأى آخر نستريح له وهو: أن الذى يجرى فى النفس له مراتب خمس: الأولى: الهاجس، وهو ما يمر سريعًا على نفس الإنسان، والثانية: الخاطر، وهو ما يبقى فى النفس ويتحرك فيها قليلاً، والثالثة: حديث النفس، وهو التردد بين الفعل أو الترك. والمرتبة الرابعة: الهم، وهو توجه النفس نحو الفعل والميل إليه.

وهذه المراتب الأربع لا يتناولها التكليف ولا يؤاخذ عنها الإنسان وإنما يؤاخذ ويقع تحت التكليف إذا انتقل من المرتبة الرابعة ودخل فى المرتبة الخامسة وهى: العزم والتصميم، وسيدنا يوسف ﷺ بحكم طبيعته البشرية ولكونه قبل البعثة دخل مرحلة الهم، إلا أنه لم يتجاوزها فلا شىء عليه إطلاقًا. يقول ﷺ: قال الله عز وجل: «إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه»(٢).

---

(١) سورة يوسف الآية: ٢٤.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الرقاق باب من هم بحسنة أو سيئة ١٢٨/٨.

وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ١١٧/١.

سابعًا: ورد أن سيدنا موسى ﷺ حينما دخل المدينة مستخفيًا وجد رجلين يقتتلان أحدهما من شيعته من العبريين والآخر من المصريين، وحينما استغاث به الذى من شيعته على الذى من عدوه قام موسى بدفع المصرى بكفه المضمومة الأصابع فسقط الرجل قتيلاً، وعلى هذا يكون موسى ﷺ قاتلاً والقتل كبيرة تتنافى مع القول بالعصمة، وقد اعترف موسى بأنه ظلم نفسه بقتله الرجل والظلم كبيرة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(١).

ويرد على هذا:

بأن ما حدث كان قبل النبوة وأن ما فعله موسى فى الرجل هو الوكز وهو الدفع والضرب بالكف المضمومة الأصابع ولم يقصد موسى ﷺ قتله وإنما قصد دفعه بعيداً عن الآخر إلا أن أجل الرجل حان فى هذا الوقت. ومثل هذا يعتبر من الصغائر التى تحدث قبل البعثة ولا تشعر بأى خسة ولا تتنافى مع عصمة الأنبياء.

وقد وصف موسى نفسه بالظلم لإحساسه بترك الأولى فلقد كان من الأولى أن يترفق بالرجل ويدفعه بالكلام لا باليد.

---

(١) سورة القصص الآيتين: ١٥ ـ ١٦.

ثامنًا: ورد فى حق سيدنا محمد ﷺ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾[١]. وظاهر الآية الكريمة أشعر بعض الناس أنه ﷺ ارتكب بعض الذنوب التى تخل بالعصمة.

ويرد على هذا:

بأن الضلال يراد به: إما ضلال الشرك وإما ضلال الهوى وإما ضلال الطريق، والرسول ﷺ مبرأ عن الشرك وعن الهوى، بقى ضلال الطريق فهو عليه السلام نشأ فى بيئة جاهلية تعبد الأصنام فى جانب وفى جانب ثان تقول بألوهية المسيح وفى جانب آخر تدعى أن عزير بن الله، ولطهره وحبه للخير كان يتمنى هداية هؤلاء الضالين عن الحق، إلا أنه لا يعرف المنهج أو الطريق الذى يسلكه لهدايتهم ولهذا ظل متحيرًا، وآثر التحنث وحده فى الغار بعيدًا عن التخبط الجاهلى، وكلما رجع إلى القوم فزع، وازداد حيرة فى بحثه عن طريق لهدايتهم، وظل الأمر كذلك إلى أن جاءه جبريل عليه السلام بالمنهج الربانى والطريق الحق الذى استطاع به إخراج الناس من ظلمات الجهالة والشرك إلى نور الإيمان والوحدانية، يقول الفخر فى تفسير الآية الكريمة: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ أى «وجدك ضالاً عن النبوة فهداك إليها، ووجدك ضالاً عن المعيشة وطرق الكسب، ووجدك ضالاً فى زمان الصبى فى بعض المفاوز، ووجدك ضالاً أى مضلولاً عنه فى قوم لا يعرفون حقك فهداهم إلى معرفتك»[٢].

تاسعًا: يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾[٣] والفهم الظاهرى للآيتين الكريمتين يشعر بأنه عليه الصلاة والسلام ارتكب ذنبًاعظيمًا وهذا يخالف العصمة.

---

(١) سورة الضحى الآية: ٧.

(٢) عصمة الأنبياء ص ٩٨.

(٣) سورة الشرح الآيتين: ٢ ـ ٣.

ويرد على هذا:

بأن المراد بالوزر ما يحس الإنسان من ثقل عظيم نتيجة للخوف أو القلق أو المعاناة الشديدة: ولقد فوجئ ﷺ أثناء تحنثه بسيدنا جبريل ينزل عليه ويضمه إليه ويطلب منه أن يقرأ ولم يكن لنبينا عهد بجبريل ولا بالقراءة، ولهذا انتابه عليه الصلاة والسلام الخوف والقلق وأحس برعدة فى جسمه الشريف، فخرج مسرعًا من الغار وفى منزله طلب من السيدة خديجة رضي الله عنها أن تزمله وأن تدثره. ومع تكرار نزول جبريل وعلم المصطفى بأنه من عند الله سبحانه وتعالى شعر بالأنس والاطمئنان وزالت مخاوفه مثله تمامًا مثل من كان يحمل على كاهله ما لا يطيق ثم رفع عنه فإنه يحس بالراحة.

وفى بداية الدعوة لم يكن للقوم إلف بالدين؛ ولهذا تحمل ﷺ كثيرًا من الإيذاء النفسى والجسدى، وأراد سبحانه وتعالى بعد هذه المعاناة الشديدة هداية القوم وبدل سبحانه العسر باليسر.

يقول الفخر الرازى: «الوزر فى أصل اللغة: هو الثقل. قال تعالى ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[1]. أى أثقالها، وإنما سمى الذنب بالوزر لأنه يثقل كاسبه... وهو عليه الصلاة والسلام كان فى غم شديد لإصرار قومه على الشرك، وأنه كان هو وأصحابه فيما بينهم مستضعفين، فلما أعلى الله كلمته وعظم أمره فقد وضع وزره» [2].

عاشرًا: يقول سبحانه وتعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[3] يفيد الفهم الظاهرى للنص الشريف أنه حدثت مغفرة من الله سبحانه لرسوله ﷺ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب والذنوب تخل بالعصمة.

---

(١) سورة محمد الآية: ٤.

(٢) عصمة الأنبياء ص ١١١.

(٣) سورة الفتح الآية: ٢.

ويرد على هذا:

بأننا قلنا: إنه يجوز أن يصدر عن الأنبياء قبل نبوتهم بعض الصغائر التى لا تشعر بخسة ولا تخل بالشرف ـ و على هذا فإن المراد بما تقدم أى فى صباك، وما تأخر أى فى شبابك أو «أن المراد ما تقدم من ذنب أمتك وما تأخر فإن الرجل المعتبر إذا أحسن بعض خدمه أو أساء فإنه يقال له: أنت فعلت ذلك وإن لم يكن هو فاعله بنفسه»[1].

وفى تفسير آخر نستريح له أن المراد بالمغفرة لا مغفرة الذنب وإنما المغفرة لترك الأولى، ففى أسرى بدر مثلاً قبل ﷺ الفداء طمعًا فى هداية القوم فيما بعد وكان الأولى قتلهم حتى يذل الكفر، ففى هذا الموقف ترك ﷺ الأولى فعاتبه ربه سبحانه وتعالى وأعلمه بما كان ينبغى أن يفهم فى مثل هذه الحالة، فمن حق الرسول أن يجتهد لكن المشرع سبحانه يصحح الاتجاه فى حالة ترك الأولى.

يقول سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وأيضًا فقد انشغل ﷺ عن ابن أم مكتوم وهو من المسلمين السابقين وكان أعمى جاء يسأله ﷺ فى أمر من أمور الدين انشغل عنه بحديث مع كبير من كبراء قريش طمعًا فى هدايته للإسلام، فعاتبه ربه سبحانه وتعالى لتركه الأولى، وقد سمى سبحانه ترك الأولى بالذنب، لأن محمدًا خاتم الرسل ولا يجب أن يصدر عنه مثل هذا فعظم الموقف لعظمة صاحبه عليه الصلاة والسلام.

يقول سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ

---

(١) عصمة الأنبياء ص ١١١.

(٢) سورة الأنفال الآيتان: ٦٧ ـ ٦٨.

(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾[١].

حادى عشر: يقول سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٢] ويقول: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[٣] ويقول: ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[٤] ويقول: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٥] ويقول: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٦].

الآيات السابقة ربما توهم ظاهرها بوقوع بعض الأمور التى تخل بالعصمة. فهى تطالب النبى بلزوم التقوى وعدم طاعة الكفار والمنافقين وتنهاه عن طرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى كما تنهاه عن الشك والتردد وإبطال العمل الصالح بالاتجاه للشرك أو التكذيب بآيات الله تعالى.

يقول سعد الدين التفتازانى مبعدًا أى توهم:

«***والجواب:*** أن الأمر لا يقتضى سابقة تركه، ولا النهى سابقة فعله، ولا الشرط وقوع مضمونه»[٧].

---

(١) سور عبس الآيات: ١ ـ ١٢.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ١.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٥٢.

(٤) سورة البقرة الآية: ١٤٧.

(٥) سورة الزمر الآية ٦٥.

(٦) سورة يونس الآيتين: ٩٤ ـ ٩٥.

(٧) شرح المقاصد جـ٥ ص ٦٠.

الباب الثالث

السمعيات

١) حقيقة الإنسان.

٢) وسائل المعرفة.

٣) الموت.

٤) الروح.

٥) ما بعد الموت.

٦) النعيم فى القبر أو العذاب - نظرة عقلية.

٧) النعيم فى القبر أو العذاب - أدلة نقلية.

٨) الساعة وعلاماتها.

٩) البعث «إمكانه عقلاً».

١٠) البعث «تحققه فعلاً بأدلة الشرع».

١١) المنكرون للبعث الجسمانى وشبههم والرد عليها.

١٢) الحشر والنشر.

١٣) لماذا البعث؟ أو الحكمة منه.

١٤) الميزان.

١٥) الصراط.

١٦) الشفاعة.

عشنا مع قضية الألوهية وننتقل بالضرورة إلى قضية إيمانية أخرى، هى جزء لا يتجزأ من الإيمان - وهى السمعيات - ونعنى بها الأمور التى تحدث بعد خروجنا من الدنيا، والتى علمنا عنها الكثير بالسماع من مصدرين أساسيين هما: القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

ولما كان العقل البشرى يغتر كثيرًا بنفسه، لزمنا أن نذكر بحقيقة الإنسان، ثم بأهم وسائل المعرفة لديه حتى تراكب الموضوعية كل خطواتنا.

(أ) حقيقة الإنسان

نعرف أن حقيقة الشيء ما به يتميز عن غيره، وقد قالوا: إن الإنسان هو العالم الصغير، فهو في البدء لم يكن شيئًا. يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(١). ثم كان من التراب ومع اختلاط التراب بالماء صار طينًا وحينما تغير الطين صار حمأ مسنونًا، وحينما أصبح مستقرًا وقابلاً للتشكل سمى بالطين اللازب، وحينما يبس سمى صلصالاً كالفخار كما سمى صلصالاً من حمأ مسنون.

ثم كانت المنحة الإلهية بنفخ الروح فيه. يقول سبحانه وتعالى للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(٢).

ولما كان قانون السببية يعمل بمشيئة الله تعالى، فقد اقتضت حكمته أن يجرى التناسل بعد ذلك بناء على التقاء حيوان منوى من الرجل ببويضة من الأنثى ليكونا النطفة التى تخضع لإرادة الله مكونة فى تحولها النهائى الإنسان. يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٣).

ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٤).

---

(١) سورة الإنسان الآية: ١.

(٢) سورة الحجر الآيتان: ٢٨ - ٢٩.

(٣) سورة الطارق الآيات: ٥ - ٧.

(٤) سورة المؤمنون الآيات: ١٢ - ١٥.

الإنسان على هذا فيه من العالم عناصره الأساسية: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وفيه من المعادن الجسمية ومن النباتات التغذى والنمو ومن الحيوانات التناسل والإحساس باللذة والألم والغضب، وفيه فوق ذلك من الملائكة الروحانية ومن الشياطين الإضلال والإغواء ومن الكون كله النظام والإتقان - ولك أن تنظر فى أى جزء من جسمك وتعرضه على صفحة الوجود وعلى التقدم العلمى لتقف على الروعة والجلال.

وفيه فوق هذه الأشياء كلها: التعليم من الله والتكريم والتفضيل على كثير من المخلوقات والاستخلاف على هذه الأرض وبيان الطريق له. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[1]. ويقول: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2]. ويقول عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[3]. ويقول: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[4].

حقيقة الإنسان إذًا مادة محسوسة وروح غيبية، ومع المادة والروح كان العقل المكرم به الإنسان والمصحح لمسئوليته «الإنسان من بين الموجودات مخلوق خلقة تصلح للدارين؛ وذلك لأن الله تعالى قد أوجد ثلاثة أنواع من الأحياء: نوعًا لدار الدنيا وهى الحيوانات، ونوعًا لدار الآخرة وهو الملأ الأعلى، ونوعًا للدارين وهو الإنسان، واسطة بين جوهرين: وضيع: وهو الحيوانات، ورفيع: وهو الملائكة... فإنه لو خلق كالحيوانات معرى عن العقل لما صلح لعبادة الله وخلافته... ولو خلق كالملائكة معري عن الحاجة البدنية لم يصلح لعمارة أرضه[5].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٧٠.

(٤) سورة البلد الآية: ١٠.

(٥) تفصيل النشأتين للراغب الأصفهانى ص ١٩.

وإذا كان الإنسان قد جمعت فيه قوى العالم المختلفة، وسخر له كل ما في الكون ثم خص بالعقل والاستخلاف والابتلاء. أفيكون كل هذا عبثًا؟؟! يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾(١).

والماديون يعاندون ويصرون على أن الإنسان مادة فقط ويرددون قول الدهريين السابقين، كما حكى الله عنهم ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾(٢).

ونحن هنا نسأل: أتثقون فى العلم ونتائجه؟

فيقولون: نعم.

ونسأل: لم هذه الثقة.

يقولون: لأن علومنا خاضعة للتجربة وما تأتى به التجارب فهو المحصلة النهائية الحقيقية.

ونسأل ألم تجروا التجارب على الذرة وتثبتوا أنها لا تنقسم واعتبرتم هذه النتيجة حقيقية ثم تحولتم عنها وأثبتم أنها تنقسم، فلم هذا التحول؟

يقولون: لأن أجهزة التجارب تطورت ومع تطورها جاءت النتائج مغايرة.

نقول لهم: إذًا النتيجة مرتبطة بتطور أجهزة التجارب، والعلم لم يقف بعد، والعقل البشرى ما زال ينقب فى الوجود، فلم جزمتم بأن الإنسان مادة فقط؟ ثم إذا كان الإنسان مادة فقط فقد عرفتم العناصر الأساسية للمادة، وعرفتم أنه بإضافة كذا إلى كذا ينتج كذا. فهل فى إمكانكم أن تشكلوا لنا من المادة إنسانًا حيًا ناطقًا.

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ١١٥.

(٢) سورة الجاثية الآية: ٢٤.

هل فى إمكانكم أن توقفوا الموت عن عزيز لديكم؟

هل فى إمكانكم أن ترجعوا الحياة لجسد من أحببتم من موتاكم؟ هل فى إمكانكم أن تخلقوا أى شىء حى حتى ولو حشرة حقيرة؟ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾(١).

هل فى إمكانكم تحدى هذا القول الربانى بعمل علمى؟... لننتظر، أما نحن المؤمنين فنؤكد أن الإنسان مكون من مادة وروح، ومستندنا فى ذلك أن الإنسان يفقد عضوًا أو أعضاء كثيرة من جسده وأن خلاياه تتجدد بصفة مستمرة حتى أن العلماء أثبتوا - أن جسد الإنسان يتجدد تمامًا كل أربع سنوات - ومع ذلك فإن إحساسه بإنسانيته باق وقدرته على التصور باقية، وإرادته ملازمة له فى كل لحظات حياته.

فلو كان الإنسان مادة فقط للازم تغير المادة تغير الإنسان، ولو كان الإنسان مادة فقط لركن إلى الراحة بعد إشباع كل الرغبات الجسدية.

لكننا نرى غير ذلك، فعلى الرغم من امتلاء المعدة بأشهى الأطعمة وتوفر المسكن والملبس والسيارة الفاخرة، بل كل الكماليات لإنسان العصر الحديث. إلا أننا نراه يشكو الخواء والقلق وربما دمر نفسه بالانتحار. فلم إذًا الشكوى؟ أليس مرد ذلك إلى شىء آخر يغاير المادة؟

يقول عز وجل: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٢). ويقول: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾(٣).

---

(١) سورة الحج الآية ٧٣.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

(٣) سورة الحجر الآية: ٢٩.

ويترل عليه الصلاة والسلام: «أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر»[1]. ويقول: «إذا حمل الميت على نعشه ترفرف روحه فوق نعشه ويقول: يا أهلى ويا ولدى لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى، جمعت المال من حله ومن غير حله ثم تركته لغيرى والتبعة على، فاحذروا مثل ما حل بى» ولا شك أن المترفرف وهى الروح غير المترفرف فوقه وهو الجسد.

ونأتى إلى سؤال: إذا كانت الروح موجودة فلم لا نراها؟

والإجابة ببساطة هى: أنه ليس المصحح لوجود الشىء هو الرؤية فقط، فالله موجود ولا نراه، وأصواتنا موجودة فى الفضاء الخارجى ولا نراها، وأجهزة الإرسال تبث الآلاف من الأصوات والصور فى الفضاء بموجات متعددة ولا نراها، ولم يعن هذا أنها غير موجودة، والإذاعة المسموعة والمرئية تؤكدان ذلك.

ونحن نحس آثار الله فى الوجود ولذا نؤمن به ونحس آثار الروح فى الإنسان ولذا نؤمن بوجودها.

---

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإمارة باب بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ٣/١٥٠٢.

(٣) وسائل المعرفة

عرفنا أن الإنسان مكون من مادة منظورة، و روح وعقل غيبيين، وهو مطالب بالتعامل مع الوجود واستكناه حقائقه، فكيف يعرف؟ أو ما هى وسائل المعرفة المعتبرة للإنسان؟

فى إيجاز نقول: هى الحواس الخمس الظاهرة والعقل والبصيرة، أو الإلهام والخبر المتواتر الصادق أو السماع.

فعن طريق حاسة السمع تنتقل الصوتيات، وعن طريق البصر تنتقل صور الأشياء المختلفة، وعن طريق الشم تنتقل الروائح، وعن طريق اللمس ينتقل الأملس والخشن والحار والبارد، وعن طريق حاسة التذوق تتميز المطعومات والمشروبات، إلى غير ذلك.

أما العقل فمزود بقدرات مختلفة لغوية وعملية ورياضية وميكانيكية وتخيلية، ثم عنده أوليات مثل: سبق الأب على الابن فى الخروج للوجود.

وبهذه القدرات يتعامل العقل مع المادة بحثاً عن الأسباب والمسببات، ومع ما وراءه المادة تأملاً وقياساً، وكثيراً ما يأخذ العقل المعلومات مجتمعة أو متفرقة وينزل بها إلى مجال الاستقراء العلمى حيث يخضعها للملاحظات والتجارب، والتكهن بالفروض ومحاولة التحقق.

أما المعرفة عن طريق البصيرة أو الإلهام فهى لا تتأتى إلا لمن أخضع نفسه لظروف خاصة وهى وسيلة لا تتوفر إلا للقلة النادرة.

ونأتى إلى الخبر، وهو وسيلة من أهم الوسائل العلمية فى مناهج البحث والمعرفة.

ونعنى بالخبر المتواتر الصادق أى القول المنقول من جماعة صادقة إلى جماعة صادقة إلى أن يصل إلينا.

وترجع أهمية هذه الوسيلة أنها تربط الحاضر بالماضى: فأنا لم أكن موجوداً وقت قيام ثورة عرابى أو مصطفى كامل وأنت لم تكن موجوداً وقت قيام ثورة ٢٣ يوليو، ومع ذلك فقد عرفت أنا وعرفت أنت الكثير عن الثورات السابقة، وكانت وسيلتنا الوحيدة هى الخبر المنقول بالتواتر ولو لم يكن الخبر ما عرفت شيئًا لا بالحواس ولا بالعقل.

ويكون الخبر كالحقيقة الملموسة المرئية المعاشة إذا توفر فيه صدق قائله. وصدق الناقلين عن قائله، وهكذا إلى أن يصل إلينا.

ونحن نؤمن بالله ونؤمن برسل الله وبعصمتهم عن الكذب، ولقد جاء فى أواخر المسيرة النبوية خاتمهم محمد ﷺ إلى كل البشر ليبلغهم كلمة السماء الأخيرة، ومع اشتهاره بالصدق فى كل مراحل حياته إلا أن ربه أيده أيضًا بالكثير من المعجزات التى تؤكد صدقه. ومن أهمها: المعجزة الخالدة عبر كل الأزمنة - القرآن الكريم.

ونقل القرآن الكريم إلينا بالتواتر المأمون من الخطأ، ونقلت أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته بالقريب من هذا.

وقال القرآن: إن الإنسان بعد الموت سيسأل. وقالت السنة: بمثل ذلك.

وقال القرآن: إن الإنسان سيبعث يوم القيامة ليحاسب، وقالت السنة: بمثل ذلك.

وإذ قد عرقنا أن الخبر الصادق المنقول بالتواتر من أهم وسائل المعرفة فلنعرف أن هذا الخبر يؤكد لنا أن الحياة الدنيا بما فيها من اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر والكدح والعمل ستصل بالإنسان حتمًا إلى مرحلة التوسط - بطن الأرض - لتبدأ بعد ذلك الحياة الحقيقية. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]. ويقول ﷺ: «ما أنا والدنيا إنما مثلى فيها مثل راكب سار فى يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فنام فى ظلها ساعة ثم راح وتركها»[2]. ويقول على ﷺ: «الدنيا دار ممر لا دار مقر فاعبروها ولا تعمروها وقد خلقكم للأبد ولكنكم تنقلون من دار إلى دار حتى يستقر بكم القرار».

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ١/٣٩١.

(٣) الموت

ينشر الحزن فجأة جناحيه على المكان وتسمع همسات الرجال تقول [إنا لله وإنا إليه راجعون] لقد مات فلان.

ويسأل البعض هل كان مريضًا؟ هل بلغ من الكبر عتيًا؟ هل وهل؟

وتأتى الإجابة لا هذا ولا ذاك، بل كان فى ريعان الشباب وفى كامل الصحة والعافية.

إذا لم يكن سبب الموت هو المرض أو كبر السن.

ولم يكن سببه فقدان الجسم لفاعليته.

ولم يكن بسبب تجمد الأنسجة العصبية، ولا بسبب حلول المواد الزلالية القليلة الحركة محل الكثيرة الحركة.

ولا بسبب انتشار سموم الأمعاء فى الجسم[1].

ولا ولا...

وإنما حينما حانت ساعته الموعودة خرج بلا استئذان عن دائرة العلم البشرى، والتعامل مع الوجود المستخلف فيه، ليبقى تحت دائرة العلم الإلهى مؤكدًا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

لقد دبت الحياة فى الإنسان بنفخ الروح فيه.

وينتهى دبيب الإنسان على الأرض بخروج الروح منه، أو بفقدان الروح لقدرتها على التأثير فى الجسد.

ونسأل لماذا يموت الإنسان؟

---

(١) الإسلام يتحدى ص ١١١ وحيد الدين خان.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٣٤.

وتأتينا الإجابة المبسطة يموت لأنه مسبوق بالعدم وله بداية وكل ما له بداية لابد له من نهاية.

يقول سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(١).

ويقول عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾(٢).

ويموت ليشهد الإحياء أن الدنيا مهما طالت بالإنسان فهى دار ممر لا مقر. وليقول للجميع احترسوا واعملوا لهذا اليوم. ولا يغرركم المال ولا الولد، وأنتم تاركوهما مثلى. لقد كنت أحرص عليهما منكم، وهانذا اتركهما بلا إرادة منى لأعود كما دخلت وكما عاد الذين سبقونى لنؤكد جميعاً بعودتنا القول القرآنى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُم﴾(٣).

ويموت لأنه مع اجتياز الممر الدنيوى تكون البداية للحياة الدائمة. يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٤).

إن واقعة الموت تتجدد فى كل لحظة، وفى كل مكان، ليؤكد تجددها ثباتها مهما بلغ العلم من تقدم، ومهما استخدم العلماء من أجهزة للملاحظات والتجارب.

---

(١) سورة القصص الآية: ٨٨.

(٢) سورة الرحمن الآيتين: ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٩٤.

(٤) سورة العنكبوت الآية: ٦٤.

الإنسان والأجل:

والإنسان كأى كائن مخلوق له مدة محددة، أو مساحة زمنية يعيشها على ظهر هذا الكوكب.

وهذه المدة أو المساحة الزمنية هى التى تسمى بالعمر، أو الوقت المكتوب، أو الأجل.

وبانتهاء هذه المدة يخرج من دنيا الناس؛ ليضع قدمه على بداية طريق آخر سوف نتعرض له فيما بعد.

الأجل والغيب:

والأجل من الأمور الغيبية التى لا يعلمها إلا الخالق العظيم سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

ولنا وقفة

هذه الأمور الخمسة المذكورة من مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، ومهما تعددت الاجتهادات، وتقدمت الاكتشافات العلمية، وتطورت أجهزة الاختبارات والتجارب، فإن أحدًا لن يستطيع أن يحدد موعد القيامة. ولا كمية وكيفية المطر الذى سوف ينزل، والتحكم فى إنزاله، وتوجيهه ليكون أمنًا أو خطرًا. وما يحدث فى بلدان أوربا وأمريكا التى تدعى القدرة على كل شيء أصدق دليل على ما نقول.

ولا يعرف أحد مهما أوتى من العلم، ومن قدرات على التنبؤ أو التخمين، كل ما يتصل بمستقبل الأجنة فى الأرحام مثل خروجها وبعد

---

(١) سورة لقمان الآية: ٣٤.

خروجها إلى الأرض من صحة أو مرض، وطول عمر أو قصر، وسعادة أو شقاوة، وذكاء أو غباء إلخ.

وإذا كان الإنسان فى مقدوره الآن أن يعلم بالأجهزة والتحاليل نوع الجنين - ذكر أو أنثى - فإن هذا لا يتناقض مع الآية الكريمة، إذ أنها لا تتعرض لتلك النوعية وإنما تتحدث عن كل ما يتصل بالجنين فى مستقبل الزمن يقول سبحانه ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[١].

وكسب الإنسان يتسع ليشمل كل حركة وسكنة له فى الدنيا، وكل ما يصدر عنه إن بإرادته أو بغير إرادته. والله وحده هو العليم الخبير بكل ما يتصل بهذا الكسب.

وهو وحده العليم بلحظة خروج الروح من البدن وبكيفية هذا الخروج وما يحيط به من ظروف زمانية أو مكانية أو أحوال...

والآية الكريمة التى تتحدث عن مفاتيح الغيب الخمسة تختتم بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يقول الفخر الرازى: «لما خصص أولاً علمه بالأشياء المذكورة بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ذكر أن علمه غير مختص بها بل هو عليم مطلقًا بكل شىء وليس علمه علمًا بظاهر الأشياء فحسب بل خبير علمه واصل إلى بواطن الأشياء»[٢].

الأجل والظواهر:

وأجل الإنسان لا يرتبط بأى ظاهرة من الظواهر المشاهدة مثل الصحة أو المرض و كبر السن أو صغره والغنى أو الفقر فكثيرًا ما نرى مرضى بأمراض خطيرة يتوقع موتهم فى كل لحظة ومع ذلك يطول بهم الأجل بينما يسقط من هم فى كامل الصحة والعافية.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٥.

(٢) تفسير الفخر الرازى م١٣ ص ١٦٦.

وكثيراً ما نرى أطفالاً وشباباً يموتون بلا مقدمات بينما يمتد العمر ببعض العجزة ليجاوز المائة بكثير.

وما يحدث فى دنيانا يؤكد أن الأجل غيب، وحينما تحين لحظة النهاية لا تستطيع أية قوة أن تمنعها أو تؤخرها عن موعدها برهة واحدة يقول سبحانه ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١]، ويقول سبحانه: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[٢]. ويقول عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾[٣].

الأجل لا يزيد ولا ينقص:

والآجال والأرزاق محددة أزلاً فى علم الله سبحانه وتعالى، وهى لاتزيد ولا تنقص بقول الرسول الكريم ﷺ «إن روح القدس - يعنى جبريل - نفث فى روعى - بضم الراء أى فى قلبى - أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها»[٤].

وإذا كنا نقرأ أحاديث للرسول ﷺ مثل قوله: «من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه»[٥]. وفى حديث آخر يقول ﷺ: «من سره أن يمد له فى عمره ويوسع له فى رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه»[٦] فلا ينبغى لنا أن نفهم أنها تشير إلى زيادة فى الرزق أو العمر؛ لأن السنة الشريفة لا تتناقض مع القرآن الكريم. إذ هى المذكرة التفسيرية التوضيحية التكميلية لما جاء فى القرآن الكريم.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٣٤.

(٢) سورة النساء الآية: ٧٨.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٤٥.

(٤) رواه البخارى ومسلم.

(٥) رواه البخارى ومسلم.

(٦) رواه البخارى ومسلم.

وإنما علينا أن نفهم أن المراد بالزيادة هنا البركة فى العمر والرزق، يعنى أن الواصل لرحمه يبارك الله له فى رزقه مهما كان قليلاً، بأن يوفقه فى إنفاقه فيما يحقق له الأمن والسعادة فى الدنيا والفوز برضوان الله فى الآخرة. ويبارك له فى عمره بتوفيقه لعمل الكثير من الخيرات التى تكسبه رضاء الله تعالى ثم رضاء الناس والفوز بالدنيا والآخرة.

لا تعارض

ونأتى إلى سؤال يقول سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1] والمفهوم من الآية الكريمة أن المتوفى بكسر ما قبل الآخر أى فاعل الوفاة وهو الله سبحانه وتعالى.

وفى آية أخرى ثانية يقول سبحانه ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[2] والذى يفهم من الآية أن المتوفى بالكسر أيضًا لما قبل الآخر هو ملاك الموت.

وفى آية ثالثة يقول عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾[3] ومعنى الآية أن المتوفى هم رسل الله.

والسؤال هل يوجد تعارض بين الآيات السابقة؟

والإجابة بإيجاز لا تعارض البتة فالوفاة لا تحدث إلا بإذن الله ومشيئته وإرادته ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

---

(١) سورة الزمر الآية: ٤٢.

(٢) سورة السجدة الآية: ١١.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٦١.

(٤) سورة يس الآية: ٨٢.

ويتولى ملاك الموت بعد أذن الله له باستخراج الروح وقبضها «ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ويتولونها بعده كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره وحكمه فصحت إضافة التوفي إلى كل بحسبه»(١).

ونأتي إلى سؤال آخر.

إذا كان الموت يعنى فقدان الحياة، أو خروج الروح من البدن، أو فقدان الجسم لفاعليته، أو انعدام قدرة الروح على التأثير فى البدن، أو جمود عجز المخ، أو استيفاء الأجل المكتوب للإنسان.

أيا كان تعريف الموت، فهل المقتول استوفى أجله؟ أم أن القاتل قطع عليه أجله.

يقول أهل السنة إن الأجل لا يقبل الزيادة أو النقصان فما قدره الله لشخص فهو واقع لا محالة، وعليه فكل مقتول ميت بانقضاء عمره فى الوقت الذى علم الله سبحانه وتعالى حصول موته فيه أزلاً.

يقول الباقلانى: «فإن قال قائل فخبرونا عن المقتول أيموت بأجله المحكوم له به؟ أم هو مقطوع عليه أجله؟

قيل له بل يموت بأجله المقدر.

فإن قال وما الحجة فى ذلك؟

قيل له: قوله عز وجل ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢) وأجل الموت هو وقت الموت كما أن أجل الدين هو وقت حلوله، وكل شىء وقت به فهو أجل له، وأجل الإنسان هو الوقت الذى يعلم الله أنه يموت فيه لا محالة»(٣).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية جـ٢ ص ٥٦٢.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٣٤.

(٣) التمهيد ص [illegible] تحقيق عماد الدين حيدر ـ الكتب الثقافية بيروت سنة ١٩٨٧م.

ويرى كثير من المعتزلة أن المقتول ميت بغير أجله ولو لم يقتل لعاش، وإن القاتل قطع عليه أجله.

ويستدلون على ما يقولون بقوله تعالى: ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾، وتعنى الآية فى رأيهم تعدد الآجال للفرد الواحد.

كما يقولون أن القاتل لو لم يكن قاطعًا لأجل المقتول لما استحق الذم والقصاص، وعدم استحقاقه ذلك باطل بالإجماع، فتبين أن القاتل قاطع لأجل المقتول[1].

ويرد أهل السنة عليهم:

بأن تعدد الآجال فى الآية الكريمة المراد من الأجل الأول أجل الدنيا والأجل الثانى المسمى عنده هو أجل الآخرة.

وأن القاتل استحق الذم والقصاص لارتكابه كبيرة من الكبائر التى نهى الله عنها، لا لقطعه الأجل المكتوب.

يقول البغدادى «وزعم الباقون من القدرية ـ هم أغلب البغدادين من المعتزلة ـ أن المقتول مقطوع عليه أجله ـ فجعلوا العباد قادرين على أن يتقصوا مما أجله الله عز وجل ووقته.

ولو جاز ذلك لجاز أن يزيدوا فى أجل من قضى الله له أجلاً محدوداً.

وإذا لم يقدروا على الزيادة فى أجل آخر لم يقدروا على النقصان منه»[2].

(١) راجع شرح الأصول الخمسة لعبدالجبار ص ٧٨٢.

(٢) أصول الدين ص ١٤٣.

(٤) الروح وأدلة وجودها

نستريح كثيراً للقول بأن الإنسان يتكون من جزءين رئيسين هما الجسد والروح.

وأن الموت يعنى انتهاء الأجل المكتوب. ومهما تعددت الأسباب فالموت واحد يقين لا يقبل الشك.

وقد علمنا أنه بخروج الروح من الجسد، أو بانفصال الروح عن الجسد، أو بفقد سيطرة الروح على الجسد، يتحقق الموت ونقول وقتها إن فلانًا قد مات.

والحقيقة أن الجسد هو الذى انتهت قدرته بإرادة الله عز وجل عن استقبال مؤثرات الروح، ومع انتهاء الاستقبال والإرسال، يعود الجسد القهقرى؛ ليتصل بأصله التراب بينما تعود الروح إلى عالمها العلوى.

فما هى الروح إذاً؟ وهل هناك أدلة تؤكد وجودها؟

قبل أن نذكر بعض التعريفات المقبولة للروح نحدد فى البدء أن لفظة الروح بضم الراء ذكرت فى القرآن الكريم بصيغة المفرد إحدى وعشرين مرة لتعبر عن معانى مختلفة.

من هذه المعانى:

١) كل أمر خفى لطيف به حياة النفوس وصلاح الأمم وهو الوحى أو القرآن أو أمر النبوة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١).

---

(١) سورة الشورى: ٥٢.

ويقول سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالـــرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(١). وقد سمى سبحانه الوحى أو القرآن الكريم روحًا؛ لأنه يفيد الإنسان بإخراجه من موت الجهل إلى حياة العلم ومن موت الكفر إلى حياة الإيمان.

٢) يطلق الروح وروح القدس على ملاك الوحى جبريل عليه السلام يقول سبحانه ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيـــسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(٢) ويقول سبحانه ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(٣). ويقول سبحانه ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾(٤).

٣) وسمى عيسى بن مريم روحًا من الله يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيـــسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(٥) لأنه نشأ بحياة ألقاها عز وجل إلى مريم دون المعتاد مما عليه البشر من وجود لقاء بين رجل وامرأة يتحقق من اللقاء تلقيح الحيوان المنوى للبويضة لتبدأ قصة تكون الجنين.

وما يفعله هو دليل على شمول قدرته وأنه خالق الأسباب وأن بقدرته أن لا يوجد الأسباب المعتادة ويوجد المسبب فقد خلق آدم بلفظ كن دون أب أو أم وخلق عيسى بن مريم بلفظ كن من دون أب يقول الفخر الرازى فى تفسيره للآية الكريمة «يا أهل الكتاب من النصارى لا تغلوا فى دينكم فى

---

(١) سورة النحل الآية: ٢.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٣.

(٣) سورة مريم الآية: ١٧.

(٤) سورة الشعراء الآية ١٩٣.

(٥) سورة النساء الآية: ١٧١.

تعظيم المسيح... وما هو إلا رسول الله وعبده.... وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة».

ثم يعرض بعض الوجوه فى قوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾:

الأول: إنه جرت عادة الناس إذا وصفوا شيئًا بعناية الطهارة والنظافة قالوا إنه روح فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام وصف بأنه روح. والمراد من قوله «منه» التشريف والتفضيل.

الثانى: أنه كان سببًا فى حياة الخلق فى أديانهم ومن كان كذلك وصف بأنه روح.

الثالث: أنه روح من الأرواح الشريفة القدسية العالية[1].

٤) وتطلق الروح ويراد بها ملك عظيم من الملائكة لا يعلمه إلا الله تعالى ويقال أنهم طائفة من الملائكة يرون الملائكة ولا تراهم فهم للملائكة كالملائكة لنبى آدم وهؤلاء لهم شرف ومكانة خاصة أو هم جند من جنوده لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى يقول تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[2] ويقول سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[4].

يقول ابن القيم «أكثر السلف على أن االروح المسئول عنها فى الآية الكريمة ليست أرواح بنى آدم بل هى الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه

---

(١) تفسير الفخر م٦ جـ١١ ص ١٧.

(٢) سورة المعارج الآية ٤.

(٣) سورة النبأ الآية ٣٨.

(٤) سورة ا[illegible] الآية ٨٥.

يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم ـ ـ ـ ـ ثم يقول عن سؤال اليهود للرسول ﷺ ـ ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس أما أرواح بنى ادم فليست من الغيب وقد تكلم فيها طوائف من أهل الملل وغيرهم»[1].

٥) وتطلق ويراد بها أرواح البشر أو المؤثر فى أجسامهم بجعلها أجسامًا حية تحس وتتحرك وتنمو وتتغذى إلخ يقول سبحانه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[2] ويقول عز وجل ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[3].

وأضيفت روح آدم إليه سبحانه وتعالى من باب التشريف والتكريم لهذا المخلوق المستخلف على الأرض.

٦) وتطلق الروح ويراد بها القوة والثبات والنصرة التى يؤيد بها الله سبحانه من يشاء من عباده يقول سبحانه ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[4].

ويلاحظ ان ارواح بنى آدم لم تقع تسميتها فى القرآن الكريم فى الغالب إلا بالنفس، والنفس هى الروح طالما كانت متلبسة بالجسم، فإذا فارقته تسمى بالروح فقط.

كما تطلق لفظة النفس للتعبير عن الإنسان بجزئية الروح والجسم يقول سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[5].

(١) الروح ص ١٥١.

(٢) سورة الحجر الآية ٢٩.

(٣) سورة السجدة الآية ٧ ـ ٩.

(٤) سورة المجادلة الآية ٢٢.

(٥) سورة يوسف الآية ٥٣.

ونسأل ما هى الروح؟

لما كانت الروح من الأمور الغير مرئية فإننا نكتفى بالقول بأنها شىء غيبى، أو مخلوق غيبى له تأثيره الكامل على كل ذرة فى البدن الإنسانى، طالما كان التأثير مسموحًا به من الخالق سبحانه.

وليس العقل بقادر على تحديد دقيق لهويتها، وإنما فى إمكانه فقط التعرف على آثارها.

ونذكر بعض التعريفات المقبولة لدينا ونمهد لها بالنص التالى:

«اختلف فى الروح ما هى؟ فقيل هى جسم. وقيل عرض. وقيل لا ندرى ما الروح أجوهر أم عرض؟ وقيل ليس الروح شيئًا أكثر من اعتدال الطبائع الأربع - أى الماء والنار والتراب والهواء - وقيل هى الدم الصافى الخالص من الكدر والعفونات، وقيل هى الحرارة الغريزية، وقيل هى جوهر بسيط منبث فى العالم كله من الحيوان على جهة الأعمال والتدبير»[١].

ويعرفها الجوينى بقوله «الأرواح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة، أجرى الله العادة باستمرار حياة الأجسام ما استمرت مشابكتها لها، فإذا فارقتها يعقب الموت الحياة فى استمرار العادة»[٢].

ويقول الفيروزأبادى «الروح لطيفة ربانية، وعنصر من عناصر العالم العلوى تتصل بمدد ربانى إلى العالم السفلى وعلى حسب درجة الحيوانات، وتفاوت الحالات التى لهم تتصل بهم.

ولما كان الإنسان فى الصورة والصفة والمعنى أكمل.... كان المتصل به من ذلك أفضل الأرواح، ليس لأحد من العالمين وقوف على سر تلك اللطيفة وحقيقتها....»[٣].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية جـ٢ ص ٥٦٤.

(٢) الإرشاد ص ٣٧٧.

(٣) بصائر [illegible] التمييز جـ٣ ص ١٠٦.

ويقول المعتزلة والمتصوفة أنها جوهر مجرد متعلق بالبدن غير داخل فيه ولا خارج عنه.

ويرى بعض فقهاء المالكية أن الروح جسم، له صورة كصورة الجسد فى الشكل والهيئة فهى ذو جسم ويدين ورجلين وعينين ورأس، تسل من الجسد سلا، ولا يلزم من قطع جزء من الجسد قطع نظيره من الروح، بل أن لطافتها تقتضى سرعة انجذابها من ذلك العضو المقطوع قبل انفصاله»[١].

ويذهب ابن سينا إلى القول بأن الإنسان مركب من الجسد والنفس - أى الروح - وليس بين الجسد والنفس اتصال فى الجوهر. فالجسد مكون من خليط مادى، أما النفس فجوهرها روحانى، هى جوهر بسيط روحانى مجرد عن المادة قائم بنفسه، يحتاج إليها الجسد لتكون بها حياته وحركته وإدراكه ولا تحتاج هى للجسد.

ولها خصائص منها أنها تدرك نفسها، وتدرك أنها تدرك، وأنها ثابتة غير متغيرة، وأنها باقية غير فانية، وأنها تدرك المعقولات، وأنها غير خاضعة للرؤية[٢].

ولعلنا نلاحظ أن التعريفات كلها محاولات اجتهادية قام بها الفلاسفة والمتكلمون وعلماء النفس والفقهاء للاقتراب من الهوية، لكنها فى دلال بقيت سرًا من أسرار الله لتستمر الاجتهادات يقول سبحانه: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[٣].

---

(١) تحفة المريد على جوهرة التوحيد للباجورى ص .

(٢) راجع كتاب الشفاء.

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٥.

بعض الأدلة النقلية والعقلية على وجود الروح أو النفس:

وسواء أكانت الروح جوهرا روحانيًا أو لطيفة ربانية أو جسمًا يخالف الجسم المحسوس. وسواء أكانت داخل الجسم أو خارجه أو متشابكة معه فى أى صورة من الصور أو سارية فى كل عضو من أعضائه.

أيا كانت وبأى كيفية تكون فهى موجودة بدلالة النقل والعقل. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[١] فالآيتان الكريمتان تؤكدان الاثنينية فى الإنسان الطين المسوى والروح التى هى من أمر الله والمبثوثة بقدرته سبحانه وتعالى.

ويقول سبحانه ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[٢] ففى الآية الأخبار عن التوفى والإمساك والإرسال للنفس.

ويقول عز وجل ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾[٣] فالملائكة يبسطون اليد لتناول النفس، وهم يطالبون الظالمين احتقارا لهم وإظهارا لعجزهم بإخراج النفس من الجسم ولا يكون ذلك إلا يتحقق الوجود الفعلى للنفس.

والرسول ﷺ يقول: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»[٤] ويقول ﷺ: قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء»[٥].

---

(١) سورة ص الآية ٧١ ـ ٧٢.

(٢) سورة الزمر الآية ٤٢.

(٣) سورة الأنعام الآية ٩٣.

(٤) أخرجه مسلم عن أم سلمة فى حديث طويل.

(٥) أخرجه البخارى من حديث أبى قتادة.

ومن الأدلة العقلية على وجود الروح أو النفس ما يلي:

١) **دليل الأنا:** إننى حينما أحدثكم الآن أغفل تمام الغفلة عما يدور داخل جسمى من مثل دقات القلب وحركة الدم وعمليات الهضم، وربما أدى انشغالى بالموضوع المعروض إلى الغفلة عن أعضاء جسمى الظاهرة ومع ذلك فانا أردد أنا أرى وأنا لا أرى، وأنا استريح لكذا ولا استريح لكذا.

وبالطبع فحينما أقول أنا لا أعنى أجزاء جسمى الظاهرة أو ما يدور بداخلى فأنا غافل تمام الغفلة عن ذلك، وإنما أعنى شيئًا آخر وهو النفس فأنا مستحضر لنفسى، وهذا الاستحضار دليل على وجودها، وعلى أنها شىء مغاير تمام المغايرة للجسم، لأنها لو كانت عين الجسم وأنا غافل عنه أثناء المناقشة لكنت غافلاً ولما قلت أنا.

يقول ابن سينا «إن الإنسان إذا كان منهمكا فى أمر من الأمور فإنه يستحضر ذاته، حتى أنه يقول إنى فعلت كذا أو فعلت كذا، وفى مثل هذه الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه، والمعلوم بالفعل غير ما هو مغفول عنه فذات الإنسان مغايرة للبدن»[١].

٢) **دليل الرجل المعلق:** لنفترض أن رجلاً ولد من ساعته كامل الرجولة والجسم والعقل أى أنه لم يمر بالفترات التى يمر بها أى إنسان، وبعد خروجه مباشرة للوجود غطت عيناه وأغلقت أذناه وعلق فى الفضاء الخارجى وتم عزل أجزائه عزلا كاملاً بحيث لا تتلاقى ولا تحس باحتكاك الهواء.

هذا الرجل مع هذا لا يشك لحظة واحدة فى أنه موجود مع أنه لا يعلم شيئًا عن جسمه ولا عن الأجواء التى تحيط به بل يتعذر عليه إثبات أى جزء من أجزاء جسمه.

---

(١) رسالة فى معرفة النفس الناطقة ص ٩، وراجع أحوال النفس لابن سينا ص ١٨٤ البرهان الثانى.

فما مصدر معرفته بوجوده إذا كانت حواسه معزولة وجسمه معزولاً وهو لا يعلم عن المادة شيئا.

ليس هناك من مصدر لمعرفته بوجوده إلا شيئًا مغايرا تمامًا للجسم والحواس وهذا الشيء هو النفس.

يقول ابن سينا «يجب أن يتوهم - أى يتخيل - الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملاً، ولكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات، وخلق يهوى فى هواء أو خلاء هويًا لا يصدمه فيه قوام الهواء صدمًا يحوج إلى أن يحس، وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس.

ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته، فلا يشك فى إثباته لذاته موجودًا، ولا يثبت مع ذلك طرفًا من أعضائه ولا باطنًا من أحشائه ولا قلبًا ولا دماغا... بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولاً ولا عرضًا ولا عمقًا... وأنت تعلم أن المثبت غير الذى لم يثبت، والمقر به غير الذى لم يقر به، فإذا الذات التى أثبت وجودها خاصة لها، على أ نها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التى لم تثبت»(١).

٣) ولابن سينا دليل آخر على وجود النفس يقول فيه «تأمل أيها العاقل فى أنك اليوم فى نفسك هو الذى كان موجودا فى جميع عمرك حتى أنك تتذكر كثيرًا مما جرى من أحوالك فأنت إذا ثابت مستمر لا شك فى ذلك وبدنك وأجزائه ليس ثابتًا مستمرًا بل هو أبدا فى التحلل والانتقاض؛ ولهذا لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه، فتعلم نفسك أن فى مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك وأنت تعلم بقاء ذاتك فى هذه المدة بل جميع عمرك، فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة»(٢).

---

(١) الشفاء جـ١ ص ٢٨١.

(٢) رسالة فى معرفة النفس الناطقة ص ٩، وراجع الإشارات والتنبيهات القسم الثانى ص ٣٤٣ - ٣٥٩.

ولعل هذا الدليل يتضح أكثر لو تصورنا شيخًا هرمًا مريضًا فهو مع ابتداء كان جنينًا، ثم بعد الولادة مر بطفولة صحبها تغير مستمر فى جسمه إلى أن صار شابًا يانعًا قوى الجسم، وحينما دخل فى دور الكهولة لاحق جسمه التغير إلى أدنى، وفى دورة الشيخوخة حينما أصيب بالمرض داخل جسمه النقصان المستمر، ومع كل هذه التغيرات التى تحدث فى جسمه لم يحدث تغير يذكر فى نفسه، بل ظلت هى فى كل فترات عمره وبها يستحضر كل ما مر به من أحداث عمره الطويل.

فهناك إذا جانب متغير بصفة مستمرة، وجانب آخر ثابت بصفة مستمرة وبالجانب الثابت نلاحق الأحداث حتى إذا سئلنا عنها بعد فترة طويلة تذكرناها، ولا شك أن المتغير وهو الجسم غير الثابت الذى لم يتغير وهذا يدل على وجود النفس ومغايرتها للجسم.

٤) وهذا دليل أخير يبين مغايرة النفس للبدن، ويحدد حقيقة النفس نذكره بلفظ ابن سينا دون تعليق لوضوحه للأفهام.

«الإنسان يقول أدركت الشيء الفلانى ببصرى فاشتهيته أو غضبت منه. وكذا يقول: أخذت بيدى ومشيت برجلى، وتكلمت بلسانى وسمعت بأذنى. وتفكرت فى كذا وتوهمته وتخيلته.

فنحن نعلم بالضرورة أن فى الإنسان شيئًا جامعًا يجمع هذه الإدراكات ويجمع هذه الأفعال.

ونعلم بأيضًا بالضرورة أنه ليس شيء من أجزاء هذا البدن مجمعًا لهذه الإدراكات والأفعال، فإنه لا يبصر بالأذن ولا يسمع بالبصر ولا يمشى باليد ولا يأخذ بالرجل.

ففيه شيء مجمع لجميع الإدراكات والأفاعيل الإلهية فإذن الإنسان الذى يشير إلى نفسه بـ «أنا» مغاير لجملة أجزاء البدن - فهو شيء وراء البدن.

ثم نقول: إن هذا الشيء الذى إنه هوية الإنسان ومغاير لهذه الجثة لا يمكن أن يكون جسمًا ولا جسمانيًا، لأنه لو كان كذلك لكان أيضًا منحلاً سيالا قابلاً للكون والفساد بمنزلة هذا البدن، فلم يكن باقيا من أول عمره إلى آخره.

فهو إذن جوهر فرد روحانى، بل هو نور فائض على هذا القالب المحسوس بسبب استعداده وهو المزاج الإنسانى.

وإلى هذا المعنى أشير فى الكتاب الإلهى بقوله تعالى: «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى، فالتسوية هى جعل البدن بالمزاج الإنسى مستعدًا لأن تتعلق به النفس الناطقة ـ وقوله «من روحى» إضافة لها إلى نفسه لكونها جوهرًا روحانيًا غير جسم ولا جسمانى»[1].

تعلقات الروح:

وللروح بالبدن خمسة أنواع من التعلق:

الأول: تعلقها ببدن الإنسان وهو فى بطن أمه جنينًا.

الثانى: تعلقها ببدن الإنسان بعد مولده مباشرة وخروجه إلى دنيا الناس.

الثالث: تعلقها ببدن الإنسان حالة كونه نائمًا فهى تفارقه من وجه وتتعلق به من وجه آخر.

الرابع: تعلقها ببدن الإنسان بعد موته حيث تتجرد من هذا البدن إلا أنه يبقى الاستعداد لديها للالتفات ولا يعنى هذا الالتفات رجوع الحياة المعروفة لدينا إلى البدن مرة ثانية.

---

(١) أحوال النفس لابن سينا ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

الخامس: وهو أكمل أنواع التعلق حيث تعود الروح إلى البدن الذى كانت متعلقة به فى الدنيا وذلك يوم البعث استعدادًا للحشر والنشر والسؤال إلخ.

والتعلق الأخير لا يقبل البدن معه موتًا ولا نوما[1] وإنما تكون معه الحياة الحقيقية الخالدة ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

النفس واحدة والمتعدد أحوالها:

والنفس هى الروح طالما كانت مرتبطة بالبدن وهى واحدة والذى يتعدد هو أحوالها فهى حينما تصغى للشيطان وتنفذ توجيهاته وتبتعد عن الالتزام بالأوامر وتغوص فى يم النواهى وتميل للشر هنا توصف بأنها النفس الأمارة ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[3].

وعندما تتردد بين الخير والشر مغلبة جانب الخير على الشر تائبة كلما وقعت فى معصيته، مهذبة للدوافع الأولية أو الغرائز فإنها توصف بالنفس اللوامة ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ① وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾[4].

وهى تعتبر الرقابة الداخلية التى تبعد الإنسان فى أحيان كثيرة عن الوقوع فى المهالك وتدفعه للندم والتوبة إن هو وقع فعلاً وتدعوه إلى الاستغفار.

أما النفس التى آمنت والتزمت لكل أركان الإيمان وتخلقت بالخلق الكريم، وابتعدت كلية عن المفاسد، ورضيت بقضاء الله وقدره، وتحركت

---

(١) راجع الروح لابن القيم ص ٤٤.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٤.

(٣) سورة يوسف الآية ٥٣.

(٤) سورة القيامة الآيتان ١ ـ ٢.

دائمًا فى دائرة الالتزام بالأوامر، والابتعاد عن النواهى، واستمتعت بالخشية والتقوى فهى التى توصف بالنفس المطمئنة يقول سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[1] النفس إذا واحدة لها صفات «فهى إمارة بالسوء فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة.. فإذا قوى الإيمان صارت مطمئنة»[2].

الروح محدثة لا قديمة:

والروح خلق من خلق الله سبحانه لم يكن لها وجود ثم خرجت من العدم إلى الوجود بإرادة كن.

وهى ليست ذات الله تعالى ولا اسم من اسمائه ولا صفة من صفاته وكل ما كان كذلك فهو مخلوق محدث.

ومن الأدلة على حدوث الروح ما يلى:

أ) يقول سبحانه وتعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[3] واللفظ عام يشمل كل ما سوى ذاته وصفاته وأسمائه. والروح شىء من الأشياء يقع عليها ما يقع على بقية الأشياء، وإذا كانت الأشياء مخلوقة فالروح مخلوقة لإندراجها ضمن الأشياء.

ب) يقول سبحانه ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾[4] أى قد أتى على الإنسان وقت كان فيه عدمًا. وسواء أردنا بالإنسان آدم عليه السلام أو الجنس البشرى كله، فإن كلا منهما لم يكن ثم كان وكل ما كان كذلك فهو حادث.

---

(١) سورة الفجر الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) شرح الطحاوية جـ٢ ص ٥٦٩.

(٣) سورة الرعد الآية ١٦.

(٤) سورة الإنسان الآية ١.

فالإنسان لا يكون إنسانا إلا بجزئيه البدن والروح، فإنا لا نقول على البدن وحده إنسانًا كما لا نقول على الروح وحدها إنسانًا، بل نقول بدن الإنسان وروح الإنسان وبهما يكون الإنسان إنسانًا.

وإذا كان الإنسان بجزئيه مسبوقًا بالعدم أى أنه حادث فكل جزء من أجزائه حادث مخلوق، والروح أحد الجزئين فهى إذا مخلوقة.

جـ) هناك نصوص كثيرة في القرآن الكريم تبين أن الله رب كل شيء والرب بمعنى الخالق... وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا فالأرواح مربوبة له مملوكة مخلوقة كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق»[1].

يقول ابن تيمية قال الشيخ أبو سعيد الخراز... «لو لم تكن مخلوقة لما أقرت بالربوبية وقد قال لهم حين أخذ الميثاق وهم أرواح فى أشباح ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ وإنما خاطب الروح مع الجسد وهل يكون الرب إلا لمربوب قال ولأنها لو لم تكن مخلوقة ما كان على النصارى لوم فى عبادتهم عيسى ولا حين قالوا إنه ابن الله وقالوا هو الله»[2].

وقد كفر الله سبحانه الذين قالوا بأن المسيح هو الله أو هو ابن الله أو هو وأمه إلهين من دون الله، لأن عيسى مخلوق لله وعبادتهم وقولهم هو إشراك بالله.

إضافة الروح إلى الله لا تعنى قدمها:

وإذا كان سبحانه وتعالى يقول ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[3] فإن إضافة الروح إلى ذاته تعالى لا تعنى قدم الروح

---

(١) الروح ص ١٤٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية المجلد الرابع ص ٢٢٠.

(٣) سورة ص الآية ٧٢.

وإنما هي كإضافة البيت والناقة والعبد والرسول حيث نقول بيت الله وعبدالله ولهذه الإضافة ميزة إذ أنها تكسب المضاف تشريفًا لكونه مضافًا إلى الله وبهذا يتميز ما أضيف إلى الله عما أضيف إلى غيره يقول شارح الطحاوية «فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر. فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها .....

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه. لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز بها المضاف عن غيره»[1].

أيهما يموت الروح أم البدن؟

عرفنا فيما سبق أن الروح مخلوقة وكذا البدن، ومن الحقائق الثابتة أن الموت هو نهاية الإنسان وهو البداية لرحلة الخلود.

والسؤال أيهما يلحقه الموت الروح أم البدن؟

المشاهد لنا أنه بموت الإنسان يتحلل جسده ويعود القهقرى إلى أصله التراب.

أما الروح فلا نراها مع أنها موجودة بآثارها الواضحة وهذا يجعلنا نسارع فنقول بأن الموت بمعنى التحلل والتفكك والاضمحلال يكون للبدن أما الروح فلا تموت.

لكننا نقرأ الآيات المحكمات التي تؤكد أن الفناء يلحق كل شيء، ولا يبقى إلا ذات الله تعالى المتصفة بكل كمال والمنزه عن أي نقص يقول سبحانه وتعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ

---

(١) شرح الطحاوية جـ٢ ص ٥٦٣.

ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[١] ويقول سبحانه ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٢] ومن عليها، وكل شيء ألفاظ تفيد العموم، يندرج تحتها فيما يندرج البدن والروح.

ويقول تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وهذا القول القرآنى معناه أن النفس تموت كما يموت البدن. وهذا رأى البعض أما البعض الآخر والذى يقول إن الموت للبدن وحده أما الروح فهى خالدة فإنه يفسر قوله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ بقوله الهاء ترجع إلى الأرض أى كل من هو متصل بالأرض، والروح بعد خروجها من الجسد تصبح فى عالم آخر غير عالم الأرض الذى هو فان، مع ارتباطها بالجسد بنوع من التعلق.

ويفسر قوله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ أى قابل للهلاك فكل ما كان معدوما ثم وجد يكون قابلا أى جائز الوجود وجائز العدم، ولا تعنى هذه القابلية ضرورة العدم إلا إذا تعلقت إرادة الله تعالى بذلك ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾.

كما يفسر هذا البعض الهلاك بموت البدن وعدم قدرته على الاستجابة لإشارات الروح.

وإذا كان الواقع يؤكد هلاك البدن فإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تشيران إلى بقاء الروح بعد الموت لتتلقى النعيم أو العذاب ولترد السلام إلخ... يقول تعالى ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[٣] ويقول الرسول الكريم «إذا مات

---

(١) سورة الرحمن الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) سورة القصص الآية ٨٨.

(٣) سورة غافر الآية ٤٦.

الإنسـان انقطع عمله إلا من ثلاث صـدقـة جارية، أو علم ينتـفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١].

يقول ابن القيم «وقال آخرون لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان...»[٢].

وعن قـوله تعـالى ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ فـالمعنى بالنفس الإنسـان بجزئيه ويكون الموت للبدن بفقدانه كل شيء وعودته إلى أصله التراب، أما النفس التي هي الروح فموتها يكون بانفصالها عن البدن الذي تلبست به وظلت ملازمة له منذ التكوين الأول للجنين إلى أن حان الأجل.

يقـول ابـن القـيـم «إن مـ‍ـ‍ت النفـوس هو مـفـارقـتـهـا لأجسـادها وخروجـهـا منهـا، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعـدم وتضـحمـل فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو عذاب»[٣].

---

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) الروح ص ٣٤.

(٣) الروح ص ٣٤.

(٥) ما بعد الموت

الحياة تمضى وكأننا جميعًا على سفر يجمعنا قطار واحد، وتتعدد أماكن نزولنا، ومن يأتى دوره ينزل دون تردد ودون هوادة، وربما نحزن عليه وربما نفرح لنزوله، وربما نسأل أنفسنا لماذا نزل؟ ولم فى هذا الوقت بالذات وإلى أين يذهب؟

أسئلة كثيرة تطرح نفسها كلما سمعنا بموت إنسان.

والمسافر ربما يعود ليجيبنا على أسئلتنا، لكن الميت يودعنا بالصمت ويتركنا حيارى على الطريق.

لقد دخل الدنيا وهو يبكى لماذا؟ لا ندرى - وخرج من الدنيا ونحن نبكى لماذا؟!! لا ندرى.

واقعة تتجدد كل لحظة دفعت الإنسان إلى التفكر والتأمل فى ذاته وفى الكون وفى رسالات السماء.

ويسأل الإنسان نفسه لماذا نموت؟ ويجيبه صوت العقل؟ نموت لأن لنا بداية وكل ما له بداية فله نهاية، ونموت لأنه مع النهاية الدنيوية تكون البداية للحياة الدائمة. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾(١) ويقول سبحانه: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون ﴾(١) ويقول الفيلسوف اليونانى سقراط: «عندما فتشت عن علة الحياة وجدت الموت وعندما وجدت الموت ألفيت الحياة الدائمة».

ويسأل الإنسان: وإلى أين يذهب الموتى؟

---

(١) سورة الكهف الآية: ٤٦.

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٦٤.

ويجيبه صوت العقل: *إلى القبر - إلى العالم البرزخي الفاصل بين الدنيا والآخرة*. والقبر هو كل مكان استقر فيه جسد الإنسان بعد مفارقة الروح له حتى لو كان جوف الوحوش أو حواصل الطيور أو قيعان البحار والمحيطات وحتى لو أحرق الجسد وذرى في الرياح.

ويسأل الإنسان: هل يجوز السؤال والنعيم أو العذاب في القبر؟

ويجيبه العقل: نعم كل ذلك ممكن إذ لا يترتب عليه أي استحالة.

ولقد سبق أن عرفنا أن الخبر الصادق من أهم وسائل المعرفة، وقد أعلمنا سبحانه وتعالى كما أعلمنا رسول ﷺ بتحقق وقوع ذلك، فأي شك يكون بعد الإمكان العقلي والتحقق الفعلي بلسان الشرع؟

لنناقش أكثر.

(٦) النعيم فى القبر أو العذاب «نظرة عقلية»

قلنا: إن السؤال والثواب أو العقاب فى القبر من الأمور الممكنة عقلاً وذلك لأن الإنسان كان عدمًا ثم صار موجودًا ثم خرج من الوجود بالموت، فهو إذًا قابل للوجود والعدم أى أنه ممكن لذاته وما كان ممكن الذات لا يتحول إلى واجب لذاته إذ لو صح تحوله لما مات وكذلك لا يتحول إلى مستحيل لذاته؛ لأنه لو صح ذلك لما وجد أصلاً، وليس للأزمنة أو الأمكنة أى تأثير عليه لذاتها، فإذا مات الإنسان تعلقت قدرة الله تعالى بإحيائه لسؤال الملكين وقدرة الله شاملة لكل الممكنات لا يعجزها أى شىء.

وعلى هذا فإن الميت يعطى نوعًا من الحياة فى قبره ليعرف السؤال ويقدر على الجواب ويحس باللذة أو الألم.

أما ما يقال: إننا نشاهد الميت جثة هامدة لا حركة له ولا أثر عليه من سؤال أو جواب أو لذة أو ألم فإن هذا مردود لأن الإنسان قبل وجوده كان عدمًا ثم صار موجودًا ثم يخرج من دائرة الوجود بالموت ولا دخل له فى هذه الأشياء جميعًا، وهذا يؤكد أنه ممكن الوجود والعدم أى قابل لأيهما.

ثم الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء.

فإذا آمنا بهاتين القضيتين وجب أن نؤمن وأن نسلم بأن الله سبحانه وتعالى يمنح الميت نوعًا من الحياة لا نرى أثرها عليه بحيث يحس هو ولا نحس ويرى هو ولا نرى، كما كان يعطى رسول الله ﷺ القدرة على رؤية وسماع جبريل عليه السلام، ولا يراه ولا يسمعه أحد من الحاضرين من الصحابة رضوان الله عليهم.

وإيماننا بعصمة الأنبياء عن الكذب يؤكد صدق هذه القضية.

وما يؤكد هذا أيضًا: أننا نرى النائم ساكن الحركة، وقد يكون فى حالة معاناة من ألم شديد، أو فى حالة من السعادة الوافرة، وقد يكون فى

لذة نتيجة رؤيته فى منامه ما كان يتمناه فى يقظته، بل قد يكون جالسًا مع الذين سبقوه بالموت ويطعم معهم، بل قد يرى آمالاً تتحقق له فى المنام ربما لا يكفى العمر كله لتحقيق جزء يسير منها.

ومع كل هذه الأحلام التى تسبب الفرح أو الحزن والتى يعايشها النائم فإننا نجلس بجواره ولا نحس ولا نرى شيئًا مما يحسه ويراه. واعتقد أن أحدًا منا لا يخلو من مثل هذه الأحلام وفى الحلم تتحطم حجب الزمان والمكان بل ربما تتحطم كل المقاييس العلمية.

كذلك تكون حياة الميت فى القبر لا أثر لمقاييسنا أو افتراضاتنا طالما أنه فى حد ذاته أمر ممكن وطالما أن هناك ربًا يتصف بالقدرة على أى شىء.

أما ما يقال: بأن الوحوش قد تفترس الإنسان، أو أن جسده قد يحترق، وهذا يعنى انعدام القبر، وبالتالى ينعدم إحياؤه أو إحساسه باللذة أو الألم.

فمردود لأن المقايسس التى نقيس بها الأشياء لا يخضع لها عالم الغيب وشمول قدرة الله تجعل بطون السباع قبورًا وتجعل ما نراه قد احترق تمامًا قابلاً للسؤال وقادرًا على الجواب.

وتقريبًا فقط فإننا ننظر فى الفضاء الخارجى فلا نرى شيئًا، مع أن الآلاف من أجهزة الإرسال تبث صورًا وأصواتًا فإذا قمنا بفتح أجهزة الاستقبال رأينا صورًا تتحرك وسمعنا أصواتًا مفهومة مع أننا لم نر شيئًا فى الفضاء الخارجى، وهذا كله من العلم الذى هدى له الإنسان فى عصرنا الحديث.

فكيف بواهب العلم وخالق الإنسان والمتصف بكل الكمالات؟ أيعجز عن جعل المحترق حقيقة مجسمة تتلقى الوعد والوعيد وتحس بالألم أو اللذة؟

(٧) النعيم فى القبر أو العذاب «أدلة نقلية»

إذا كان العقل يحكم بإمكان الحساب والنعيم أو العقاب للميت فى قبره فإن السمع من قرآن كريم أو سنة مطهرة ينص على ذلك، وما كان أمره كذلك كان واقعًا فعلاً ونرى أن منكره كافر، لأنه رافض لدليل العقل والنقل.

١) يقول سبحانه وتعالى فى شأن آل فرعون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾(١) العطف بالواو يقتضى المغايرة أى أن عرضهم على النار فى وقت غير إدخالهم فيها يوم القيامة، كما أن العرض فى الغدو والعشى لا يكون إلا فى الدنيا وآل فرعون يعرضون على النار فى هذه الأوقات، وهذا يعنى أن تعرضهم للنار إنما هو فى القبر وقبل يوم القيامة، وما يؤكد هذا أنه سبحانه وتعالى يوم القيامة يأمر الملائكة بإدخال آل فرعون فى أشد العذاب بعد معاينتهم للعذاب الأول فى القبر.

٢) يقول سبحانه وتعالى فى شأن قوم نوح الذين أعرضوا عن دعوته وأنكروا رسالته: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾(٢) والعطف بالفاء فى اللغة العربية يقتضى الترتيب والتعقيب بلا تراخى، وهذا يعنى أنهم بعد الإغراق مباشرة أدخلوا فى النار، وإذا كانت القيامة لم تقم بعد، فهم إذًا فى نار الدنيا، ولا نار فى الدنيا بعد الموت إلا عذاب القبر.

٣) ويقول الرسول ﷺ: «تنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه»(٣).

---

(١) سورة غافر الآية: ٤٦.

(٢) سورة نوح الآية: ٢٥.

(٣) رواه ابن ماجه فى سننه وأحمد بن حنبل فى مسنده، وأخرجه الدارقطنى فى سننه كتاب الطهارة باب نجاسة البول والأمر بالتنزه منه والحكم فى بول ما يؤكل لحمه ١/١٢٧.

٤) وروى أنه ﷺ مر بقبرين جديدين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان بكبيرة أما أحدهما: فإنه كان لا يستنزه من البول والآخر كان يمشى بالنميمة»(١).

٥) ولقد ترك ﷺ قتلى بدر ثلاثًا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا» فسمع عمر قول النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا؟ فقال ﷺ: «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا».

٦) وعن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر»(٢).

٧) وقال ﷺ: «تعوذوا من عذاب القبر»(٣).

٨) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع فى قبرة وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ١/٢٤٠ - ٢٤١.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الجنة باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه /٢٢٠٣.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الجنة باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه ٤/٢٢٠٠.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الجنة باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه ٤/٢١٩٩ - ٢٢٠٠.

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا على إيمان وثقة كاملة بما يحدث للميت فى قبره ولم يذكر عن أحد منهم إنكار لذلك.

كلمة أخيرة: يذكر الغزالى فى كتابه «الاقتصاد فى الاعتقاد» أن المعتزلة ينكرون عذاب القبر ويؤيده فى هذا القول الإيجى فى كتابه «المواقف» يقول: «إن المنكرين لعذاب القبر ضرار بن عمرو وبشر المريسى وأكثر المتأخرين من المعتزلة»[١].

إلا أننا نجد شيخ المعتزلة - القاضى عبدالجبار - يرفض هذا الادعاء قائلاً: «وجملة ذلك أنه لا خلاف فيه بين الأمة إلا شىء يحكى عن ضرار بن عمرو وكان من أصحاب المعتزلة ثم التحق بالمجبرة، ولهذا نرى ابن الراوندى يشنع علينا ويقول: «إن المعتزلة ينكرون عذاب القبر ولا يقرون به»[٢].

---

(١) متن المواقف ص ٣٨٢.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٧٣٠.

(٨) الساعة وعلاماتها

من الأمور التى تتعلق بالآخرة، وتمهد للحشر، والنشر، والحساب، والصراط والميزان إلخ.

الساعة، والمراد بها الوقت النهائى لحياة كل المخلوقات، وفى هذا الوقت يضطرب نظام الكون وتختل نواميسه.

وقد ورد ذكر الساعة فى القرآن الكريم، وفى السنة المطهرة، ولما كان العقل البشرى لا يستقل بمعرفة ما وراء المادة، ولما كان السماع أو الخبر الصادق، أو خبر الرسول المؤيد بالمعجزة من أهم وسائل المعرفة كان لزامًا على العقل أن يتأمل وأن يصدق؛ لكن هذا العقل مع عدم معرفته لنفسه، ومع عدم معرفته للكثير من المحسوسات، ومع قصوره الكامل وتخبطه فى حقيقة الروح، وما وراء المادة دومًا يزهو بنفسه.

ولهذا نرى الكثير فى عصرنا لا يصدقون إلا بكل مادى، وقبل عصرنا بكثير جاء محمد ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الجهالة والشرك إلى نور الإيمان بالرسالة الخالدة من عند ربه عز وجل، ومع الرسالة كانت الأدلة التى تؤكد صدقه، وآمن الكثيرون لكن فئة مادية مشركة وقفت تسأله عن الساعة استبعادًا لوقوعها وتكذيبًا بوجودها، فأعلمهم ﷺ أنها آتية لا محالة، وأن علمها عند ربه، وأنها سوف تأتى بغتة، وأنه ما جاء إلا مبشرًا ونذيرًا.

يقول ربنا عز وجل: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(١). ويقول سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٨٧.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾[١].

وجاء جبريل عليه السلام ليرسخ هذا المعنى بأمر ربه فى قلوب المؤمنين، فسأل الرسول: متى الساعة؟ فأجابه ﷺ: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»[٢]. أى أن كلينا لا يعلم وقتها لأنه من الأمور التى استأثر الله بمعرفته.

وسأل أعرابى مؤمن رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فقال له الرسول: «ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها؟ ـ قال الأعرابى: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولكن أحب الله ورسوله ـ فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث»[٣].

ونستنتج من كل ما سبق أن الساعة من الأمور التى يجب الإيمان بها، وأن وقتها لا يعلمه إلا الله، وما علينا إلا أن نستعد لها بتقوى الله وبالعمل الصالح، وبتنفيذ كل ما أمر به والابتعاد عن كل ما نهى عنه.

علامات الساعة:

نحب فى البدء أن نؤكد لأبنائنا أن بعض علامات الساعة التى سنذكرها من خلال القرآن الكريم، والسنة المشرفة تظهر جلية فى قرننا العشرين. فهل يعنى هذا أننا قاب قوسين أو أدنى منها؟ لا أعتقد أن فى مقدور العقل البشرى أن يعطى إجابة سلبًا أو إيجابًا، ولكنى أعتقد أن فى

---

(١) سورة النازعات الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب باب علامة حب الله عز وجل ٤٩/٨ وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب البر باب المرء مع من أحب ٢٠٣٢/٤ ـ ٢٠٣٣.

مقدوره أن ينأى بنفسه عن الرذيلة، وأن يقترب من خالقه، وأن يعطى الروح حقها بعد أن أفقدها كل شيء.

ولتأت الساعة غدًا ولتأت بعد غد ولتأت بعد ألف عام أو أكثر من ذلك، فالمؤمن الحق لا يخافها، وإنما يستعد لها بتقوى الله جاعلاً شعاره دائمًا هذا القول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

١) إن الأرض ستلبس أبهى حللها، ويعتقد الناس أنهم قادرون على كل شيء.

٢) أن تحدث أمور عظيمة لم تكن تخطر على بال أحد.

٣) أن تستخرج معادن كثيرة على أيدى غير المسلمين.

٤) أن يهتم الناس بزينة المساكن مع التفنن فى تعليتها.

٥) أن تتقارب أجزاء الأرض.

٦) أن تحدث نهضة علمية يواكبها جهل بالدين.

٧) أن تتبرج النساء ويتشبه كل جنس بالآخر.

٨) أن يشرب بعض المسلمين الخمر ويسمونها بغير اسمها.

٩) أن ينتشر التعامل بالربا بين الناس.

١٠) أن تكون التحية بين الناس بالتلاعن.

١١) أن يكثر الموت بالسكتة القلبية، ويكثر القتل.

١٢) أن يحسن الناس القول ويسيئون العمل.

١٣) أن تتحكم البنت فى أمها، وأن يترأس الحفاة العراة القوم وأن يتطاول رعاة الشاة فى البنيان.

١٤) أن يؤثر البعض تربية الكلاب على الأبناء، وأن لا يحترم الكبير ولا يرحم الصغير.

وإليك بعض النصوص التى تشير إلى ذلك:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾[١].

وعن سمرة بن جندب عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تروا أموراً عظاماً لم تكونوا ترونها ولا تحدثون بها أنفسكم»[٢].

ويقول رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تظهر معادن كثيرة لا يسكنها إلا أرذال الناس»[٣].

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يبنى الناس بيوتًا يوشونها وشى المراجيل»[٤].

وعن أبى موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان وتزوى الأرض زيًا»[٥].

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، وحتى يتطاول الناس فى البنيان»[٦].

وعن عبدالرحمن الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتراب الساعة كثرة القراء وقلة الفقهاء وكثرة الأمراء وقلة الأمناء»[٧].

---

(١) سورة يونس الآية: ٢٤.

(٢) رواه أحمد والطبرانى.

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣٣١/٧.

(٤) رواه البخارى.

(٥) رواه الطبرانى.

(٦) رواه البخارى.

(٧) رواه الطبرانى.

وعن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتراب الساعة تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال»[١].

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان رجال يركبون على الميائر حتى يأتوا أبواب المسجد نسائهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف إلعنوهن فإنهن ملعونات»[٢].

وعن أبي إمامة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذهب الأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر ويسمونها بغير اسمها».

ويقول رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزنا ويكثر شرب الخمر»[٣].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره»[٤].

وعن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال الأمة على شريعة حسنة ما لم تظهر فيهم ثلاث: ما لم يقبض فيهم العلم ويكثر فيهم ولد الخبث ويظهر فيهم السقارون. قالوا: وما السقارون يا رسول الله؟ قال: نشء يكونون في آخر الزمان تكون تحيتهم بينهم إذا تلاقوا التلاعن»[٥].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية.

(٢) رواه الإمام أحمد والحاكم ـ والبخت: هي الإبل.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب العلم باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٤/٢٠٥٦.

(٤) رواه أبو دواد وابن ماجه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٤٣٩.

وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٤٤٤.

وعن الشعبى عن رسول الله ﷺ قال: «من اقتراب الساعة موت الفجأة»(١).

وعن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «إنه سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة قوم يحسنون القول ويسيئون العمل»(٢).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله لجبريل عليه السلام حينما سأله متى الساعة: «ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربتها ذاك من أشراطها، وإذا كانت الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاء البهم فى البنيان فذاك من أشراطها»(٣).

وعن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان يربى الرجل جروًا خيرًا له من أن يربى ولدًا له ولا يوقر كبير ولا يرحم صغير ويكثر أولاد الزنا حتى إن الرجل ليغشى المرأة على قارعة الطريق يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أمثلهم فى ذلك المراهن» (٤).

نسأل الله تعالى أن يحفظ علينا ديننا.

ما ذكرناه هو من بعض العلامات الصغرى للساعة.

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف كتاب الجنائز باب موت الفجأة عن مجاهد بلفظ أن من أشراط الساعة موت البدار، وهو موقوف عليه.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الطبرانى والحاكم.

بعض العلامات الكبرى:

ولنتوقف قليلاً لنتعرف معًا بإيجاز على بعض العلامات الكبرى.

ونصدر الكلام عن هذه العلامات بحديث رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال «طلع علينا النبى ﷺ ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من أرض اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[١].

ونحب فى البدء أن نذكر بأمور:

أ) أن العلامات الصغرى والكبرى للساعة من الأمور الغيبية، وأمور الغيب مصدر معرفتنا بها القرآن الكريم والسنة المطهرة والمؤمن الحق هو الذى يصدق بالغيب وبخاصة إذا كان المصدر له هو الله سبحانه وتعالى ورسوله يقول سبحانه: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾[٢] ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾[٣] ويأمر سبحانه بالأخذ من الرسول فيقول: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[٤].

والآية الأخيرة تعنى رفض قول من يقول: نأخذ من القرآن وحده؛ لأنه وحده المصدر. ويؤكد هذا الرفض قول الله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة باب الآيات التى تكون قبل الساعة.

(٢) سورة البقرة الآيتان ٢ ـ ٣.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٥.

(٤) سورة [illegible]

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(١).

ب) إن هذه العلامات من الأمور الممكنة عقلاً إذ لا يترتب على القول بها أى مستحيل، وكل ممكن فهو واقع تحت مشيئة الله تعالى وقدرته، ويؤكد أمر الإمكان بل يشير إلى الوقوع الفعلى القرآن الكريم والسنة المطهرة.

جـ) ليس لمؤمن صادق الإيمان أن يسأل عن الحكمة أو لماذا هذه العلامات؟ ولماذا كان المسيح الدجال على هذه الصورة؟

ولماذا أعطى القدرة على الإحياء والإماتة وعلى التمويه والتضليل؟

والزمان يشير إلى اقتراب نهاية الدنيا.

ولماذا كان نزول عيسى ثم قتله للدجال؟ وماذا يعنى خروج يأجوج ومأجوج؟.....

أقول إن الكون بكل ما فيه ومن فيه هو كون الله تعالى وحده سبحانه هو الخالق المدبر الحكيم المعطى والمانع المحيى والمميت، المعز والمذل ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون ﴾(٢).

والسؤال لماذا لا يتوقف عند هذه النقاط بل إذا ترك الأمر للعقل فإنه يستمر. فاستطراداً يسأل الإنسان لماذا كانت خلقته على هذه الصورة ولم تكن على صورة مغايرة؟ ولماذا كان من الطين ولم يكن من النار؟ ولماذا كان الابتلاء أصلاً؟ ولماذا كان استخلافه على الأرض ولم يكن الاستخلاف على كوكب آخر؟ ولماذا ولماذا؟

إن التسليم فى قضايا الغيب هو الأساس والمؤمن الحق هو الذى يحاول التعرف فى حدود قدراته على الحكم المبثوثة فى الكون وما وراء

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥.

(٢) سورة الأنبياء. الآية ٢٣.

الكون، فإن هدى إلى بعضها فالحمد لله الذى أنعم عليه وتفضل بهدايته إلى ما هدى إليه. وأن حجبت عنه بعض الحكم فلأمر أراده الله والحجب لا يعنى الخلو وإنما يعنى العدل والرحمة.

د) إن العلامات الصغرى يتتابع ظهورها فى كل عصر ومصر ونلاحظ ظهور الكثير منها فى زماننا.

أما العلامات الكبرى فظهورها يكون فى آخر الزمان ويشير الظهور إلى اقتراب الساعة، وهذا لا يعنى أن من يعيش فى زمان الظهور يستطيع تحديد وقت القيامة أو الساعة لأن علمها الدقيق خاص بالمولى سبحانه وتعالى الذى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

وبإيجاز نذكر بعض العلامات الكبرى:

ومنها الدخان:

وهو دخان يظهر فى آخر الزمان يملأ الجو المحيط بالإنسان ويلحق المؤمن بسببه ما يشبه الزكام، أما الكافر فيبدو كالسكران من إصابته بهذا الدخان الذى يخرج من أنفه وأذنيه ودبره.

ويبقى الظهور أربعين يومًا وليلة يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢).

يعرض الفخر الرازى الأقوال فى تفسير هاتين الآيتين ويحصرها فى قولين قول يقول إن الكفار من أهل مكة حينما تمادوا فى إيذاء الرسول ﷺ دعا عليهم بقوله: «اللهم اجعل عليهم سنين كسنى يوسف» فارتفع المطر

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

(٢) سورة الدخان الآيتان ١٠ .

واجدبت الأرض وأصيب القوم بقحط وجوع شديد فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان.

أما القول الثانى فيقول إنه دخان يظهر فى العالم وهو علامة من علامات الساعة وهو قول منقول عن على بن أبى طالب وهو قول مشهور لابن عباس وظاهر الآيتين السابقتين يؤيده فقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يقتضى وجود دخان تأتى به السماء وهذا الدخان يغشى الناس ولا يكون الغشيان إلا باتصال الدخان الظاهر بهم وإصابته لهم.

وهذا القول يؤيده ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر. قال حذيفة يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية. وقال دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يومًا وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره» والقول بغير هذا صرف للفظ عن ظاهره والصرف لا يجوز إلا إذا وجدت ضرورة ولا ضرورة هنا أو كان هناك دليل يمنع الأخذ بظاهر اللفظ، ولا دليل مع الذين يقولون بغير ذلك[1].

وفى حديث مسلم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال الستة: طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة..... ».

ومنها: الدجال

ورد ذكره ووصفه وفترة بقائه ونهايته فى كتب السنة المطهرة وبخاصة فى صحيحى البخارى ومسلم ولهذا أوثر التعرف على بعض ما يتصل به من خلال ذكر بعض النصوص الحديثية دون تعليق منى لوضوح اللفظ والمعنى.

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ٢٧ ص ٢٤٣.

فالرسول ﷺ يتعوذ من أمور ومنها المسيح الدجال ولا يتعوذ الرسول إلا عن حقيقة وبمعرفة من الله تعالى.

عن أبى هريرة ﷺ قال كان رسول ﷺ يدعو: «اللهم أنى أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»[1].

وأخرج البخارى فى صحيحه - كتاب الفتن باب ذكر الدجال - عن عبدالله بن عمر ﷺ قال قام رسول الله ﷺ فى الناس فاثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال: «إنى لأنذركموه، وما من نبى إلا وقد أنذر قومه ولكنى سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبى لقومه أنه أعور وإن الله ليس بأعور» وفى حديث آخر فى نفس المكان يذكر الرسول ﷺ بعض أوصاف الدجال فيقول أنه «رجل جسيم أحمر جعد الرأس أعور العين كأن عينه عين طافية».

وعن أنس قال قال رسول ﷺ «... و بين عينيه مكتوب كافر».

ويقول مسلم فى صحيحه - كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال وصفته - عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «الدجال ممسوح العين مكتوب بين عينه كافر ثم تهجاها ك ف ر يقرأه كل مسلم» وفى حديث آخر عن حذيفة قال، قال رسول الله ﷺ فى الدجال: «إن معه ماء ونارًا فناره ماء بارد وماءه نار فلا تهلكوا» قال ابن مسعود وأنا سمعته من رسول الله ﷺ وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن الدجال حديثًا ما حدثه نبى قومه أنه أعور وأنه يجئ معه مثل الجنة والنار فالتى يقول أنها الجنة هى النار وأنى أنظرتكم به كما أنظر به نوح قومه» وفى حديث طويل نذكر منه قول الرسول ﷺ: «فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف أنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينًا

---

(١) أخرجه البـ[illegible] ى صحيحه ك الكسوف باب ما جاء فى عذاب القبر.

وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا» قلنا يا رسول الله وما لبثه فى الأرض قال: «أربعون يومًا يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم» قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم قال: «لا، اقدروا له قدره» قلنا يا رسول الله وما إسراعه فى الأرض قال: «كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت درا وأسبغه ضروعًا وأمده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فتتبعة كنوزها كيعاسيب النخل ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية العرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ لا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفيه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة».

ونخلص مما سبق أن المسيح الدجال بنص الأحاديث الصحيحة علامة من العلامات الكبرى للساعة وأن ظهوره سيكون فى آخر الزمان وأنه أعور العين اليمنى أو ممسوح العين وأنه مكتوب بين عينيه كافر يستطيع قراءتها كل إنسان متعلم أو غير متعلم، وأنه سمين الجسم جعد الرأس وأن معه نارًا فى صورة ماء، ومعه ماء فى صورة نار، وأن الرسول ﷺ يتعوذ منه فى دعائه ويطالب من يعش حتى يراه ألا يتبعه وأن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف. والرسول ﷺ يحدد مكان بدء ظهوره فإنه بين الشام والعراق وأنه سيمسح الأرض فى أربعين يومًا منها يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة ثم بقية الأيام كأيامنا، وأنه سينشر الفساد فى الأرض وأن الله سبحانه وتعالى

سيقدره على فعل بعض الخوارق لا يفتن بها إلا الكافر والفاسق والمنافق أما المؤمن فيثبت على إيمانه لأن المؤمن يستطيع التفريق بين المعجزة التى هى أمر خارق للعادة يظهره الله سبحانه وتعالى على يد مدعى النبوة تصديقًا له فى دعواه مع الأمر بالتحدى وعدم القدرة على المعارضة وأنها لا تكون إلا فى دار التكليف. وبين تلك الخوارق التى يظهرها الله للابتلاء ولأمور لا نعلمها على يد كافر يدعى الألوهية عاجز تمامًا عن إصلاح عوره وإزالة ما هو مكتوب بين عينيه جل همه الإفساد فى الأرض فى آخر الزمان حذر الرسل منه وبخاصة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ والذى بين فى حديثه الشريف أن نهاية الدجال ستكون على يدى عيسى بن مريم الذى سيظهر أيضًا فى آخر الزمان ويكون من عمله بعد نزوله قتل الدجال عند باب لد.

ومنها: الدابة

يقول سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾(١).

وفي تفسير هذه الآية السابقة يقول ابن كثير: إن هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق فتكلم الناس على ذلك. ويروى عن على رضي الله عنه تكلمهم كلامًا أى تخاطبهم مخاطبة(٢).

ويقول الفخر الرازى «إن الناس تكلموا فيها - أى فى الدابة من وجوه **أحدها:** فى مقدار جسمها وفى الحديث أن طولها ستون ذراعًا.... **وثانيها:** فى كيفية خلقتها فروى أن لها أربع قوائم وزغبًا وريشًا وجناحين..

(١) سورة النمل الآية ٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص ٣٧٤.

وثالثها: فى كيفية خروجها عن على ﷺ أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها... **ورابعها:** فى موضع خروجها سئل النبى ﷺ من أين تخرج الدابة؟ فقال: «من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى المسجد الحرام»، وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية، **وخامسها:** فى عدد خروجها: فروى أنها تخرج ثلاث مرات تخرج بأقصى اليمن ثم تكمن، ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرًا طويلاً. فبينا الناس فى أعظم المساجد حرمة على الله فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون.

وأعلم أنه لا دلالة فى الكتاب على شيء من هذه الأمور وإن صح الخبر فيه عن الرسول ﷺ قيل: وإلا لم يتلفت إليه.

ويضيف الفخر الرازى إن المراد بالقول متعلقة أى ما وعدوا به من قيام الساعة، ووقوع حصوله، وقرئ تكلمهم من الكلم وهو الجرح فتضرب المؤمن بين عينيه فيظهر نكتة بيضاء فى وجهه مضيئة لهذا الوجه، وتضرب الكافر فى أنفه فتفشوا نكتة سوداء فى وجه مسودة لهذا الوجه.

ويجوز الفخر الرازى تكلمهم أى كلامًا فتقول للمؤمن يا مؤمن وتقول للكافر يا كافر أو تسم كل واحد بالسمة التى هو عليها[1].

وأمر الدابة كعلامة من علامات الساعة ورد فى أكثر من نص حديثى يروى مسلم فى صحيحه عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبًا».

ولما كانت هذه العلامة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعلامة أخرى وهى طلوع الشمس من مغربها فأننا ننتقل إلى هذه العلامة فنقول إن العادة قضت بأن

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى م ١٢ جـ٢٤ ص ٢١٧.

الشمس تشرق من المشرق وتغرب من المغرب لكن هذه العادة أو هذا النظام سيضطرب حيث تطلع الشمس من المغرب ويؤذن هذا الاضطراب الفلكى بقرب الساعة وبانتهاء التكليف فالمؤمن من آمن قبل ذلك ويبقى الكافر على كفره يروى مسلم من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون فيومئذ ﴿ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾(١)».

ومن العلامات نزول عيسى بن مريم ﷺ جاءت بذلك الأحاديث النبوية الشريفة التى بينت أن نزوله علامة من علامات الساعة وحددت اسمه بعيسى بن مريم وليس غيره كما يقول القاديانيون أو غيرهم، كما وصفه وصفًا دقيقًا وذكرت أنه سينزل على المنارة البيضاء شرق دمشق، وأنه لا يدعو لنفسه بأى دعوة جديدة ولا يقول بدين جديد أو بنبوة جديدة وأنه يصلى خلف إمام المسلمين فى وقتها، وأنه سيكسر الصليب وتأكيدًا للقول بأنه لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله إليه وسيقتل الخنزير ويريق الخمر تأكيدًا لحرمتهما، ويقتل الدجال الذى ظهر كعلامة قبله وعاث فى الأرض فسادًا، ويفيض المال وقت ظهوره بحيث لا يجد من يأخذه لانشغال الناس فى البحث عن مخرج صحيح للإيمان. وهم يرون الاضطراب المؤذن بنهاية الدنيا وسيقضى على جماعة يأجوج ومأجوج الذين هدموا السد الذى بناه من قبل ذو القرنين ومع إتمامهم للهدم يخرجون ليفسدوا فى الأرض ولا يتوقف إفسادهم إلا بقضاء عيسى عليهم بإذن الله سبحانه وتعالى. ويبقى عيسى ﷺ بعد نزوله لمدة أربعين قد تكون يومًا أو أسبوعًا أو شهرًا أو سنةً فالله وحده يعلم الوقت المحدد لبقائه ثم يموت ﷺ ويصلى عليه المسلمون.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٨.

ولنذكر ببعض الأحاديث الشريفة التى تتحدث عن نزول عيسى عليه السلام وأين ومتى وما يحدثه. عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم عيسى بن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»(٢).

وعن جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «.... فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم تعال فصل فيقول لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»(٣).

ويقول ﷺ فى عيسى: «ليس بينى وبينه نبى وأنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض بين مصرتين كان رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل... ويهلك المسيح الدجال فيمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون»(٤).

وعن النواس بن سمعان أن رسول الله ﷺ قال فى قصة الدجال..... «فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين - أى حلتين - واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفع تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه - أى يطلب الدجال - حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتى عيسى بن مريم قوم عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى

---

(١) أخرجه البخارى كتاب المظالم باب كسر الصليب وقتل الخنزير.

(٢) أخرجه البخارى كتاب أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه بيان نزول عيسى بن مريم.

(٤) سنن أبى داود كتاب الملاحم باب خروج الدجال.

الله إلى عيسى أنى قد أخرجت عباداً لى لا يدان لأحد يقتالهم فحرز عبادى إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء.... فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض أنبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها... فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»[1].

لعلنا لاحظنا أن هذا الجزء من الحديث الشريف حدد مكان نزول عيسى عليه السلام وملبسه والصفة التى كان عليها أثناء النزول وقتله الدجال وتحدث أيضًا عن علامة أخرى وهى خروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم الشديد فى الأرض بعددهم المخيف، ودعوة عيسى وأصحابه الله عز وجل أن يخلصهم منهم واستجابته عز وجل بإصابتهم بما أماتهم وتمتلئ الأرض بأجسادهم المنتنة ويدعو عيسى وأصحابه الله سبحانه وتعالى فيستجيب سبحانه ويطهر الأرض من أجسادهم وروائحها الكريهة وتنبت الأرض الثمر الطيب وبينما القوم يأكلون إذ بعث الله ريحًا طيبة قبضت روح كل مؤمن ومسلم وأبقت على الشرار من الناس الذين ظلوا يتهارجون تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال.

وقصة يأجوج ومأجوج مذكورة فى القرآن الكريم فى سورة الكهف بدءًا من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ...... إلى قوله فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[1].

وفى آخر الزمان يتحقق الوعد حيث يسوى السد بالأرض آن ذاك يتمكن يأجوج ومأجوج من الخروج ليحدثوا الإفساد فى كل مكان تطوله أقدامهم يقول سبحانه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[2].

وتكفلت السنة الشريفة كما رأينا فى الحديث السابق بشرح وتوضيح بعض الأمور التى تتصل بظهور يأجوج ومأجوج فى آخر الزمان كعلامة كبرى من علامات الساعة.

ونكتفى بهذه العلامات ونؤكد أن المرجعية فيها للقرآن الكريم والسنة المطهرة.

---

(١) سورة الكهف من الآية ٩٢ إلى الآية ٩٨.

(٢) سورة الأنبياء الآيتين ٩٦ ـ ٩٧.

(٩) البعث «إمكانه عقلاً»

ينقسم الحكم العقلى إلى ثلاثة أقسام:

الواجب: وهو الثابت الذى لا يقبل الانتفاء أصلاً.

والمستحيل: وهو المنفى الذى لا يقبل الثبوت أصلاً.

والجائز أو الممكن:وهو الذى يقبل الثبوت تارة والانتفاء تارة أخرى.

فمن أى أقسام الحكم العقلى ـ البعث ـ؟

البعث من القسم الأخير وهو الممكن أو الجائز.

لنزيد الأمر توضيحًا.

علمنا أن العالم هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى، وكل ما سوى الله فله بداية ونهاية، وخاضع لقانون التغير ولا يخرج للوجود إلا بناء على علة سابقة، وكل ما كان كذلك كان ممكن الوجود وممكن العدم.

وهنا نأتى إلى نقطة هامة وهى: أن الإنسان كان عدمًا قبل الوجود.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[1]، أى أنه بالتقاء البويضة بالحيوان المنوى تكونت النطفة المختلطة التى بدأت فى التحول إلى علقة فمضغة فعظام مكسو باللحم، ثم كان الخروج إلى الأرض، ومع هذا الخروج يلازم التغير الإنسان إلى أن تأتى الساعة المحتومة وينتهى الأجل.

ونأتى إلى سؤال آخر: هل أوجد الإنسان نفسه بنفسه؟ إذا قلنا: نعم، وقعنا فى تناقض عقلى؛ وذلك لأنه إن أوجد نفسه وهو موجود فهو تحصيل

---

(١) سورة الإنسان الآية: ١ ـ ٢.

حاصل، وفى نفس الوقت يكون علة لنفسه ومعلولاً لها وكون الشىء علة ومعلولاً باطل وإن أوجد نفسه وهو معدوم فهو باطل أيضًا؛ لأن فاقد الشىء لا يعطيه. فلم يبق أمامنا إلا أن وجوده معتمد على علة سابقة، وهذه العلة لا يمكن أن تكون خاضعة لما يخضع له الإنسان، بل لابد أن تكون خارجة عن الإنسان وعن سائر الممكنات.

ونعود إلى السؤال الأول بصيغة أخرى: لماذا كانت الإعادة أو البعث من الأمور الممكنة عقلاً؟

نقول: إن الإنسان كان عدمًا، ثم صار موجودًا، ثم تحول الوجود إلى عدم بعد ذلك فماذا يعنى هذا؟

إن الأمر يعنى أنه - أى الإنسان - المعدوم قابل للوجود والعدم وكل ما كان قابلاً للوجود والعدم كان ممكنًا لذاته أى أنه يخرج من العدم إلى الوجود ومن الوجود إلى العدم لكون ذاته قابلة لذالك ولا يكون هذا إلا بمخصص وقدرة خارجة عن ذاته.

نحن إذًا أمام أمر وهو القابل أى الممكن لذاته، وهذا القابل لو امتنع وجوده لذاته لكان مستحيل الوجود ضرورة، لكنه وجد، ولو كان ممتنع العدم لذاته لاستحال عدمه، لكنه عدم، فلم يبق معنا إلا أن هذا القابل - أى الإنسان - ممكن الوجود والعدم.

وقد سبق أن عرفنا بالأدلة العقلية والنقلية أن الله سبحانه وتعالى موجود وأنه متصف بكل كمال يليق بذاته المقدسة، وأن من صفات الكمال: الإرادة والقدرة والعلم، وعلمنا أن الإرادة تخصص الممكن بما يجوز له والقدرة شاملة لكل الممكنات تخرج الشىء إلى الوجود أو تخرجه من الوجودوالعلم محيط إحاطة كاملة بكل شىء.

وعلى هذا نقول: إن القابل وهو الإنسان ممكن الوجود أو العدم ولا يخرج من العدم إلى الوجود إلا بمخصص وقدرة وعلم، وكذا لا يخرج من

الوجود إلى العدم إلا بمخصص وقدرة وعلم والذى يخصص الشيء بالوجود أو العدم وتتعلق قدرته وعلمه به هو الله سبحانه وتعالى.

إذاً فالفاعل وهو الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء والقابل يقبل كل شيء، وإذا كان الأمر كذلك فإن الله سبحانه وتعالى الذى أوجد الإنسان من العدم لا يعجز أن يعيده من العدم - أى يبعثه بعد الموت - وإذا كان قد أوجده من العدم على غير مثال سبق، فمن باب أولى هو قادر على إعادته أو بعثه بعد موته، سواء أكانت الإعادة تعنى إعادة الجواهر - أى الأصول - بعينها بعد إعدامها أو إعادتها بجمعها بعد تفريق، وسواء أكانت الإعادة مشتملة على الإعراض أم بغيرها، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(١) فالذى أنشأها من العدم على غير مثال سبق قادر على إعادتها، ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(٢)، أى أن الإعادة أهون من الخلق ابتداء وهذا بحسب مقاييس البشر؛ لأنه ليس هناك شيء صعب أو سهل بالنسبة لقدرة الله تعالى الشاملة الكاملة.

---

(١) سورة يس الآيتان: ٧٨ - ٧٩.

(٢) سورة الروم الآية: ٢٧.

(١٠) البعث «نحققه فعلاً بأدلة الشرع»

١) يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[١].

يقول المفسرون: إن هذه الآيات نزلت فى أبى بن خلف.

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة والسدى: جاء أبى بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم وهو يفتته ويذروه فى الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار» وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيى الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم...» وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت فى أبى بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما فهى عامة فى كل من أنكر البعث، والألف واللام فى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث[٢].

---

(١) سورة يس الآيات: ٧٧ - ٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣ ص ٥٨١.

وقفة مع الآيات السابقة

١) (أ) يطالب القرآن الكريم الإنسان أن يعلم ويتذكر حقيقة نفسه حيث يقول فى موضع آخر: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾[١]، ويقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[٢]، فإذا علم الإنسان وتذكر أن حقيقته نطفة هو عاجز عن خلقها آمن بوجود خالقه وتخلى عن كبريائه وتطاوله وأسلم قياده للشرع الذى يذكره بأنه مبعوث يوم القيامة.

(ب) يبين القرآن الكريم فى هذه الآيات للإنسان بأن الذى خلقه أولاً - وقد كان عدمًا مطلقًا - قادر على إعادته ثانيًا لاتصافه تعالى بالقدرة وبالعلم الشمولى.

(جـ) يذكر القرآن الكريم الإنسان بأن الذى جعل من الشجر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، نارًا محرقة - أى أخرج الشىء من ضده - قادر بلا أدنى شك على إخراج الحياة من العدم وعلى إعادة الأموات إلى حياة أخرى للحساب.

(د) ثم هذه السموات بكل ما فيها من عظمة واتساع ونظام بكل ما فيها من كواكب ونجوم، حيث يحدد العلم فى مجرتنا وحدها عدد النجوم بثلاثين مليار نجم، ويحدد فى نفس الوقت السدم الآخر بخمسمائة ألف سديم لكل سديم أنجمه الخاصة به ومع الأبعاد الهائلة التى تفصل بين كل كوكب وآخر وبين مجرة وأخرى إلا أن كل هذه السدم أو المجرات مع نجومها تدور كخلية نحل لا يصطدم أحدها بالآخر،

---

(١) سورة الطارق الآيات: ٥ - ٨.

(٢) سورة المرسلات الآيات: ٢٠ - ٢٢.

بل تخضع فى حركتها لخالقها القائل: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾(١) ثم هذه الأرض يقول فيها سبحانه وتعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾(٢)، فلها غلافها الغازى الذى يمد كل كائن عليها بما يحتاجه من الغازات، ويمنع هذا الغلاف ملايين الشهب من الارتطام بالأرض، ولها غلافها الجوى الذى يجعل حرارتها متناسبة لكل حى عليها، ولها جاذبيتها المحددة التى لا تزيد ولا تنقص حتى يتمكن كل متحرك من الحركة عليها وترتبط بدقة بمسافات محددة من القمر والشمس والكواكب الأخرى بحيث لو زادت المسافات قليلاً أو قلت قليلاً لأدى هذا إلى استحالة الحياة عليها، ثم فيها البحار والمحيطات والأنهار مع ما فى هذه المخلوقات من عجائب الحيوانات والمعادن ثم فيها التنوع فى النباتات وغير ذلك من النعم التى تحدثنا معك عنها أثناء حديثنا عن وجود الله سبحانه وتعالى. أيعجز خالق هذه الأمور العظام عن خلق الأدنى أو إعادة الحياة إلى الميت للبعث والحساب؟

إن من يملك ولو ذرة واحدة من التعقل سيقول: كلا؛ لأن القادر على خلق السموات والأرض قادر على الإعادة أو بعث الأموات ليمثلوا أمام ذاته العلية حتى يتحقق عدله فيهم وهو سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. وإليه عز وجل مرجعنا جميعًا.

٢) يقول عز وجل: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(٣).

---

(١) سورة الواقعة الآيتين: ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) سورة الذاريات الآية: ٢٠.

(٣) سورة التغابن الآية: ٧.

أى أن الكفار زعموا ظلمًا وعدوانًا واستبعادًا أنهم لن يعودوا بعد الموت، لكنه سبحانه وتعالى يبلغ رسوله عليه الصلاة والسلام أن هذا الزعم باطل، وأنهم سيبعثون وسيخبرون بكل صغيرة وكبيرة وسيحاسبون على عملهم، وهذا أمر فى غاية البساطة بالنسبة لله سبحانه وتعالى.

٣) ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١].

أى أن من آثار رحمته تعالى إنبات الأرض البور ومن كان أمره كذلك كان بقدرته وعظمته محييًا للموتى للحساب.

٤) يبين القرآن الكريم استبعاد المنكرين للإعادة والبعث ويرد عليهم فى قوة وعظمة. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[٢] أى هل بعد تحولنا إلى عظام مفتت وتراب نبعث مرة ثانية؟ إن عقولنا تستبعد ذلك بل تحكم باستحالته. فيجيبهم الله سبحانه وتعالى حيث يقول: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾[٣] أى لا تكونوا عظامًا ورفاتًا فقط، بل كونوا - إذا قدرتم - جمادًا من حجارة أو حديد أو أى شىء ترونه كبيرًا فى نفوسكم، وترون استحالة تحوله إلى شىء حى.

وهم بعد ذلك يعترضون ويقولون: لو فعلنا ذلك فمن يعيدنا إلى ما كنا عليه؟ يقول سبحانه وتعالى حكاية عن حالهم: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[٤]، أى أن الذى خلقكم أول مرة من العدم قادر

---

(١) سورة الروم الآية: ٥٠.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٤٩.

(٣) سورة الإسراء الآيتين: ٥٠ - ٥١.

(٤) سورة الإسراء الآية ٥١.

على إعادتكم مهمـا كـانت تحولاتكم إلى تراب أو إلى حجـارة أو إلى حديـد أو غير ذلك.

والكفر على جموده لا يعى فرغم هذه المحاجة العقلية إلا أنهم فى النهاية يحركون رءوسهم استبعادًا واستنكارًا ويسألون عن موعد البعث استهزاء. يقول سبحانه: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١).

٥) قال عقبة بن عمرو لحذيفة ﷺ: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول ﷺ؟ فقال: سمعته عليه الصلاة والسلام يقول: «إن رجلاً حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا حطبًا كثيرًا ثم أوقدوا فيه نارًا حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت فخذوها فدقوها فذروها فى اليم، ففعلوا فجمعه الله تعالى، ثم قال له سبحانه: لم فعلت ذلك؟ فقال الرجل: من خشيتك، فغفر الله عز وجل له»(٢).

البعث إذًا ممكن عقلاً ويتحقق فعلاً لورود السمع به من قران كريم وسنة مشرفة وهو جزء لا يتجزأ من حقيقة الإيمان.

وقد رأينا أن الأدلة العقلية لا تمنع من إمكانه بالجسد والروح معًا، وأن الأدلة النقلية تؤكد وقوع البعث للجسم والروح معًا حتى يثاب الإنسان أو يعاقب إلا أن للعقل البشرى شطحاته. ولهذا وجدت فئة تؤمن بالبعث إلا أنها لا تقول إلا ببعث الروح فما هى هذه الفئة؟ وماذا تقول؟ وبم نرد عليها؟

---

(١) سورة الإسراء الآيتين: ٥١ ـ ٥٢.

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند ٥/٣٩٥، وفى الصحيحين بألفاظ أخرى.

(١١) المنكرون للبعث الجسمانى وشبههم

ذهب بعض الفلاسفة الإسلاميين إلى القول: «بأن البعث لا يكون إلا للروح فهى التى تنعم نعيمًا دائمًا، أو تشقى شقاء دائمًا، أو تشقى شقاء مؤقتًا يزول بعد تزكيتها وكمالها.

ويقولون: إن اللذات الحقيقية هى اللذات الروحانية والعقلية، وهى أشرف اللذات، أما اللذات الحسية فهى لذات حقيرة، والجسد يشد الإنسان دائمًا إلى أصله من التراب ويدفعه للتسفل، بينما تسمو به الروح إلى الملأ الأعلى، ويوم يموت الإنسان تتخاص الروح من البدن؛ وبذلك يزول الحجاب وستعد بزواله حيث ينكشف لها كل شىء.

ويقولون: بأن ما ورد فى الشرع من الآلام أو اللذات الحسية «قصد به ضرب الأمثال لقصور الأفهام عن درك هذه اللذات فمثل لهم ما يفهمون ثم ذكر لهم أن تلك اللذات فوق ما وصف لهم»[١].

الرد عليهم:

ويرد عليهم بأننا لا ننكر أن اللذات الروحانية هى أشرف من اللذات الجسمانية، لكن ما الذى يمنع من تحققهما معًا، ويكون ذلك ببعث الروح والجسد، وهو ما نص عليه الشرع فى أكثر من موضع - كما ذكرنا سابقًا - وبألفاظ صريحة لا تحتمل التأويل، ولنذكر آيات أخرى تؤكد هذا. يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فى أصح الأقوال: إن هذا الرجل هو عزير من بنى إسرائيل، وقد مر على بيت المقدس فهاله ما ألحقه بختنصر بالمدينة من تخريب ودمار، لذا استبعد عمرانها مرة ثانية - ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ - بجسده وروحه بعد أن عمرت المدينة وعاد أهلها آمنين إليها، وقال له

---

(١) تهافت ا[illegible]غزالى ص ٢٨٧.

سبحانه بواسطة الملك ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾، وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده لم يتغير منه شيء - ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ - كيف يحييه الله عز وجل أمام ناظريك - ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ - أى دليلاً على المعاد الجسمانى والروحانى - ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ - أى نرفعها ونركب بعضها على بعض ثم نحيط اللحم بها ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

ولقد سأل الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيى الموتى لينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، فأمره سبحانه أن يأخذ أربعة من الطير من أنواع مختلفة ثم يقطعهن إربًا ويخلط الأجزاء بعضها ببعض ثم يضع على كل جبل جزءًا ثم يناديهن يأتينه على عجل، ولقد فعل الخليل ما أمر ربه به ثم نادى فتجمع عظام ودماء ولحم وريش كل طير على حدة ثم أتت الطيور مسرعة إليه. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢). فالآيتان واضحتان فى تحقق البعث الجسمانى والروحانى والقول بغير ذلك خروج عن النص الصريح.

شبهاتهم والرد عليها:

أولاً: يقولون: إن الإنسان عبارة عن البدن والحياة عرض قائم به، والموت هو انعدام الحياة والبدن وما عدم لا يقبل أن يعود واستئناف الخلق «إيجاد لمثل ما كان لا لعين ما كان، بل العود المفهوم هو الذى يفرض فيه بقاء شيء وتجدد شيء، كما يقال: فلان عاد إلى الإنعام أى أن المنعم باق،

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٩، ويراجع فى تفسيرها تفسير القرآن لابن كثير جـ١ ص ٣١٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦٠، ويراجع فى تفسيرها تفسير القرآن لابن كثير جـ١ ص ٣١٥.

وترك الإنعام ثم عاد إليه... ويقال: فلان عاد إلى البلد أى بقى موجودًا خارج البلد، وقد كان له كون فى البلد فعاد إلى مثل ذلك فإن لم يكن شيء باقيًا وشيئان متعددان متماثلان يتخللهما زمان لم يتم اسم العود»[1].

ويرد عليهم: بأن المعدوم قابل للوجود والعدم، وما كان قابلاً للوجود والعدم فهو ممكن، والممكن ليس وجوده من ذاته ولاعدمه من ذاته، وليس للأوقات أى أثر فى الإيجاد أو الإعدام، وعلى هذا فهو مستوى الطرفين فإذا تعلقت به قدرة البارى إيجادًا وجد وإذا تعلقت به إعدامًا عدم، فأنا مثلا لم أكن موجودًا - أى كنت ممكنًا أقبل أى شيء - وحينما تعلقت قدرة الله سبحانه وتعالى بإيجادى وجدت وحينما تتعلق بإعدامى أعدم ولا دخل لى فى الوجود أو العدم فإذا أراد سبحانه إعادتى للبعث وتعلقت قدرته بذلك تحققت الإعادة وليكن ذلك المعاد جمعًا بعد تفريق أو إعادة كاملة لذات المعدوم، فهو سبحانه إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون ولا يسمى هذا خلقًا آخر وإنما هو إيجاد لعين ما كان.

ثانيًا: يقولون: إن الروح باقية فلو ردت إلى البدن بعينه صحت الإعادة لكن هذا من المستحيلات، والسبب فى ذلك أن الأبدان تتحول إلى التراب، والتراب يزرع فيه النبات والنبات تأكله الحيوانات فيصير لحمًا لها ونحن نأكل الحيوانات فتصير لحومها أجسامًا لنا، فلو رجعنا إلى البدء لوجدنا أن الغذاء الذى وصل إلينا من لحوم الحيوانات كان أجسامًا للموتى، ويعنى هذا تداخل أجسامنا مع أجسام الموتى. بل ربما أكل إنسان إنسانًا كما يحدث فى المجاعات فيختلط كل جزء فى المأكول بمثيله من الآكل، وهذا يؤدى إلى استحالة البعث الجسمانى، أو فى صورة المأكول استحالة بعث أحدهما على الأقل.

---

(١) تهافت الفلاسفة للغزالى ص ٢٩٦.

ويرد عليهم: إن علم الله سبحانه وتعالى كاشف لكل شيء لا تخفى عنه خافية، وقدرته شاملة لكل الممكنات، وما يحدث من تطورات للبدن وتداخلات مع غيره من الأبدان، لا يمنع قدرته سبحانه وتعالى من رد كل بدن إلى ما كان عليه، وربما أودع الله سبحانه كل بدن إنسانى خاصية تجعله منفرداً عن غيره بحيث يكون صالحاً للإنسلاخ عن غيره والتفرد، ولعل عمليات زرع القلب فى عصرنا تؤكد ذلك حيث يرفض قلب المريض القلب الدخيل عليه رغم حاجة الجسم إليه، ويرى شارح المواقف: «أن المعاد هو الأجزاء الأصلية، وهى الباقية من أول العمر إلى آخره لا جميع الأجزاء على الإطلاق، وهذه أى الأجزاء الأصلية التى كانت للإنسان المأكول فى الآكل فضل - أى شيء زائد - فإنا نعلم أن الإنسان باق مدة عمره وأجزاء الغذاء تتوارد عليه وتزول عنه، وإذا كانت فضلاً فيه لم يجب إعادتها فى الآكل بل المأكول»[(١)]. ويقول شارح الطوالع: «إن المعاد من كل منهما أجزاؤه الأصلية التى هى الإنسان لا المتبدلة الذى يغفل عنه الشخص.. فإن الأجزاء الأصلية هى الباقية من أول عمره إلى آخره.. والأجزاء الأصلية فى المأكول منه فضل فى الآكل فرده إلى المأكول منه أولى فلا يعاد فى الآكل المتغذى»[(٢)].

ثالثاً: يقولون: إن الروح لو عادت إلى بدن آخر من أى مادة كانت لترتب على هذا مستحيل؛ وذلك لأن المواد القابلة للكون والفساد متناهية، والأنفس غير متناهية، فلا تفى المواد بالأنفس، وإذا كان الأمر كذلك فإن بعث الأجساد مستحيل والذى يصح هو بعث الروح.

ويرد عليهم *الغزالى*: بأن هذا الكلام لا أصل له «فإنه بناء على قدم العالم وتعاقب الأدوار على الدوام، ومن لا يعتقد قدم العالم، فالنفوس

---

(١) شرح المواقف جـ٣ ص ٢٢٦.

(٢) شرح مطالع الأنظار على الطوالع ص ٢١٧.

المفارقة للأبدان عنده متناهية وليست أكثر من المواد الموجودة، وإن سلم أكثر فإنه تعالى قادر على الخلق واستئناف الاختراع»[١].

رابعاً: يقولون: إن الروح لو ردت إلى بدن آخر غير الأول لكان هذا تناسخاً لاشتغالها ببدن آخر غير بدنها، والتناسخ فى رأينا ورأيكم باطل فيبطل ما أدى إليه وهو بعث الأجساد ويثبت بعث الأرواح فقط.

ويرد عليهم: بأن التناسخ الباطل هو انتقال الروح بعد موت صاحبها إلى جسد إنسانى ثان ثم إلى جسد إنسانى آخر وهكذا، ويكون هذا فى الدنيا لتلقى ثوابها أو عقابها فيما تلبسه من أجساد، والقائل بهذا يقول بتعاقب الأدوار إلى غير نهاية مما يعنى عدم الإيمان بالبعث الأخروى.

ونحن لا نقول بهذا وإنما نقول: إذا انتهت الدنيا - أو دار التكليف - تنتقل الروح إلى بدنها الأول، أو بدن مثل بدنها الأول لينال الإنسان الثواب أو العقاب فى الآخرة، ولا يسمى هذا تناسخاً أبداً لانتهاء دار التكليف، وهذا ما قال به الشرع.

يقول الغزالى: «لا مشاحة فى الأسماء فما ورد به الشرع يجب تصديقه ليكن تناسخاً ونحن إنما ننكر التناسخ فى هذا العالم وأما البعث فلا ننكره سمى تناسخاً أو لم يسم تناسخاً».

خامساً: يقولون: إن وجود بدن إنسانى ترد إليه الروح حين البعث يتطلب زمناً خاصاً يتحقق فيه لقاء حيوان منوى ببويضة فإذا ما تحقق هذا تبعه تكون نطفة تمر بأطوارها المعروفة إلى أن يكتمل البدن، أما أن ينقلب التراب فى المعاد بكن فيكون إنساناً دون المرور بالأسباب والأطوار فهذا محال، وإذا استحال هذا استحال البعث للأجساد.

---

(٢) تهافت الفلاسفة ص ٣٠٠.

ويرد عليهم: بأن ارتباط خلق الإنسان بالأسباب والأطوار ارتباط عرف لنا، أما ما خفى عنا فهو كثير لا نعلمه، وقدرة الله سبحانه شاملة، ومقدوراته لا تحصى، ولقد أرانا سبحانه بعض هذه المقدورات، فخلق آدم ﷺ دون المرور بالأطوار، وخلق حواء بتحقق جزء من السبب دون المرور بالأطوار، وخلق عيسى بجزء من السبب وهو الأمومة مع المرور بالأطوار، ثم هناك معجزات الأنبياء عليهم السلام فهى أمور خارقة للعادة لا تخضع لقانون السببية ولا للأطوار، وكل هذا يؤكد قدرة الله سبحانه وتعالى على كل شيء.

يقول الغزالى: «فليس يتفكر المنكر للبعث أنه من أين عرف انحصار أسباب الوجود فيما شاهده؟ ولم يبعد أن يكون فى إحياء الأبدان منهاج غير ما شاهده»[1].

---

(١) تهافت الفلاسفة ص ٢٠٢.

(١٢) الحشر والنشر

ويتحقق البعث أو إعادة الموتى للحساب بالنشر أى بإحياء الخلق بعد موتهم، وبالحشر أى بسوقهم إلى موقف الحساب ثم إلى الجنة أو النار.

والحشر والنشر من الأمور الممكنة عقلاً، وقد سبق أن شرحنا هذا بالتفصيل فى إمكان البعث عقلاً، ويقى أن نذكر بعض الآيات الكريمة والأحاديث النبوية التى وردت فى ذلك.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾[١] أى كما نحيى البلدة الميتة بقدرتنا كذلك يكون الإحياء بعد الموت. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾[٢]، أى إحياء بعد الموت للحساب، ويقول عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾[٣] أى أن الإنسان بعد موته ودخوله القبر فإنه فى مشيئة الله تعالى إن شاء أحياه بعد الموت.

وعن الحشر يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[٤]، أى أن المتقين يفدون فى جماعات إلى العظمة الإلهية، أما أولئك الذين ضلوا الطريق، ولم يتبعوا الرسل، فإنهم يساقون عطاشًا إلى نار جهنم، ويقول عز وجل: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾[٥]، أى أن الكافرين مع شياطينهم سيساقون يوم القيامة وهم جاثون على ركبهم.

---

(١) سورة فاطر الآية: ٩.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٣.
(٣) سورة عبس الآيتين: ٢١ - ٢٢.
(٤) سورة مريم الآيتين: ٨٥ - ٨٦.
(٥) سورة مريم الآية: ٦٨.

ويقول سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[١]، أى يوم نسوقهم يوم القيامة جميعًا ونقول للذين اتخذوا مناصرين لهم من دون الله، أين هؤلاء الشركاء الذين حسبتم أنهم ينفعون أو يضرون؟ والقول هنا على سبيل الاستهزاء والسخرية. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[٢]، أى من يأنف ويتكبر ويتعالى فسيساق يوم القيامة ليجازى على فعله الشنيع أمام الذات العلية. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ واتقوا الله وأعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾[٣]، أى أن جمعكم وسوقكم للحساب محقق. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[٤] أى أنهم يخرجون من قبورهم متسارعين ليساقوا للحساب، وهو أمر سهل - والسهولة هنا حسب تفكير الإنسان وتقديره لا حسب الذات العلية - فكل شىء بالنسبة له سبحانه بسيط.

وقد سأل رجل رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «أليس الذى أمشاه على رجليه فى الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟»[٥].

وعن عائشة ﵄ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة عراة غرلا - قلت: يا رسول الله النساء والرجال ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[٦].

---

(١) سورة الأنعام آية: ٢٣.

(٢) سورة النساء آية: ١٧٣.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٠٦.

(٤) سورة ق آية: ٤٤.

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب التفسير باب فى سورة الفرقان ٦/١٣٧، ومسلم فى صحيحه كتاب صفات المنافقين باب يحشر الكافر على وجهه ٤/٢١٦١.

(٦) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الجنة باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٤/٢١٩٤.

(١٣) لماذا البعث أو الحكمة منه؟

لعلك تسأل ماهى الحكمة من البعث؟ ألم يكن من الأجدى للإنسان أن يلقى ثوابه أو عقابه فى الدنيا؟

وللإجابة نقول: إنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعمر الأرض، ووهبه العقل ليفكر به، وبعث له الرسل ليبينوا له طريق الحق وطريق الضلال، وقضت حكمته أن يعطى الإنسان فسحة طويلة من الوقت وأن تكون الدنيا دار ابتلاء واختبار وعمل وأن تكون الآخرة هى دار الجزاء.

وإذا كان العلم يكتشف فى كل يوم خضوع كل ذرة فى الوجود لقوانين ثابتة فخالق القوانين سبحانه وتعالى أخضع الوجود وما بعد الوجود لقوانين ثابتة (ولن تجد لسنة الله تبديلا)[1] وأعلمنا سبحانه بدورنا على هذه الأرض، وأخبرنا على لسان رسله بأننا عائدون لامحالة للدار الأخرى. ومن التمحك والغرور العقلى أن نتساءل: لم لانحاسب فى الدنيا؟ فنحن جاهلون بأنفسنا، وبما حولنا من ماديات. فكيف بما وراء الوجود؟ إننا مطالبون بالتصديق بالبعث الأخروى وبالاستعداد له. ومطالبون بأن نسلم قيادنا فى هذا الجانب الغيبى لما جاء به رسل الله عليهم الصلاة والسلام. ومطالبون عقلياً وشرعياً أن نتأمل فى ذاتنا وفى الوجود حولنا وفيما جاء به الشرع وأن ذاك سوف نسير فى الطريق الصحيح ونعرف الكثير عن الحكمة من البعث فى الآخرة.

ولنتأمل معاً:

أولا: الإنسان هو المخلوق الوحيد على هذه الأرض الذى يتمتع بالعقل ويحس فى ذاته بالإرادة والاختيار ويقدر على معرفة عواقب فعله،

---

(١) سورة الفتح الآية: ٣٢.

وهذا الإنسان مشارك لبقية المخلوقات فى الجمادية والنمو والإحساس والخضوع للموت والحياة، ومخالف لها فى العقل والإرادة فلم؟ ثم إن كل جزء فى الإنسان مخلوق لحكمة، ويؤدى دوره تماماً كما تعمل أجزاء السيارة أو أى آلة مصنوعة، وإذا كنا نجزم بأن أجزاء السيارة متكاتفة تحقق الغرض أو الغاية أو الحكمة من وجودها. فما هى الحكمة من وجود الإنسان وأجزائه؟.

إذا قلنا: ليأكل ويشرب ويتناسل، كان معنى ذلك أنه لم يخرج عن دائرة الحيوان، وإذا قلنا: ليحقق الحياة السعيدة فلماذا يموت وهو فى طريقه لتحقيقها؟.

لقد تصفحت أشياء كثيرة فى هذا الوجود، تصفحت المعادن فعرفت الغاية من وجودها، وتصفحت النباتات فعرفت الغاية من وجودها، وتصفحت الحيوانات والحشرات فعرفت الغاية من وجودها، وتصفحت الكواكب فعرفت الغاية من وجودها، وحينما تصفحت الإنسان وجدت كل مافى الوجود لخدمته، فلماذا هو سيد على هذه الأرض؟ ولماذا زود بالعقل والإرادة؟ ولماذا جاءت له الرسل بالكتب السماوية من عند الله؟ إن الغاية من وجود الإنسان أسمى من كل شئ، إنها الاستخلاف فى الأرض ولايصح الاستخلاف إلا بالمسئولية ولا تكون المسئولية إلا بالحساب فى اليوم الآخر. يقول ربنا عز وجل:﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[1] وكل جزء فى الإنسان له مايكفيه، فالعين لها مايكفيها من الضوء، والأذن لها مايكفيها من السمع، والأنف له مايكفيه من الشم، والقلب له مايكفيه من الدم، والمعدة لها مايكفيها من الطعام، أما الآمال فلا يكفيها سويعات يعيشها الإنسان على ظهر هذه الأرض، إنه لايكفيها إلا الخلود، وقد أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى أن الآخرة محققة وأنها هى

(١) سورة المؤمنون الآية: ١١٥.

الحياة الحقيقية الدائمة. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾(٢).

ثانياً: إننا نثق فى صديقنا الذى وعد ونفذ وعده ونصفه دائماً بالصدق، وقد جاء محمد ﷺ إلى الناس كل الناس وأتى بألف دليل ودليل على صدقه وأيده ربه بالمعجزات الخارقة للعادة، ومن أهم معجزاته القرآن الكريم الذى يقول:﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ (٣). ويقول: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾(٤). وخطب الرسول ﷺ فى القوم فى أول بعثته فقال: «إن الرائد لايكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ماكذبتكم، ولو غششت الناس جميعاً ماغششتكم، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً».

فالرسول صادق ويؤكد صدقه بالقسم، فلم لاتكون الحكمة من البعث هى تحقيق وعد الله ورسوله؟.

ثالثاً: إن العدل قيمة من القيم الحميدة التى يتطلع إليها الإنسان ويحاول تطبيقها مع نفسه ومع أفراد أسرته ومع المجتمع والإنسان العادل إنسان فاضل وموضع تقدير من الجميع.

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦٤.
(٢) سورة الكهف الآية: ٤٦.
(٣) سورة النحل الآية: ٣٨ – ٣٩.
(٤) سورة النساء الآية: ١٢٢.

ولو نظرنا لأى مجتمع من المجتمعات لوجدناه يطفح بالشرور، فالملحد والقاتل والسارق والمرتشى وشارب الخمر ربما صاروا الأسياد، وفى المقابل نجد المؤمن صاحب العقيدة مبتلى فى دينه ودنياه، بل ربما سيق كما تساق البهيمة إلى المذبح.

ومايحدث فى أفغانستان وأريتريا والفيلبين والشعب الفلسطينى ليس ببعيد عنا، وماحدث أخيراً من حرب ضارية بين العراق وإيران لا لشئ إلا لسيطرة إرادة شخصية على إرادة شخصية يدمى قلوبنا ويفزع عقولنا.

ومن التدمير النفسى ومن الظلم الفاحش للإنسانية أن يقال: إنه بالموت ينتهى كل شئ يسوى الفناء بين الظالم والمظلوم والقاتل والمقتول وبين ذلك الذى عاش حياته بطولها وعرضها مترعة بالفواحش والفجور وبين صاحب العقيدة الإيمانية.

إننا نؤمن بأن الله موجود وبأنه يتصف بكل كمال، ومن الكمالات صفة العدل ومن العدل أن يرى الملتزم بالعقيدة نتيجة التزامه والخارج عنها نتيجة خروجه، ونحن لانرى هذا كثيراً فى الدنيا، فهل الإنسان أكثر عدلا من الله؟ هل المخلوق أعظم من الخالق، لتستمع للقرآن الكريم: ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾(١). ويقول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾(٢). لقد قضى عدله سبحانه أن تكون الدنيا دار ابتلاء

(١) سورة العنكبوت الآية ١ - ٣.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٥٥ - ١٥٧.

واختبار، وأن تكون الآخرة هي دار الجزاء الحق، دار لتحقيق العدل الإلهي، وقتها يعطى كل إنسان كتابه. يقول سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١). ويقول العادل الحكيم سبحانه :﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ (٢).

رابعاً: لقد خلق الله سبحانه وتعالى كل شئ بالحق، لكن الناس فى دنياهم زيفوا القيم النبيلة، وبالغش والنفاق والخديعة تحركوا، نسوه سبحانه وتعالى فأنساهم أنفسهم لم يفكروا فاهتزت المقاييس أمام عيونهم، ونتج عن هذا أن وضع الصالح مكان الفاسد، والفاسد مكان الصالح.

ويأتى البعث الأخروى لإقامة الحق ووضع كل انسان فى مكانه اللائق به ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (٣). ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ (٤).

خامساً: يقول سبحانه وتعالى:﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٥).

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١٥٥– ١٥٧.

(٢) سورة الزلزلة الآية: ١٣–١٥.

(٣) سورة هود الآية: ١٠٦.

(٤) سورة هود الآية : ١٠٨.

(٥) سورة ق الآية ١٨.

وقد ثبت علمياً أن الأصوات والحركات وكل عمل يقوم به الإنسان سواء كان فى النور أو فى الظلام مثبوت فـى سجل الوجود، ولقد تمكن العلماء من تصوير أحداث بعد ساعة من وقوعها، ولعله فى المستقبل القريب حينما تتطور هذه الأجهزة يكون فى مقدورهم تصوير أحداث مضى عليها آلاف السنين فلم تحفظ هذه الأحداث؟ إن العقل يؤكد أنها حفظت لتعرض على الإنسان كل أعماله يوم القيامة.

ولقد سئل ﷺ عن معنى الآية الكريمة:(يومئذ تحدث أخبارها) فقال ﷺ:«أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا. فهذه أخبارها» [1]فماذا سألنا أنفسنا لماذا سجلت أعمالنا؟ أجابنا القرآن الكريم على لسان الكفار:﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [2] ويكون معنى هذا أن الحكمة من البعث أن يرى كل إنسان عمله.

سادساً: إن أسمى ما يتطلع إليه الإنسان أن يرى خالقه وقد أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى وخبره صدق ووعده لا يتخلف. أن الوجوه الناضرة وهي وجوه المؤمنين سوف تراه يوم القيامة. يقول سبحانة وتعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3]. ويقول:﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[4]، ولقد سئل ﷺ عن المراد بالزيادة فأجاب: بأنها رؤية الله سبحانه وتعالى، وسئل ﷺ هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فأجاب:«هل تضارون فى القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يارسول الله. قال: هل

---

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة.

(٢) سورة الكهف الآية رقم ٤٩.

(٣) سورة القيامة الآية رقم ٢٢:٢٣.

(٤) سورة يونس الآية رقم ٢٦.

تضـارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قـالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه كذلك»[١]

وعن صهيب قال:رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا يا أهل الجنة إن لكم عند ربكم موعداً لم تروه؟ قال فيقولون: فما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه – قال – فوالله ما أعطاهم الله عز وجل شيئاً هو أحب إليهم منه».

فلم لا تكون الحكمة من البعث تحقيق أسمى أمانى المؤمن برؤية ربه عز وجل؟

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

(١٤) الميزان

والميزان من الأمور الممكنة عقلا، إذ لا يترتب على وجوده أى محال وكل ممكن فهو جائز الوجود أو العدم ويحتاج إلى مرجح أو مخصص، ولقد علمنا أن قدرة الله سبحانة شاملة لكل الممكنات.

فإذا جاءت النصوص السمعية لتخبر بوجود الميزان يوم القيامة ليوزن به كل أعمال الإنسان، وليعرف كل إنسان مقدار ما عمل من سيئات أو حسنات، وأنه إن أثيب فبمحض اللطف، وإن عوقب فبمحض العدل وجب التصديق به، وأصبح المخصص أو المرجح لوجوده الفعلى يوم القيامة هو السمع من قرآن كريم أو سنة مطهرة.

يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[١]، أى نضع الموازين العادلة يوم القيامة لتتحقق كل نفس من العدل الإلهى ويوضع فى الميزان كل شئ حتى ولو كان مثقال حبة من نبات الخردل المعروف بخفته.

ويقول سبحانه وتعالى :﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾[٢]، أى أن الذى ثقلت موزوناته من الأعمال الخيرة فمآله الجنة يعيش فيها راضى النفس، وإما من خفت موزوناته فمأواه النار جزاء لما ارتكب من السيئات. ويقول سبحانه:﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[٣] أى أن الوزن الحقيقى الصحيح يكون يوم القيامة فمن ثقلت أعماله الصالحة فأولئك هم الفائزون، ومن خفت موزوناته من الأعمال

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ٤٧.

(٢) سورة القارعة الآية رقم ٦:٩

(٣) سورة الأعراف الآية رقم ٨:٩

الصالحة ورجحت كفة سيئاته فهو من الذين ضلوا السبيل وظلموا أنفسهم والتحقوا بالخسران المبين فحق عليهم العقاب الشديد.

وعن عائشة ﵂ قالت:تذكرت النار فبكيت، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام :«مايبكيك؟» قلت:ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله: «أما فى مواطن ثلاثة فلا يذكر أحد أحداً عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الكتاب حتى يقال هاؤم اقرءوا كتابيه» حتى يعلم أين يقع كتابه؟ أفى يمينه أم فى شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهرانى جهنم»[1]

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون الحدود التى يمكن للعقل أن يصل إليها، ولهذا آمنوا بالنصوص السمعية الواردة فى أمر الميزان، وعلموا أنه كفتان ولسان يوزن به عمل الإنسان ولم يقولوا: لم وكيف؟

راى للمعتزلة فى الميزان:

أما المعتزلة فقد حكموا العقل فى كل شىء وحسبوا أنه بإمكانه التحرك فى كل الدوائر، وحسبوا أن الحسن ما حسنه العقل وأن القبيح ما قبحه العقل وحسبوا أيضاً أن أفعال الله لابد أن تعلل.

ولهذا رفضوا الميزان بمعناه الظاهر - كفتان ولسان - وقالوا: «يجب حمل ماورد فى القرآن من الوزن والميزان على رعاية العدل والإنصاف بحيث لا يقع فيه تفاوت أصلا لا على آلة الوزن الحقيقى، وذلك لأن الأعمال أعراض متى عدمت فلا يمكن إعادتها وإن أمكن إعادتها فلا يمكن وزنها إذ لا توصف الأعراض بالخفة أو الثقل.. وأيضاً فالوزن للعلم بمقدارها وهى معلومة لله تعالى بلا وزن، فلا فائدة فيه فيكون قبيحاً تنزه عنه الرب تعالى» (٢).

(١) الاعتقاد البيهقى ص ١٠١.

(٢) شرح المواقف ج ٨ ص٢٤٥.

الرد عليهم:

ويرد عليهم بأن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع، وأن مجال العقل فيما لم يرد فيه الشرع بنص صريح، أما إذا تعددت النصوص الصريحة فلا مجال لعمل العقل بل يجب التسليم بما ورد به ظاهر النص.

كذلك فإن أفعال الله سبحانه وتعالى لا تعلل حيث لا يجب عليه سبحانه شئ. يقول عز وجل: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون﴾[١]. وخفاء الحكمة فى شئ من الأشياء لا يعنى أن هذا الشئ قبيح، بل إن العقل قاصر فى المعرفة. ثم ما الذى يمنع قدرته الشاملة من إعادة الأعراض؟ وما الذى يمنع من جعل الأعراض أجساماً نورانية كتعبير عن الأعمال الطيبة وأجساماً مظلمة كتعبير عن الأعمال السيئة؟ وما الذى يمنع أن يكون الموزون فى الحقيقة هو صحف الأعمال بعد أن يخلق الله سبحانه وتعالى فيها ثقلا خاصاً بقدر الحسنات أو السيئات؟

والله سبحانه وتعالى عالم بكل شئ ولا يخفى عن علمه تعالى مثقال ذرة أو أدنى من ذلك بل هو سبحانه:﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور﴾[٢] ولا يعنى الوزن استحداث علم له سبحانه، لأن كل شئ كما تقولون ونقول معلوم له سبحانه، وإنما يعنى بالميزان ووزن أعمال العباد إطلاع كل فرد على ما قدمت يداه ليتأكد يقينا أن العذاب بالعدل المطلق وأن الثواب باللطف المطلق. ويقول سبحانه وتعالى:﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٣] .

---

(١) سورة الأنبياء رقم ٢٣.
(٢) سورة غافر الآية رقم ١٩.
(٣) سورة الزلزلة الآية رقم ٧:٨

(١٥) الصراط

من أمور الآخرة أيضًا الصراط، وهو عبارة عن جسر أو طريق ممدود فوق جهنم ورد فى وصفه أنه أحد من السيف وأدق من الشعرة يعبر عليه كل البشر.

وهو من الأمور الممكنة عقلاً والذى يخرجه من دائرة الإمكان إلى دائرة الوقوع الفعلى ورود السمع به. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾[١]. ويقول: ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾[٢].

وعن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم»[٣].

والمؤمنون يدعون ربهم فى كل وقت اللهم ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

أما المعتزلة فقد نحوا منحى آخر، فأولوا الصراط وقالوا: «إن المراد به هو الأدلة الواضحة على الطاعات أو المعاصى»[٤]، وقد حكى القاضى عبدالجبار عن كثير من شيوخ المعتزلة قولهم: «إن الصراط إنما هو الأدلة على الطاعات التى من تمسك بها نجا ... والأدلة على المعاصى التى من ركبها هلك.... »[٥].

---

(١) سورة يس الآية: ٦٦.

(٢) سورة الصافات الآية ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤيا ١/١٦٣ - ١٦٦.

(٤) شرح المقاصد للسعد جـ٢ ص ٢٢٣.

(٥) شرح الأصول الخمسة ص ٧٣٨.

ويرد عليهم: بأن اللجوء للتأويل إنما يصح فى حالة غموض اللفظ أو حمله لمعان مختلفة أو وجود ضرورة تقتضيه مثل أن يترتب على عدمه لحوق التجسيم أو التشبيه بذاته تعالى أو الوقوع فى التناقض مع القرآن أو السنة المطهرة وحديث الرسول فى غاية الوضوح ولا يحتمل أى تأويل فإن قيل: كيف يمكن المرور عليه وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف؟

قلنا: إن قدرة الله تعالى تشمل كل الممكنات ولا يستحيل عليه سبحانه أن يعطى الإنسان القدرة على المرور عليه.

وقد كان من المعلوم أن الإنسان لا يستطيع السباحة فى الفضاء الخارجى ثم أظهر العلم الحديث قدرة الإنسان على السباحة خارج دائرة الجاذبية الأرضية، وبدأنا نسمع كثيراً عن سفن الفضاء وعن روادها الذين يخرجون منها ويستمرون لساعات طويلة سابحين فى الفضاء.

ثم إن القوانين تفقد فاعليتها يوم القيامة بقدرة الله تعالى، فلا تكون هناك جاذبية أرضية أو أى جاذبية لكوكب آخر.

فإذا عقلنا هذا تبين لنا أن المشى على الصراط أيسر من السباحة فى الفضاء، والأعمال الصالحة للمؤمن تعينه على اجتيازه فى لحظات، بينما ينكب الكافر على وجهه لسوء عمله فيسقط فى جهنم.

اللهم اجعل الصراط لنا ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

(١٦) الشفاعة

من الأمور التى تتصل باليوم الآخر الشفاعة، ونعنى بها شفاعة الرسل والملائكة والشهداء والصالحين من الناس للمسلمين العصاة عند ربهم.

ومن عدل الله وواسع رحمته، أنه يفتح باب المغفرة على مصراعيه فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(١). ليس هذا فحسب، بل إنه سبحانه يقبل شفاعة الشافعين يوم القيامة.

فما معنى الشفاعة؟

الشفاعة فى اللغة: الوسيلة والطلب، وشفع له عند آخر يشفع شفاعة، أى طلب التجاوز عن سيئة الغير «فهو شافع وشفيع».

وفى الاصطلاح: توسل الرسول وطلبه - أى من يتشفع - من الله سبحانه وتعالى المغفرة والخير للمذنبين من بنى البشر.

وتتخذ الشفاعة صوراً عدة:

أولها: الشفاعة العظمى وتكون يوم الهول الأكبر فى الموقف العظيم قبل الحساب، يومها يتمنى كل فرد أن يعجل بحسابه حتى يتخلص مما يعانيه من كرب وعناء، وتتجه كل أمة إلى رسولها تطلب منه أن يدعو ربه لتخفيف الكرب والشدة.

وقتها يختص الله سبحانه وتعالى حبيبه محمداً ﷺ دون غيره من مخلوقاته بقبول شفاعته.

ثانيها: استجابة الله سبحانه وتعالى لشفاعة نبيه محمد ﷺ وإدخاله الجنة لقوم بدون حساب.

---

(١) سورة النساء الآية: ٤٨.

ثالثها: استجابة الله سبحانه وتعالى لشفاعة نبينا محمد ولشفاعة الملائكة والشهداء والصالحين فى قوم استوجبوا النار فيغفر لهم نتيجة الشفاعة.

رابعها: إخراج قوم من النار قبل أن يستوفوا جزاءهم وإدخالهم الجنة بشفاعة نبينا محمد ﷺ والملائكة وبعض المؤمنين، ثم يخرج الله سبحانه وتعالى كل من قال: لا إله إلا الله ولا يبقى فى النار إلا الكفار.

خامسها: زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها لشفاعة رسولنا محمد ﷺ والملائكة وبعض المؤمنين.

الشفاعة بين العقل والنقل:

والشفاعة من الأمور الممكنة عقلاً، فإن الحبيب مع حبيبه فى دنيا الناس يقبل منه كل شىء، فلنفرض أن شخصاً ما قد أساء إلى إساءات خطيرة، ثم جاءنى صديق عزيز حبيب إلى قلبى وطلب منى أن أغفر الإساءات التى وجهت لى وأن أتسامح فى حق نفسى، وأعلمنى أن العفو عند المقدرة هو سمة الأفذاذ من الرجال وظل يحدثنى فى هدوء وصدق ورجاء.

ألا تروا معى يا أبنائى أن قبول شفاعة الصديق، أولى من استمرارى فى الغضب والتهديد والتوعد.

فكيف نقبل هذا ونستريح له عقلاً فى دنيانا، ولا نعقله ونقبله من رب كريم، ومن رب عدل رحيم قادر متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص يختص برحمته من يشاء ويصطفى من ملائكته رسلاً ومن الناس؟ ويقول: ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾(١)، أى أنه هو مالك الشفاعة كلها ولا يستطيع أحد شفاعة ما إلا لمن أذن له ولمن ارتضاه، ولقد أذن سبحانه وتعالى لرسله وارتضى منهم الشفاعة فهل فى هذا مخالفة عقلية؟

---

(١) سورة الزمر الآية: ٤٤.

والقرآن الكريم والسنة المطهرة يؤكدان وجود الشفاعة فى الآخرة. يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[1]. ويقول عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[2]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[3]. ويقول سبحانه: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[4]. ويقول فى حق أولئك الذين أعرضوا عن كلمة التوحيد وآثروا الغى والضلال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[5] وفى حقهم أيضًا يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[6]. والمراد بالظلم فى الآية الكريم الشرك، فلقد سمع بعض الصحابة قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[7]. فقالوا: يا رسول الله، وأينا لم يظلم، فأعلمهم ﷺ بأن المراد بالظلم هو الشرك.

وعن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وأبعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة»[8]. وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبى دعوة

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٨.

(٢) سورة طه الآية: ١٠٩.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.

(٤) سورة مريم الآية: ٨٧.

(٥) سورة المدثر الآية: ٤٨.

(٦) سورة غافر الآية: ١٨.

(٧) سورة الأنعام الآية: ٨٢.

(٨) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الأذان باب الدعاء عند النداء ١٥٩/١.

مستجابة فتعجل كل نبى دعوته لأمته وإنى أختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا»[١].

الشفاعة ومرتكب الكبيرة:

يقتضينا سياق حديث رسول الله الذى ذكرناه أخيرًا أن نسأل: هل شفاعة نبينا ﷺ تشمل الكبائر أم أنها قاصرة على الصغائر فقط؟

قبل أن نذكر النصوص نقف وقفة قصيرة مع بعض الفرق الإسلامية ونسأل: ما هو اسم مقترف الكبيرة من أهل الإسلام؟ وما هو حكمه فى الآخرة؟

يقول أهل السنة: إن من ارتكب كبيرة من المسلمين غير مستحل لها ولا مستخف بالشرع فهو مؤمن وحكمه أنه لو مات من غير توبة فهو بين مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له إلا أن مآله إلى الجنة.

ويقول المعتزلة: إن مرتكب الكبيرة فاسق وحكمه أنه فى منزلة بين المنزلتين - أى لا هو مؤمن ولا هو كافر - ولو مات قبل التوبة خلد فى النار خلودعصيان وليس خلود كفر ولم ينفعه ما معه من إيمان.

ويقول الخوارج: إنه كافر وإنه فى الآخرة مخلد فى النار.

ولعلنا نستريح لقول أهل السنة، ومستندنا فى ذلك أن الإيمان هو التصديق وما لم يتبدل بالتكذيب تكون الذات مؤمنة، ثم إن الله سبحانه وتعالى أبقى اسم الإيمان مع وجود ما عليه الوعيد وهو القتل والبغى. يقول سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[٢]، فقد أطلق سبحانه اسم الإيمان عليهما مع أن فيهما حتمًا فئة باغية، والبغى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الدعوات باب قوله تعالى «ادعونى استجب لكم» ٨/٨٢ - ٨٣.
ومسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب اختباء النبى ﷺ دعوة الشفاعة لأمته ١/١٨٩.

(٢) سورة الحجرات الآية: ٩.

كبيرة، ثم إن الأمة الإسلامية أجمعت على الصلاة على من مات من المسلمين من غير البحث فى أحوال الميت هل ارتكب كبيرة أم لم يرتكب؟ وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[١] ومن الذنوب الكبائر، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٢]، والآية صريحة فى اشتمالها على غفران كل الذنوب، ما عدا الشرك. وعن أبى ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة - فقلت: يا رسول الله وإن زنى وإن سرق - وردد ذلك ثلاثًا. فقال ﷺ: نعم رغم أنف أبى ذر»[٣].

وإذ قد تبين لنا أن مرتكب الكبيرة عند أهل السنة مؤمن وهو بين مشيئة الله سبحانه وتعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له وأن مآله حتمًا إلى الجنة.

فبالأحرى يجوز أن يتشفع له رسولنا عليه الصلاة والسلام، كما يجوز أن تقبل شفاعة الرسول فيه.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»[٤]. وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتى الجنة، فاخترت الشفاعة؛ لأنها

---

(١) سورة الزمر الآية: ٥٣.

(٢) سورة النساء الآية: ٤٨.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب اللباس باب الثياب الأبيض ١٩٢/٧ - ١٩٣.

وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات مشركًا دخل النار ٩٥/١.

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب السنة باب فى الشفاعة ٢٣٦/٤.

وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب صفة القيامة باب ما جاء فى الشفاعة ٦٢٥/٤ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

أعـم وأكـفـأ، أترونـهـا للمـؤمـنين المتـقين، لا ولكنهـا للمـؤمـنين المتلوثين الخطائين»(١).

شبهات المعتزلة في الشفاعة والرد عليها:

أما المعتزلة فإنهم لما ذهبوا إلى القول بتفسيق مرتكب الكبيرة وأنه مخلد في النار إذا مات على غير توبة قالوا: إنه لا يجوز أن يشفع له ولا أن يغفر ذنبه بالشفاعة.

وقد استدلوا على ذلك بعدد من الأدلة نذكرها مع ردنا على كل دليل:

أولاً: يقـول سبحـانه وتعـالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾(٢)، ومـرتكـب الكبـيـرة غـيـر مـرضي، فـلا يجـوز أن يشـفـع لـه الرسـول عنـد الله.

ونرد عليهم: بأن سياق الآية معناه أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله أن يشفعوا له، ومرتكب الكبيرة المؤمن بما معه من التوحيد والطاعات والحسنات مرضي عند الله تعالى فيشفع له.

ثانيًا: يقـول سبحـانه وتعـالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾(٣) وقاتل النفس مثلاً ظالم فلا يجوز أن يشفع له الرسول.

ونرد عليهم: بأن المراد بالظلم الكفر، والكافر هو الظالم المطلق، أما المؤمن الذي معه التصديق والأعمال الصالحة فلا يسمى ظالمًا إلا على سبيل المجاز فيجوز أن يشفع له الرسول.

ثالثًا: يقـول سبحـانه وتعـالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾(٤). ومرتكب الكبيرة مجرم فهو مخلد في النار ولا يشفع له.

---

(١) أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة ١٤٤١/٢ وقال الشيخ محمد فؤاد عبدالباقي في الزوائد إسناده صحيح.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٢٨.

(٣) سورة غافر الآية: ١٨.

(٤) سورة الزخرف الآية: ٧٤.

ونرد عليهم: بأن المراد بالمجـرمين الكفـار، لإعـراضـهم عن الحق والحقيقة واستمرارهم فى الغى والضلال.

رابعًا: يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾(١) ومرتكب الكبيرة عاص ومتعد لحدود الله وكل من كان كذلك كان مخلدًا فى النار ولا يشفع له.

ونرد عليهم: بأن المراد بالعصيان والتعدى هو الكفر، ولو حملناه على المؤمنين لقلنا: إنهم أولئك الذين استحلوا العصيان واستمروا فيه واستخفوا بالشرع ولم يهتموا بالتنزيل وفعلوا كل ذلك بعقلانية كاملة طيلة حياتهم فهؤلاء يخرجون من دائرة التصديق ليدخلوا فى دائرة التكذيب ومن كان أمره كذلك فهو كافر.

خامسًا: يقولون: إن فى إثبات الشفاعة لمرتكبى الكبيرة تجرئة ومساعدة لهم على الاستمرار فى غيهم وضلالهم.

ونرد عليهم: بأن الشرع هو الذى أثبت ذلك بنصوص صريحة لا تقبل التأويل والقول بغير ذلك تكذيب للشرع.

ثم إن إثبات الشفاعة لمرتكبى الكبيرة من أهل الإسلام ليس فيه أى تجرئة أو تشجيع؛ لأن مرتكب الكبيرة لا يدرى بطريق اليقين أنه سينال الشفاعة، فالشرع يدفع عنه اليأس ويدخله من باب الرحمة الإلهية، وربما أدى هذا إلى توبته وعودته إلى رياض الإيمان، يقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٢) صدق الله العظيم.

تم بحمد الله وتوفيقه

---

(١) سورة النساء الآية: ١٤.

(٢) سورة الزمر الآية: ٥٣.

ثبت بأهم بالمراجع

اسم الكتاب	المؤلف
١) الإبانة.	أبو الحسن الأشعرى
٢) الإرشاد.	الجوينى
٣) الإسلام يتحدى.	وحيد الدين خان
٤) أصول الدين.	البغدادى
٥) الاعتقاد.	البيهقى
٦) الاقتصاد فى الاعتقاد.	الغزالى
٧) الله يتجلى فى عصر العلم.	مجموعة من العلماء الأمريكان
	ترجمة د. الدمرداش سرحان
٨) الإنجيل.	———
٩) الإنصاف.	أبو بكر الباقلانى
١٠) تبصرة الأدلة.	أبو المعين النسفى
	تحقيق/ د. محمد الأنور
١١) تفسير القرآن العظيم.	ابن كثير
١٢) تفصيل النشأتين.	الدهلوى
١٣) التوراة.	———
١٤) تهافت الفلاسفة.	الغزالى
١٥) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان.	د. محمد عبدالله دراز

اسم الكتاب	المؤلف
١٦) شرح الأصول الخمسة.	القاضى عبدالجبار
١٧) شرح الطحاوية.	على بن أبى العز
١٨) شرح مطالع الأنظار على الطوالع.	شمس الدين بن محمود الأصفهانى
١٩) شرح المقاصد جـ٢.	سعد الدين التفتازانى
٢٠) شرح المواقف جـ٣.	السيد الشريف الجرجانى
٢١) الطبيعة وما بعد الطبيعة.	د. يوسف كرم
٢٢) عصمة الأنبياء.	فخر الدين الرازى
٢٣) العلم يدعو للإيمان.	أ. كريسى موريسون ترجمة محمود الفلكى
٢٤) الفقه الأكبر.	الإمام أبو حنيفة
٢٥) قصة الإيمان.	الشيخ نديم الجسر
٢٦) المغنى جـ١٥.	القاضى عبدالجبار
٢٧) الملل والنحل.	الشهرستانى
٢٨) نهاية الإقدام.	الشهرستانى

الفهـــرس

الموضوع	الصحيفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٠/١٥٤٢١
مطبعة رشوان